ماضي شمال إفريقيا

تأليف : أ.ف.غوتييه



ماضي شمال أفريقيا

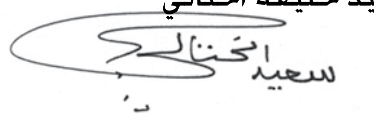
تأليف : أ.ف.غوتييه

ترجمة : هاشم الحسيني

إهداء إلى كل أبناء ليبيا الحبيبة

مع كامل محبتي وتقديري

سعيد خليفة الختالي



طبع هذا الكتاب سنة 1970 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه
على نفقة سعيد خليفة الختالي

مؤسسة تاوالت الثقافية 2010
http://www.tawalt.com/

تمهيد

أميل فيليكس غوتييه (1864-1940) عالم جغرافي بارز قادته الجغرافيا إلى التاريخ، والتاريخ مال به لدراسة الإنسان.

اعتمد غوتييه في أبحاثه مختلف الوسائل العلمية وتوزعت نشاطاته بين زيارة الأماكن ومراجعة الكتب القديمة وغربلتها، فتوصل على ضوء ذلك لأعمق الاستنتاجات.

بدأ المؤلف حياته أستاذا في مدغشقر قبل انتقاله للجزائر ليستقر فيها, وقد عرف ببعده عن روح لتقليد وامتاز بنزعته التجديدية.

وكتابه «ماضي أفريقيا» من المؤلفات النادرة التي وضعتها بين يدي الباحثين الغربيين ليفتح أمامهم طريق البحث العلمي الشاق في شؤون الشمال الإفريقي منذ أقدم العصور. وقد حرص المؤلف على عرض شؤون الشمال الإفريقي منذ أقدم العصور. وقد حرص المؤلف على عرض فرضياته حيث لم تتوفر لديه البراهين اللازمة لاستجلاء بعض الغوامض التي سعى إلى كشفها.

ذلك ل يجنبه لوقوع في الخطأ والإجحاف بعض لأحيان. فهو على سبيل المثال لم يقر الجزائر كدولة قائمة بذاتها لا يمكن أن يكون جزءا من فرنسا.

وكتاب غوتيه لم يفقد أهميته بمرور الزمن. وإذا كان يحتاج لبعض الإضافات والمعلومات التي تفسر فيما بعد. فان المؤلف نفسه لا يمانع في الإفادة منها وهو الذي دعا لتجنب التأويلات السطحية ونادى بضرورة التسليم بحقيقة الوقائع حين توفرها.

مقدمة

البلاد: إذا شئنا أن نفهم تاريخ المغرب علينا ألا ننسى الإلمام بطبيعة هذه البلاد ذات الماضي المميز.

جزيرة المغرب:كثيرا ما يتردد على مسامعنا التعبير العربي، جزيرة المغرب، مع أن المنطقة ليست محاطة بالماء إلا من ناحية الشمال، في حين نحاصرها الصحراء جنوبا وتعزلها أكثر مما يعزلها البحر الأبيض المتوسط.

أن البلدان القارية التي تتصل اتصالا حرا بما يحيط بها من شأنها أن تؤثر بلا هوادة في حياة الكرة الأرضية .

أما بالنسبة للمغرب فتختلف الحال نظرا لعزلته البعيدة. ففيه امتد العصر الحجري أكثر من امتداده في أوروبا، وفيه المغربي تأخر عن ركب الحضارة أكثر مم تأخر غيره من سائر شعوب الأبيض المتوسط البيضاء.

يضاف إلى ذلك، أن أي حديث جديد في بلده هذه سماته،ومن شانه أن يحدث تغييرا بعيد المدى فيه نحو من الاتساع لا نعرفه في أوروبا. ولنلاحظ المناظر الطبيعية لنتأكد من ذلك. ففي فرنسا مثلا لم تتغير الطبيعة كثيرا عما كانت عليه في الطور الرابع، وإن تغيرت فليس إلى حد زالت فيه معالم الماضي تماما. وبوسعنا أن نتعرف في فرنسا اليوم إلى ملامح بلاد الغال القديمة من حيث وجود النبات وحياة الحيوان.

أما في المغرب فلا نجد اليوم سوى نبات الصبار على أنواعه وقد استورده الإنسان من القارة الأمريكية منذ قرون أو أربعة. أو بساتين البرتقال بأثمارها الذهبية وهي من أصل صيني عرفتها البلاد في القرون الوسطى. يضاف إليها الزهور الاستوائية التي تزرع في حائق لاختبار وجل أسمائها لاتينية.

في بلادنا أيضا تطورت أزهار الحدائق منذ قرنين أو ثلاثة لكنها ظلت متواضع تعيش في الدور السفلى أو على موائد الحفلات أو في أنية قاعات الاستقبال. وفي المغرب وحده

نر الزهور تعلو البيوت في أنحاء المدينة عل وتذكرنا بلندن يعشعش فيها نبات المريخ كما تصوره رواية ويلز: «حرب العوالم».

وإن شئنا أن نتمثل منظر أفريقيا الروماني، ينبغي لنا أن نحف أنواع النباتات التي تثيرها في أذهاننا ذكر المغرب.

وسنتحدث فيما بد عن الصعوبة التي نجدها في تصور حيوان أفريقيا الرومانية حيث كان كل يحل محل الجمل - الذي لم يعرف في ذلك الوقت- قطعان من الفيلة البري.

تلك القفزات المفاجئة نجدها أيضا في التاريخ البشري. فيالها من هوة سحيقة بين قرطاجنة البونية والروماني ! بين أفريقيا الرومانية والمغرب المسلم! كذل بينه وبين أفريقيا الفرنسية!

كل شيء يتبدل عل حين غرة: اللغة والدين والمفاهيم السياسية والاجتماعية. انه تاريخ شديد التقطع إلى أجزاء منفصلة بعضها عن بعض. ففي أوروبا تطور متكامل حسب خط متصل. أما المغرب فسلسلة من التبدلات المفاجئة.

إلى أن هناك مجموعة من الظواهر تدفعنا دائما لتذكر عبارة «جزيرة المغرب». فقد حافظت بعض أنواع الأزهار والحيوان على بقائها إلى جانب شكل من أشكال الحضارة رغم جميع التغيرات. ذلك لأنها في عزلتها لم تتعرض لصراع البقاء. ثم جاءت الحياة الجديدة لتطغى على معالم الأشياء لأولى الباقية الباقي.

الافتقار لنقطة مركزية

وللمغرب خاصة جغرافية أخرى لها دلالة كبرى. فليس فيه - كما عندنا - نقطة مركزية تجمعت حولها المقاطعات المختلفة قبل أن تنصهر في ما بينها.

ومن الثابت أن رقعة المغرب القابلة للسكن والحراثة لها إمكانيات ضئيلة. إنها شريط بمحاذاة المتوسط و المحيط طوله 3000 كيلومتر و عرضه 150. وبسبب طبيعته الجغرافية هذه لم يتخذ المغرب شكلا مستمرا، كما يقولون.

وإذا كان ها المبرر وجيها فليس هو كافيا. فصحيح أن المغرب لم يبلغ درجة الوحدة السياسية، غير أن جميع ممالكه الكبرى تبدي ميزة تثير الانتباه؛ فما أن تكونت هذه الممالك حتى بلغ مداها أقصى البلاد: شأن الملوك النوميديين لان صفاقس حاكم سرتا لواقعة على أبواب قرطاجنة كان سيد رشقون مرفأ تلمسان. لم يكد الفاطميون يسيطرون على القيروان حتى استولوا على فاس. كذلك الموحدون حكام فاس استولوا

على تونس. ذلك على عكس ما جرى في أوروبا. فحول النواة المركزية التي تكونت في البداية اتسعت المناطق بمرور الزمان، ونجم عن ذلك بناء متين. أما في المغرب فالوحدة سهلة التحقيق لكنها سهلة الزوال أيضا. وذلك المغرب كالفطور تنبت في الليل وتذبل في الصباح.

وثمة قرينة جغرافية تساعد على تفسير هذه الظاهرة، حيث أن هناك سلسلة من السهول المرتفعة حينا والمنخفضة حينا أخر وتمتد من سرت حتى المحيط الأطلسي، وهي طريق طبيعة تربط أجزاء المغرب وتفتحها بعضها على بعض. على هذه الطريق سارت جميع القبائل البدوية وجميع الجيوش. انه مبدأ الوحدة الكبير. فعلى طول هذا الشريان الحيوي تنطلق عدوى الفتوحات بسرعة مدهشة من سرت إلى الأطلسي وبالعكس. بيد انه الشريان الوحيد مع الأسف، وهو طويل جدا وضيف أيضا كما تتخلله التعرجات مما يجعل عبوره صعبا، فإذا بدأ الغزو فلا يمكن استمراره طويلا.

بلاد الملح

ونرى من الواجب التوقف أمام لمحة جغرافية أخرى يبدو أنها خفيت على كثيرين رغم أهميتها: انه المناخ، فما من عامل جغرافي أخر له أهمية المناخ.

يروى عن فردينان برونتيار قوله حين جاؤوه بمقال عن انكلترا: «هل ذكرتم أن انكلترا جزيرة؟» ليس من الضروري أن تكون هذه النكتة صحيحة غير أنها ذات دلالة بحيث لا يمكننا الكلام عن الجزائر ما لم نذكر أنها بلاد الملح.

فجميع مناطق المياه الراكدة في هذه البلاد عبارة عن شطوط جرداء لماعة زاخرة بالملح. وهناك نهر اسمه الوادي المالح. وفي وهران حيث تنتشر اللغة الاسبانية نجد طائفة من الأنهر تحمل اسم: النهر المالح.

وحيثما سرت في الطريق والمنعطفات تشاهد مواقع الملح. ليس هذا شيئا جديدا بالطبع: فالكل يعم أن المغرب محاط بأكبر صحراء في الكرة الأرضية كما يعلم الكل أن انكلترا جزيرة، لكن النتيجة التي نصل إليها من جراء ذلك لابد وان تثير الدهشة.

حتى في الأرض القابلة للزراعة في الجزائر لا تجد الرطوبة الكافية للخصوبة، فتربة المغرب كلسية بفعل التبخر.

قد يبدو الأمر مستغربا بالنسبة لنظرتنا المألوفة لإفريقيا التي نطلق عليا اسم هراء روما؛ وكثيرا ما كان هذا التعبير يتردد إبان الاحتلال الفرنسي.

هذا أمر صحيح ولكن إليك السبب الحقيقي للتسمية: كانت روما زمن الأباطرة تؤمن لشعبها القوت عن طريق فرض الضرائب. وكانت أفريقيا تدفع في الواقع ما يطعم 350,000 نسمة، من هذه الجهة يمكن اعتبارها اهراء لروما. ولا يبقى ذلك وجود أساليب جديدة لتحسين الري. ولاسيما وان هناك نوع من الزراعة خاصا ببلاد الملح. لكنها طريق شاقة والمغرب ليس أرضا شديدة الخصوبة.

ولا هو البلد المصالح لتربية الماشية. فليست الثيران المغربية أضخم جثة من حميرا أوروبا. وتربية الماشية تحتاج لتأمين السبل اللازمة للحصول على قوتها في سنوات الجفاف المريرة.

كذلك ليس المغرب بلاد صناعة. فوديانة ليست مخازن احتياطية للمياه. والأرض تفتقر للفحم الحجري واللينيت. ومنجم الفحم الوحيد فيبدو أكثر أهمية لكنه لم يستغل بعد. والنفط لم يتفجر حتى الآن.1 ولم يعثر الجيولوجيون في تربة المغرب على الفحم المتحول من أشجار الغابات وإنما عثروا على الملح والجبس. وكان لعنة بلاد الملح قد حلت به منذ اقدر العصور.

ولا نعني بهذا أن الشمال الإفريقي يشكو الفقر المدقع، فقد عرفت الجزائر حقبة من الازدهار الكبير. وخليق بنا أن نفسر ظاهرة الغنى هذه. أنها زراعة الكرمة، فقد عنيت الجزائر منذ البداية بالزراعة الصناعية التي تجلب الثروة. وجربت كذلك زراعة القطن وغيرها من الزراعات، غير أن نجاح الكرمة لم يعادله نجاح. فهي تجلب للجزائر مبالغ ضخمة من المال وقد أحدثت في البلاد تطورا اقتصاديا ومعنويا. إذ غيرت جو البلاد وحضت على لذة العيش وحب العمل. كل ذلك على مستوى الجزائر بالطبع فليست هي أمريكا. كان ذلك في العصر الفرنسي.

أما الجزائر الرومانية فكانت كما يقول علماء الآثار مدينة بازدهارها لزراعة الزيتون. وقد عثر على أثار في ايطاليا تثبت قدوم الزيت من شمال أفريقيا كما يشير بول بورد.

وينقل إلينا احد الكتاب العرب وهو المؤرخ السلم عبد الحكم أخبار مصانع الزيت في أفريقيا الرومانية ولكن بطريقة مبهمة تصويرية. كان ذلك إبان الفتح العربي الأول حين لقي جرجير مصرعه.

ولم تكن الحملة الأولى سوى غزوة كبرى انتهت بفرض جزية على الإغريق المهزومين. ويحدثنا عبد الحكم عن هذه الجزية وعن أكوام الذهب والأشياء الثمينة. وقد تساءل جل

1 - وضع الكتاب قبل ظهور النفط في الجزائر، وقبل بداية استغلال الطاقة المائية ولصناعية

من البدو المنتصرين وقتئذ بدهشة قائلا: «ماذا يصنع الإغريق ليكونوا أغنياء على هذا النحو؟» فابتسم رجل إغريقي كان هناك وقال له بعد أن التقط نواة زيتون من الأرض: «انظر، هذا هو السبب». أنها نكتة طريفة لكنها في رأيي ذات مدلول كبير.

ويردد الناس عبارة أطلقها احد المؤرخين المسلمين حول ازدهار أفريقيا في عهد الرومان: «كل البلاد من طرابلس حتى طنجة، كانت إطارا واحدا وسلسة متواصلة من القرى». وتدل العبارة على أن السفر بين طرابلس وطنجة يجري في الظل.

ذلك شيء ليس فيه غرابة. فنحن نعلم أن الفواكه من زيتون وتين عنب سبب من أسباب ازدهار ايطاليا الوسطى وبلاد البحر الأبيض أهميتها على كل حال إلا بفعل التصدير إذ تلزمها أسواق خارجية منفتحة، لذلك فالازدهار يمكن اصطناعه إلى حد ما لأنه منوط بظروف سياسية معقدة.

وقد أسهمت المناجم أيضا في انطلاقة الجزائر الاقتصادية ولكن بالطريقة نفسها. فالصناعة تحتاج إلى زبائن في الخارج. ومن حسن حظ الشمال الإفريقي توفر الفوسفات فيه بحيث أصبح مركزا لتصدير هذا المعدن إلى أرجاء المعمورة. وفيه أيضا الحديد بكميات كبيرة. وكذلك التوتياء والرصاص. ولم يجر التنقيب عن هذه المعادن منذ الإمبراطورية الرومانية وحتى الاحتلال الفرنسي. ولم يكن بالإمكان تصنع المعادن في البلاد نفسها لهذا كنا نرى في الموانئ الجزائرية أنواع المعادن تصدر إلى جانب البضائع الأخرى. فيوضع الرصاص والتوتياء في أكياس أما الحديد والفوسفات فتجمع أكواما تنتظر السفر إلى الخارج.

وإذا كانت فرنسا بلدا متكاملا يكفي ذاته على حد قول فيدال دي لابلاش، فالمغرب على العكس من ذلك.

فليس هو بلاد الملح الذي لم يحسن استخراجه من الصحراء وحسب،بل هو فوق ذلك يتميز بمناخه شبه الصحراوي. والواقع أن هذا الشريط الذي يبلغ طوله 3000 كيلو متر يمتد من الشرق إلى الغرب ضمن خطوط عرض وطول متشابهة. فحيثما نذهب نجد السماء نفسها والتربة عينها. فم من بلد اقل تنوعا وتجانسا. وجفاف المناخ لا يسمح بتحقيق الازدهار محليا. ففي بلاد واسعة كالمغرب تتمتع بإمكانيات طبيعية كبيرة من حيث المعادن والصوف والزيت والنبيذ، لا تسهل الاستفادة من الثروة، إذ يحتاج الأمر إلى التنظيم وتوظيف الرساميل وتوسيع الإنتاج وتامين التصدير. فالمغرب بحكم مناخه لا يكفي نفسه اقتصاديا ويحتاج للتعاون مع الغير.

الكتاب الأول

الماضي السحيق

1- ما قبل التاريخ

ليس في نيتنا سرد ثلاثة آلاف سنة من التاريخ. فليس مؤلفنا هذا كتابا مدرسيا.

وتاريخ المغرب ليس كتاريخنا عبارة عن تطور منتظم مستمر. بل انه شديد التقطع إلى حد يتغير فيه شكل البلد برمته بين حين وآخر.

فهناك حقبات زمنية سلطت عليها الأضواء، كإفريقيا في عهد الرومان مثلا. وهناك حقبات أخرى تقبع في عتمة التاريخ. وعلى تلك الفترات المعتمة نود أن نلقي بعض الضوء.

ولكن هل بمستطاعنا الرجوع إلى ما قبل ثلاثة آلاف سنة، إلى ما قبل التاريخ؟

من المؤكد أن العصر الحجري في شمالي أفريقيا هو نفس العصر الحجري في أوروبا قريبا. والآثار التي نجدها معروضة في المتاحف تضم اشد الأسلحة الحجري بداية إلى جانب أفضلها صقلا واتقانا. مما يؤكد لنا أن إنسان هذه المنطقة، شأن الإنسان الأوروبي، قد عايش الانقلاب المناخي الكبير من الطور الجليدي إلى الطور الحالي. وعلينا أن نعطي هذه الفترة اسمها الحقيقي من أفريقيا أي الطور الرابع. فليس هناك جبال جليد بالطبع، بل انهار كبرى اتخذت لها مجاري على سطح الصحراء: لقد كانت صحراء الطور الرابع مأهولة يقطنها الإنسان الحجري.

لكن معروضات المتاحف لا تشير إلى أي إنسان بالذات.

وفي متناولنا قرينة أخرى لا يصعب تفسيرها هي الرسوم المحفورة. ففي جنوب وهران بعض منها تحمل اسما عربيا: «الحجارة المكتوبة».1 وكان من شأن هذه الحجارة خلق تساؤلات جديدة ما كنا نجد الأجوبة عليها لو لم يعثر على قرائن أخرى.

وعر على مجموعة أخرى من الحجارة في تسيلي بين جانيت وبواينياك وخاصة في واد الجراد.

---

1 - تحدث عن هذه جـ.ب.م. فلامان ثم فرينيوس بصورة أكثر توسعا.

مع هذه الاكتشافات التي تم العثور عليها قبل مدة وجيزة يمكننا أن نعمق دراستنا حول تاريخ المغرب.

البوشمان

وعثر أيضا على رسومات مختلفة قديمة جدا وجدت في مرتفعات جبال الطوارق ومنها الحجرية في تسيلي والغرانيتية في منطقة الهجار.

وانه لمثير للدهشة حقا أن تحافظ هذه الرسوم على بقائها مع الأيام. فهي إذا كانت منقوشة داخل بعض الصخور فان الأتربة تتسرب إليها عبر الفجوات الصخرية. وقد حافظت المغرة على وجودها رغم ذلك.

ولكن علينا أن نتذكر أن المناخ الصحراوي ملائم للقشور الصخرية. لان الرياح العنيفة التي تهب في الصحراء تحمل معها الرمال الصغيرة فتغطي الصخور وتحفظها. فالمياه وحدها تتلف الصخور وتعرضها للتآكل. وليس في الصحراء مطر.

وعلى أي حال فان رسوم المغرة هذه موجودة في الصحراء وحدها. ويسهل علينا أن نستنتج زوالها في المناطق الممطرة من المغرب.

وما أن نلقي نظرة على رسوم صحراء الطوارق حتى نتوصل لاستنتاج فوري: إن رسوم المغرة شديدة الشبه بالرسوم النيوليتية الاسبانية التي درسها الأب برويل. وكذلك برسوم البوشمان في أفريقيا الجنوبية والتشابه في ما بينها متعدد الوجوه فهناك عدة ألوان قوامها الأبيض الأسود. ثم إن طريقة الرسم واحدة والأشياء المرسومة ثيران ونساء.

والنقوش بدورها مغروزة في الصخور بعمق ولذا استطاعت مقاومة الزمن.

وفي جنوب وهران حيث يبلغ معدل هطول الإمطار 300 مليمتر لا نجد أثرا لتعايش الرسوم مع النقوش. أما في صحراء الطوارق فلا يزال اثر هذا التعايش باديا. كما هي الحال في أفريقيا الجنوبية أيضا. وفي متحف التاريخ الطبيعي فيل منقوش من صنع جنوب أفريقيا شديد الشبه بفيلة المغرب.

من المرجح إذن أن تكون هذه الرسوم والنقوش أثارا لإنسان البوشمان الذي عاش في المغرب والذي لم يبق من سلالته سوى الزنوج من قاطني الطرف الجنوبي من القارة الإفريقية.

اجل لقد أقام البوشمان بالمغرب في الماضي السحيق. مهما بدا الأمر مستحيلا أو بعيدا ن التصور.

مصر

وهناك تشابه كبير بين النقوش التي عثر عليها في صحراء الطوارق وبين نقوش جنوبي وهران وإن بدا بينها بعض الاختلاف في الجزئيات.

فقد تم العثور في تسيلي بوادي الجراد على مجموعة من الرسوم البشرية. كما عثر على نظير لها في فزان. في حين لا نجد لها أثرا في جوبي وهران.

إنها ت

أشكال رائعة بالحجم الطبيعي تقريبا نقشت بعمق في الصخور وحافظت على بقائها مع الزمن. وهي ليست واضحة وحسب. بل انها تضج بالحياة. والصور ليست تقليدية جامدة بل تتميز بوجود الحركة فيها.

والتفاصيل الجزئية واضحة للعيان. فجميع الصور تمثل رجالا لهم رؤوس حيوانات. ويشد قاماتهم حزام ربط به من الوراء ذيل أشبه بذيل ابن آوى ومن الأمام ربطت علبة على شكل عضو الذكر.

هذه التفاصيل. كرأس الحيوان والذيل والعلبة لا تزال حتى الآن مستعملة في السودان في المناسبات الدينية.

ذلك ما يحدو بنا إلى الاعتقاد بوجود الزنوج في المغرب في عصر ما قبل التاريخ.

ولا يغربن عن بالنا أن رأس الحيوان الذي علو سم الإنسان من ميزات الفن المصري عل العموم.

ويعطي المتخصصون في الآثار المصرية تفصيلات دقيقة عن النقوش التي نحن بصددها. ويطلق هؤلاء على العلبة اسم القرمطة. وفي مصر نقش مشابهة للنقوش التي عثر عليها في المغرب. ويرى الخبراء انها تعود إلى 3500 سنة قبل المسيح. فصور الإنسان ذي الذيل والقرمطة تعود إذن إلى مصر ما قبل التاريخ أي الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد.

وهذه ملاحظة مهمة من الناحية التاريخية. فهي تسمح لنا بتعيين عمر تقريبي لهذه الرسوم. كما توضح لنا نقطة شديدة الأهمية. وه أن المغرب ولا شك صلات بمصر.

ويصنف علما اللغات اللهجات البربرية في المجموعة القبطية وكلها لغات حامية. لكن مصر ي الدولة التي ت منها الحضارة إلى العالم المتوسط بأسره. أما المغرب فعلى العكس من ذلك، إذ يقع في نقطة شديدة التخلف وهو موطن البربر البيض.

وذا كان من الواضح أن طريق الحضارة قد سارت من مصر إلى المغرب، فلا يصح ذلك بالنسبة لما قبل التاريخ. فمنها كانت الحضارة المصرية قديمة فقد لزمها وقت من الزمن لتتكون فيه. ولعل سكان الصحراء قد هجروها في الطور الرابع بفعل الجفاف ليتمر كزوا على ضفاف النيل.

وقد دلت النقوش القديمة على التشابه بين المغرب ومصر. ولكن أيهما اثر في الأخر أولا.بن الطوارق أم المصري؟ اغلب الظن انه الطارقي، الجد الأول لأبناء الطوارق الحاليين.

العربات الإيجية:

وقد أدت لنا رسوم وادي الجراد ونقوشها أيضا بعض الأشكال الأخرى. كانت عبارة عن عربات حربية. عثر على مثلها في فزان كما عثر تيودور مونو على بعضها في موريتانيا الصحراوية.

ويسهل علينا على كل حال أن يكون فكرة واضحة عن هذا الأمر. فالعربات العربية الحربية عرفت في مصر القديمة و لا تزال ماثلة في الآثار الفرعونية. فكلنا شاهدنا الفرعون رعمسيس الثاني بزيه الرسمي يحمل القوس بيده ويقف ومنتصبا فوق عربة تجرها الخيل المتباطئة في سيرها. وحتى في الرسوم الفرعونية التي تمثل الحروب -مثل المعارك بين المصريين والحثيين- نرى القوائم الخلفية للجياد مستمرة في الأرض و لا تجري بأقصى سرعتها. فالمثال المصري لا يحسن تصوير الجري.

أما مثال وادي الجراد فيحسن تصويره بشكل مدهش. وهو إذا كان لا يتمتع بدقة الفنان المصري فانه يمتاز عنه بحيوية الحركة. فعرباته تطير وراء خيولها المنطلقة بسرعة البرق. مما يجعلنا نستبعد تأثره بالمدرسة المصرية.

كما ليس خلافا على كل حال، ونحن نعرف المدرسة التي ينتمي إليها حق المعرفة. انها العربات الأسيوية الإيجية ذات لخيول الطائرة.

في عهد الأسرة الملكية العشرين وخاصة من -فتاح نحو 1235-1225 قبل المسيح، كافح الفراعنة من ناحية الغرب ضد «الشعوب البحرية» المتعاونين م الليبيين.

وهكذا ندرك كيف أن المغاربة قد اخذوا عن الشعوب البحرية صناعة العربات ون تصويرها.

ثم إن نقوش وادي الجراد التي تمثل العربات الحربية لم تغمرها الأتربة على غرار النقوش القديمة. الأمر الذي يجعلها أكثر حداثة منها بآلاف السنين كما يدل التاريخ.

ونحن نعلم بان العربات الحربية د اختلفت في حوض البحر المتوسط الغربي، بعد أن جرى استبدالها بالخيول نحو نهاية القرن الرابع قبل المسيح. ويقول المؤرخ «جزيل» بان آخر العربات التي ذكرها الأدب القديم (ديودورس) هي تلك التي رافقت آجاتو كلوس إلى صقلية. على أن عربات وادي الجراد تحمل بما لا يقبل الشك أثار حضارة عسكرية في الصحراء نهايتها القرن الرابع، وتعود بدايتها إلى ما قبل ذلك بثمانية قرون أو تسعة حين غزت الشعوب البحرية مصر.

ولابد لنا لإبعاد الشك من الرجوع إلى هيرودوتس الذي يذكر وجود العربة لدى عدة قبائل بربرية مجاورة لسرت. وفي الداخل عند الجرمنتيين الذين كانوا يطاردون الأحباش القدماء على عربات تجرها أربعة خيول.

والجرمتيون معرفون جيدا وعاصمتهم التي تحمل اسمهم هي واحة جرمة في فزان. ويطلق عليها أيضا اسم قارامة.

كان الجرمنتيون من القبائل الشديدة البأس المهيبة الجانب وكان الرومان يخشونها. وقد سيطروا على طريق القوافل بين البحر الأبيض المتوسط والحبشة، كما لعبوا في غابر الزمان الدور الذي يعلبه الطوارق حاليا في نفس المنطقة. وهم أسلاف هؤلاء إن لم يكونوا أجدادهم. وكانت تسيلي تابعة لمملكة الجرمنت.

وبوسعنا لتسهيل البحث أن نطلق على عربات وادي الجراد، اسم العربات الجرمنتية. ونلاحظ أن هذه العربات تجعل ما قبل التاريخ مجالا للحاق بالتاريخ. وليست هذه المنطقة الوحيدة التي تدفعنا لإبداء ملاحظة كهذه.

الإله الحمل والإله الثور

كتب المؤرخ كميل جوليان مقالا عن «الفزيز» عاصمة التروجلوديت أي سكان الكهوف، يشبهها فيه «باليزيا» عاصمة السلت وكذلك بليون عاصمة بلاد الغال الرومانية.

في حين أن المؤرخ نفسه لا يأتي على ذكر عاصمة التروجلوديت في كتابه تاريخ بلاد الغال. واليك السبب:

ليس بالإمكان أن نربط فترة ما قبل التاريخ نفسه إلا إذا ألجأنا للخيال. عليه يمكننا القول أن الخيط ليس مقطوعا بين النقوش القديمة والمغرب البربرية الذي نعرف تاريخه. وتمثل النقوش القديمة التي تم العثور عليها في جنوبي وهران وفي مرتفعات الطوارق الحيوانات على أنواعها ويرجع تاريخها إلى سبعة آلاف سنة كما يقول خبراء التاريخ المصري. هذه الحيوانات هي الفيل والزرافة ووحيد القرن وفرس النهر وحيوان الزمبيز كما يقول بول. ومعظمها مشابه للحيوانات المعروفة حاليا في المغرب كالأسود والفهود والماعز البري والغنم الخ...

والنقوش كبيرة الحجم صنعتها بعناية ودقة يد ماهرة تحسن استخدام الصوان. لذا يصعب علينا اعتبارها مجرد عبث الرعيان. بل هي أثار للعبادة الدينية.

فحين نجد صورة حيوان متوحش نتخيل الصيادين القدم يقومون بطقوس معينة أمامه قبل الذهاب للصيد.

وقد تمثل الصورة أحيانا حيوانا كالحمل أو الثور وهو حيوان مهم جدا مرتبط ارتباطا وثيقا بحياة قبيلة الرعاة. وتكفي نظرة لهذه النقوش لندرك أن الحيوانات كانت مؤلهة.

وفي جنوبي وهران كثيرا ما نشاهد نقوش الحمل الذي يتميز بصفات إلهية. إذ يحمل على رأسه دائرة تشع بالنور. ولعل عبادة الحمل تنوع من عبادة الشمس.

وفي تمنتيت وهي واحة في صحراء وهران تم العثور على حمل مصنوع بحجارة بركانية واضح المعالم. مع مسمار من النوع نفسه مخصص لتثبيت الرأس.

وكانت عبادة الحمل معروفة لدى البربر الجزائريين في عهد الرومان.

أما في مجموعة النقوش الشرقية فلا نعثر له على اثر. والحيوان المنقوش في الرق هو نوع البقر. ونجد في وادي الجراد أبقارا تحمل دائرة بين قرنيها على غرار الحمل الغربي. وفي موطن الهجار بتزروك صنم صغير من البازلت يمثل رأس ثور له مسمار على غرار رأس الحمل.

وجدير بالذكر أن البربر الشرقيين في أفريقيا البيزنطية كانوا يؤلهون الثور وليس الحمل. والثور الذي تحيط برأسه الهالة يذكرنا بهاتور الإلهة المصرية.

أما الحمل ذو الهالة الشمسية فيذكرنا باله طيبة الكبير آمون. فالشبه عجيب ف ما بينهما.

ولكن من أين أتت هذه القرابة؟ في البداية كان الأمر يبدو يسيرا. فمن السهل

الاعتقاد بان المغرب قد استعار آلهته من مصر أم الديانات كلها. كلها.

أما اليوم فبتنا نعرف أن هذه النقوش مع مصر تعود إلى عصر ما قبل التاريخ أي إلى العصر الذي لم تكن فيه مصر كما نعرفها موجودة. ويقيننا أن هاتور قد تحدرت من الإله الثور المغربي وان آمون تحدر من الإله الحمل. انها آلهة قديمة جدا على كل حال. عبدها الناس قرونا طويلة لا نعرف عددها بالضبط ولعلها سبعة أو ثمانية أو عشرة آلاف سنة. وقد عبدوا الإله الثور في المغرب الشرقي والإله الحمل في المغرب الغربي.

إن جزيرة المغرب هي البقعة الأكثر محافظة في العالم المتوسطي. بحيث تمتد دياناتها إلى عصر ما قبل التاريخ.

البربر

والبربر يقطنون المغرب. ونحن لا نعرف أصلهم ولا من أين قدموا.

وأكثر الافتراضات احتمالا أنهم أتوا من الشرق نحو المغرب. ومرتفعات مراكش في الغرب لم تعرف السكان إلا وقت متأخر.

وهناك افتراض آخر يبدو غريبا ومثيرا في آن معا. وهو الذي يربط البربر قارة الاطلنطيد البائدة وهذا يعني أنهم نزحوا من الغرب إلى الشرق.

تلك هي ترجيحات عقلية لا تستند على شيء.

وحول أصل البربر ليس لدينا من دليل سوى النقوش والصور المحفورة على الصخور. وهي معطيات ناقصة متقطعة وضبابية في معظمها. لكنها المعطيات الوحيدة على كل حال. وليس بمقدورنا تجاوزها إن نحن شئنا البحث في ماضي المغرب الغابر.

ويمكننا أن نلاحظ تأثيرات الزنوج والمصريين والإيجيين على البربر وليس غير ذلك.

2- التاريخ المعروف: ألف سنة من عمر قرطاجة

يبدأ تاريخ المغرب بقرطاجة. فمجرد ذكر اسمها يلقي عل القضية نورا ساطعا. ويقودنا الفكر أول ما يقود إلى الحروب البونيقية. حيث يروي لنا مؤرخو روما قصة الكفاح المرير. ورواياتهم ولا ك منحازة تحمل صيحة البغضاء والنصر. على أن الحرب البونية تشكل منعطفا كبيرا في التاريخ الروماني فهي التي كرست عظمة وما وقدرتها بشكل نهائي وقد وصلت إلينا بجميع دقائقها وتفاصيلها.

نحن نعرف جيدا كيف كانت نهاية قرطاجة. ولكننا لا نعرف تفاصيل حياتها. ويبدو أن سيطرة الفينيقيين على الحوض الغربي للبحر المتوسط ترجع إلى اثني عشر قرنا قبل المسيح. في حين لم تؤسس قرطاجة نفسها إلا بين 814-813 بل المسيح. بينما سبقها إلى الظهور كل من بنزرت وبون (عنابة) وطرابلس. ومن المعلوم أن قرطاجة قد دمرت سنة 146 قبل المسيح. مما يدل أن نفوذ الفينيقيين في المغرب دام نحو ألف عام.

ثم أننا لا نعرف غير القرن الأخير. أي حقبة الانهيار. لان القرون الثمانية أو التسعة الأولى عصور مظلمة. وفيها نشأت قرطاجة وترعرعت بطء دون أن نعرف عنها شيئا. فما الذي عاشت عليه هذه المدينة؟ ومن أين استمدت قدرتها الهائلة التي ضاهت بها روما وكادت تقضي عليها؟ لا نعرف عن ذلك شيئا.

وظننا أن إلمامنا بالأمر ليس مستحيلا إن نحن افدنا من المعلومات التي تقضي ها إلينا رحلة حنون.

فالقرطاجيون لم يتحدثوا عن أنفسهم. يبقى هيرودوتس الإغريقي وحده. إمام المؤرخين. وقد سار على خطاه عباقرة آخرون من إغريق ورومان.

لقد ابتدعت الحضارة الإغريقية -الرومانية التاريخ. تماما كما نحن مدينون بحضارتنا للبخار والكهرباء. غير أنها احتكرت هذا العلم طيلة أيام عظمتها. فالحضارات الشرقية كالمصرية مثلا أو الكلدانية م تعرف شيئا عن التاريخ. لذلك يعمد العلماء في دراسته

لفحص الآثار والنقوش، إلى جانب اعتماد الافتراضات والاستشفاف. قرطاجة كانت دولة شرقية بلغتها وبإحساساتها العميقة.

وهي لا توازي مصر وبلاد الكلدانيين بكتاباتها المنقوشة. ورحلة حنون وحدها هي التراث الوحيد الذي نستطيع أن نستقي منه معلومات عن الماضي.

وليست لدينا المخطوطة الأصلية لهذه الرحلة باللغة البونية. لأنها أتلفت مع ما اتلف في معبد كروزوس حين غزا الرومان المدينة. وفي صورة تمثل حريق المدينة تبدو زوجة آستروبال وهي تلعن الغزاة قبل أن تلقي بنفسها في النار مع طفلها الرضيع.

أما ما وصل إلينا فالترجمة اليونانية والمترجم هو الذي أطلق اسم الرحلة.

ومن الأمور المستغربة حقا أن تكون الرحلة مصدرا لتزويد القارئ بالمعلومات وإرشاد الملاح إلى الطريق. لكن القرطاجيين شعب تاجر يميل لكسب المال والاستمتاع بالحياة. وليس من شأن عب كهذا أن نقل أسرار تنقلاته إلى الغير. ذلك لم يخلوا سوى وثيقة كتب عليها اسم حنون.

ولم يكن حنون عالما جغرافيا أو فاتحا يجري وراء الاكتشاف. بل هو شخصية كبيرة قام بجولة تفتيشية على طول الشاطئ الإفريقي الغربي مهد السيطرة القرطاجية.

وكتب تقريرا قدمه لمجلس شيوخ قرطاجة على ما يبدو، يمجد فيه ذلك الإبداع العظيم الذي حق لقرطاجنة أن تفخر به. وقد علق في المعبد بعد أن حفر على البرونز وحذفت منه بعض التفاصيل ليكون سبيلا لبناء العب ونوعا من الدعاية والإعلان.

إن وثيقة كهذه لا تشكل سبيلا موثوقا لمعرفة الحقيقة. غير أن رحلة حنون هي الوثيقة الوحدة التي تفيدنا عن تجارة قرطاجة وسيطرتها الممتدة على طول الشواطئ الأطلسية لإفريقيا الغربية. فهي إذن على جانب كبير من الأهمية.

ولاسيما وان المنقبين قد أشبعوها دراسة وتمحيصا.

ولا نعلم في أي وقت بالبط كان يعيش حنون. لكن تاريخ الترجمة اليونانية يرجع لبداية القرن الثالث قبل الميلاد.

والسؤال: ما قيمة هذه الترجمة إن لم يوفر النص الأصلي؟ فحق لو افترضناها أمينة فان تداولها من ناسخ لآخر عبر 23000 سنة لن يقيها من التحريف والتعديل.

غير أن المنقبين لم يتوانوا عن مناقشتها وتقييمها. وقد صرفوا الكثير من الجهد في

تحديد الجهات التي أبحر نحوها ملاحون لم يعرفوا البوصلة. وفي إحصاء أيام فرهم على متن سفن تتجاذبها الرياح. قالوا بان حنون قاد 60 سفينة من ذات خمسين مجدافا تحمل ثلاثين ألف رجل. يعني ذلك أن كل سفينة كانت تحمل 500 رجل وهذا مستحيل. وعلينا أن ننحي جانبا احد الرقمين أو كليهما معا.

وقالوا أيضا إن في عاصمة جزيرة سرنه التي تحمل نفس الاسم 5 استادات دائرية. وهذا غير صحيح لان في المدينة 15 استادا. ولكن لماذا الرقم 15 بالذات؟

أبحر حنون يومين بمحاذاة الساحل. ومن الأرجح انه أبحر اثني عشر يوما. لماذا أيضا الرقم 12؟.

أما تحديد الاتجاهات فلا يحتاج لدقة أكثر من الأرقام. وعلينا هنا أيضا إلا ننسى الثغرات التي قد تحصل في إحصاء عددها ورسمها.

ولابد للباحثين في هذه المعطيات أن يتواصلوا لنتائج متباينة.

عندما يفترون بان رسم الشاطئ و تخطيط المناخ قد تغيرا عما كنا عليه منذ ألفي عام. ويذهبون إلى ما ذهب إليه أفلاطون حين تكلم عن اطلنطيد القارة البائدة.

وليس لمن له دراية بسيطة بعلم طبقات الأرض أن يجاريهم: فإذا كانت فترة ألفي سنة طويلة جدا بالنسبة لتاريخ الإنسان، فهي لا تساوي أكثر من لحظة في حساب الجيولوجيا. ولم يتمكن العلماء من تسجيل أي تغيير يذكر ي الظروف المناخية طيلة ألفين أو ثلاثة آلاف سنة من سنة من التاريخ البشري.

لقد جاب مالافوي مدير مصلحة الجيولوجيا في دكار كل موريتانيا من الشمال إلى الجنوب دون أن يعثر على اثر لتلك الوديان المندثرة التي تعود للطور الرابع، والتي توجد بكثرة في سائر الصحراء. وفي شمالي موريتانيا واد يطلق عليه اسم الساقية الحمراء يمكن اعتباره على الأرجح احد وديان الطور الرابع. وفي جنوبها تم العثور على اسماك متحجرة يرجعها الجيولوجيون إلى الطور الرابع تشهد باندثار خليج كان هناك. ويؤكد لنا اكتشاف تيودور مونو بان هذا الخليج لم يكن شديد التوغل في اليابسة. على أننا لا نستطيع ربطه بأي حال التاريخ البشري. وفي جنوب موريتانيا أيضا منطقة جافة أثارت نقاش الجيولوجيين. لكن البلاد مكسوة بكثبان الرمل العتيقة التي ثبتتها النباتات، مما يبعد الاحتمال القائل بان مناخها كان رطبا.

وهكذا نلاحظ كيف أن علماء الجغرافيا والجيولوجيا قد اقتفوا اثر التغيير التاريخي

دون جدوى حتى الآن. ففي موريتانيا كما في غيرها، يبدو أن الصحراء لم تتغير عما كانت عليه قبل ألفي عام.

وإذا افترضنا أن الشاطئ والمناظر الطبيعية لم تتغير منذ حنون، وهذا هو الافتراض الوحيد المحتمل، فبالإمكان إذن الاستناد إلى رحلته شرط إلا نطلب منها ما ليس بمستطاعها أن تعطيه وان نقتصر على نقاط التشابه البارزة.

نهر كريتس ونهر السنغال

هناك تشابه كبير بين نهر كريتس ونهر اليسنغال كما أتصور.

فبعد أن جاب الصحراء عثر حنون على نهر "طويل عريض مليء بالتسامح وأفراس النهر" أطلق عليه كريتس. ما تراه يكون غير نهر السنغال؟ وقد تعرف عليه الباحثون مع الكثير من التردد والتحفظ اللذين لا افهمها. فالقضية على بداهتها خفيت عليهم.

قطع حنون رحلته البحرية، ووجه ركبه نحو نهر كريتس ثم عاد من حيث أتى ليعود إلى خط سيره الأول على طول شاطئ المحيط. وهنا نجد قرينة أخرى تدل على السنغال غير التماسيح وأفراس النهر. فنهر السنغال هو النهر الوحيد الصالح للملاحة التجارية على طول الشاطئ وحتى طرف خليج غينيا.

والى الأمس القريب وقبل مد السكة الحديدية كان احد مفتشي المستعمرات يجوب المكاتب المالية واحدا تلو الأخر على طول شاطئ أفريقيا الغربية، ولم يغير خط سيره إلا حين عبوره نهر السنغال ليصل إلى المكاتب الموجودة ف الداخل.

ولنلاحظ أن نهر السنغال هو ريق مناجم الذهب، ولم لم يكن نقطة معروفة لما ذكرته رحلة حنون.

وجنوبي مباشرة وهي آخر نقطة للملاحة بين نهر السنغال ورافده فاليميه، يقع مثلث من الأرض يستخرج منه الذهب وهو معروف منذ قرون بل منذ آلاف السنين. انها مقاطعة بمبوك المثلثة الشكل.

وكثيرا ما يذكر المؤرخون والجغرافيون العرب ذهب بمبوك. واليك ما أورده احدهم ياقوت في وصف المرحلة الأخيرة في تبادل السلع مقابل تبر الذهب.

كان التجار المغاربة ينبئون بوصولهم بقرع الطبول. وما إن يسمع ونوج بلاد الذهب قرع الطبل حتى يخرجوا من مخابئهم وينتظروا بلا حراك على مسافة معينة. ويفض

التجارة بضاعتهم ... عندها يتقدم الزنوج ليلقوا كمية من تبر الذهب ثم يعودون للابتعاد..فيتقدم التجار بعدئذ لينال ل منهم نصيبه من التبر الملقى إلى جانب البضاعة. ثم يعودون من حيث أتوا على صوت الطبول معلنين به رحيلهم بعد إتمام الصفقة.

يبدو لأول وهلة أن هذا الكلام فقرة من فقرات قصة السندباد البحري. وكن لنستشهد الآن بهيروتس (196/4) وهو يصف القرطاجيين يبادلون البضاعة بالذهب في بلاد تقوم وراء أعمدة هرقليطس. "ينزلون البضاعة بانتظام على الشاطئ ثم يعودون إلى مراكبهم يرسلون منها الدخان لإشعار أهل البلاد برحيلهم...الخ". إلى ما هناك من حديث مشابه لكلام ياقوت مع اختلاف بسيط فهذا يتحدث عن قرع الطبول وذلك عن تصعيد الدخان.

وضع هيرودوتس كتاباته في القرن الخامس قبل المسيح أما ياقوت فقد عاش بين 1178 و1229 ميلادية. وليس من المحتمل أن يكون قد تأثر بالمؤرخ الإغريقي لأنه لم يطلع عليه. ووجه الشبه كما نرى كبير في طريقة إتمام الصفقة بصمت. بيد أن ياقوت أكثر دقة من هيرودوتس.

فبينما يذكر مؤرخ اليونان أن الصفقات التجارية كانت تتم وراء أعمدة هرقل، نرى ياقوت يحدد المكان في السنغال.

وحين استولى الرومان على قرطاجة عاود بوليبيوس مبعوث سبيون اميليان الرحلة نفسها. ولم يصل إلى أيدينا الفصل الذي كتبه عن الرحلة. لكن عبارة منه تثير الانتباه عثرنا عليها في ترجمة بلين: لقد شاهد بوليبيوس نهر لتماسيح وفراس النهر ولكن دون أن يطلق عليه اسم كريتس بل اسماه نهر بمبوتم. وقد تكون المنقطة المقصودة مقاطعة بمبوك الغنية بالذهب.

وخلاصة القول إن السفن القرطاجية قد عبرت نهر السنغال وبلغت نواحي قايس، بلاد الذهب وهي المكان الوحيد للمبادلات المباشرة على ما يبدو. ولم يعرف العرب غيرها.

سرنه وسان لويس

ومن اجل المزيد من الدقة حول رحلة حنون نذكر أن الملاحة النهرية عبر الكريتس كانت تنطلق من مستعمرة سرنه وتعود إليها، وقد أسهب المعلقون في الحديث عن موقع هذه المستعمرة دون أن يصلوا إلى نتيجة.

أما إذا كان الكريتس هو نهر السنغال نفسه، فيسهل عندها تحديد مكان سرنه. ففي أيامنا هذه تنطلق السفن المبحرة في نهر السنغال من مدينة سان لويس وتعود

إليها. وبها نقطة الاتصال بين الملاحة النهرية والملاحة البحرية. وتذكر رحلة حنون أن سرنه تقع وسط جزيرة. وكذلك سان لويس التي تتصل بالأرض بواسطة جسر جميل نجد صوره على بعض البطاقات البريدية.

بيد أننا لا نؤكد أن سان لويس تقع تماما في نفس المكان الذي كانت فيه سرنه. فالسنغال السفلي نهر يضيع في المستنقعات و لا يعرف مجراه بالضبط. ومن المحتمل أن يكون مصبه غير مستقر. فقد عثر شودو على مجرى نهر جاف شمالي سان لويس.

ثم إن طبقات الرمال في الجزر وشبه الجزر ليست ثابتة هي الأخرى، لان التيار البحري يضربها على الدوام ويغير من أشكال. ولعل جزيرة الرمل التي كانت تحيط بسرنه قد زالت من الوجود أو أن الآثار الباقية منها قد خفيت عن الانتباه.

وجل ما في الأمر أم موقع سرنه في تصورنا شبيه بموقع سان لويس في مكان تلتقي فيه الملاحة النهرية بالملاحة البحرية.

ولم تكن سرنه مجرد مكتب عادي بل كانت مستعمرة كاملة. فقد حمل إليها حنون فريقا من القرطاجيين ظلوا فيها لتعزيز تجارتهم. ثم إنها واقعة في الجنوب وتمثل آخر مستعمرة من المستعمرات التي زرعها القرطاجيون على طول الشاطئ الأطلسي. وهذه من الأمور التي نفهمها حق الفهم هذه الأيام.

وفي سان لويس ودكار وعلى طول شاطئ السنغال حتى الرأس الأخر يخيم مناخ مميز يسمى شبه الكناري لشبهه بمناخ جزر الكناري أو مناخ السواحل المراكشية على الأطلسي. واليوم نجد في السنغال جالية سورية كبيرة تلعب فيها دورا هاما. ولا يذكرنا هؤلاء سرنه، وإنما نلاحظ أنهم قد اختاروا المناخ الذي يلائمهم وعائلاتهم على غرار أسلافهم البونيين.

ولا نعثر على الظروف الملائمة عينها لو اتجهنا أكثر نحو الجنوب. فالرأس الأخضر هو الحد الأقصى وندخل بعده مباشرة في المناخ الاستوائي. ومن المحتمل جدا إذن أن تكون سرنه ابعد منطقة جنوبية وآخر مستعمرة للقرطاجيين.

عربة الإلهة والكامرون

ولم يكن الرأس الأخضر أكثر مما هو عليه اليوم أي الحد الأقصى للملاحة والتجارة. وبعد أن قفل حنون راجعا إلى البحر من سرنه تابع إبحاره على طول الشاطئ أياما طويلة وذهب بعدا جد.

فما هو المكان الذي بلغه؟ هنا نعثر على قرينة نتوقف عندها.

في نهاية رحلته شاهد حنون "ليلا أرضا مكسوة باللهب. في وسطها نار متأججة بدت كأنها تطال النجوم، إذ بها عند مطلع النهار جبل يدعى عربة الإلهة". ولا يمكن أن ينطبق هذا الوصف إلا على بركان الكاميرون في آخر خليج غينيا، مالي خليج دوالا لجهة مدخله. وقد بلغ ارتفاع نيران ها البركان 4000 متر عندما هاج لآخر مرة سنة 1922.

لقد أدرك المفسرون بان جبل الإلهة لا يمكن أن يكون غير بركان، ولكنهم لا يميلون ى الاعتقاد بان سفن قرطاجة قد بلغت هذا المبلغ. وافترضوا أن بركان عربة الآلهة قد خمد منذ حنون. وجدوا في لبحث عنه في كاكوليما، وهو عبارة عن بركان مخروطي يشاهد من كوناكري عاصمة غينيا ومرفأها. لكن الجيولوجيين يعرفون بركان كاكوليما حق المعرفة وهو فجوة قديمة ل يعتبرها العلماء من النوع البركاني ويعود عهدها إلى ما قبل حنون.

واليوم يطلق أهل الكاميرون على بركانهم اسما شبيها بعربة الآلهة، وهذه أيضا قرينة مهمة. لكن هناك ظواهر أخرى أكثر دلالة:

يرى علماء الجيولوجيا أن البركان الخامد منذ ألفي سنة يحافظ على عدة بركانية جديدة كما يقولون. وعلى طول شاط أفريقيا الغربية من طنجة إلى الرأس الأخضر لم يعثر احد من الجيولوجيين على بركان أو عدة بركانية جديدة إلا في الكامرون.

ولا يمكننا بعد هذا لا أن نقر بان بحارة قرطاجة قد بلغوا بركان الكاميرون في زمن حنون أي قبل المسيح بخمسة قرون تقريبا.

بعد عربة الآلهة يمضي حنون في رحلته إلى ابعد من ذلك ولعله وصل إلى الغابون، على أننا لا نملك دليلا موثوقا على ذلك. ولم ينبئنا حنون في توغلة نحو الجنوب عن مصاعب صادفها غير نفاد المؤن.

وهنا تعود بنا الذكرى إلى الأسطورة غير المؤكدة التي تناقلها القدماء، وتقول إن المراكب البونية المنطقة من البحر الأحمر قد بلغت أعمدة هرقل بعد أن دارت حول أفريقيا من الجنوب.

ولدينا دليل أكيد على أن تدمير قرطاجة على يد سبيون اميليان قد آخر اكتشاف الشواطئ الإفريقية نحو خمسة عشر قرنا، حين قام باكتشافها فاسكودي غاما.

لقد كانت الملاحة البحرية تعيش على التجارة، ولم يكتب لها الاستمرار بعد زوال قرطاجة وطنها الأم.

كان على الجمهورية الرومانية أن تأخذ عن قرطاجة ارثها التجاري في المحيط الأطلسي، غير انها لم تفعل. فانهارت التجارة البحرية بانهيار الوطن الأم. ولم يبق منها سوى تمتمات في رحلة حنون.

ولكن هل ذكر الأدب أخبار قرطاجة ونشاطها التجاري؟

هناك أثار عديدة تدل على اهتمام الأدب بها.

ففي المتاحف الأوروبية برونزية رائعة من صنع الإفريقيين. ولابد من وجود علاقة لهذه التحف بالحضارة المتوسطة. نحن مدى تعطش الحضارات البرونزية القديمة لمعدن القصدير حيث كان القرطاجيون يقصدون إلى انكلترا القديمة البحث عنه. كما كانوا يقصدون إلى بنين للغابة نفسها لأنهم عرفوا بركان الكاميرون ووصلت سفنهم حتى مصب النيجر أي بنين.

لقد علمت قرطاجة زنوج أفريقيا الغربية في ما علمتهم صناعة الذهب والقصدير وهي معادن حصلوا عليها بالمبادلة. ولم ينس الزنوج ذلك لان تجارة المبادلات قد استمرت في البحر وفي البر بر الصحراء.

ولدينا الكثير من المعلومات حول استخدام التجار العرب للممرات الصحراوية. ولكن العرب ورثوا هذه الممرات عن القرطاجيين الذين سلكوها قبلهم.

وبعد سقوط قرطاجة البونية، أصبحت لبدة (طرابلس) محطة التجارة الصحراوية عبر فزان وعلى يد الجرمنتيين بنوع خاص. وإذا نحن نفينا كل اثر لنشاط القرطاجيين في الصحراء سوف نجد تفسيرا لوجود حجر الايغريس حول أعناق الزنوج.

وحجر الايغريس نوع من الأحجار الكريمة شبيه بالفيروز تصنع منه العقود. والسود مولعون بهذا النوع من الحلي القديمة التي يعثرون عليها في المقابر. والشواطئ الغنية هي المركزية الأول المبادلات هذه الأحجار، غير أن وجودها لا يقتصر على بلاد الزنوج وحدها، إذ تم العثور عليها ف المقابر الموجودة في سائر أنحاء الصحراء، ويمكننا مشاهدتها في متاحف تونس والجزائر. ثم إن وجود للؤلؤ - وهو الحجر الذي كان يعتبر كالعملة- زاد عدد المحطات البرية للقوافل المتنقلة بين قرطاجة والخليج الغني.

وفي أفريقيا الغربية السوداء نشاهد بقايا الآثار المتوسطية القديمة التي صنعتها قرطاجة.

ولسنا الآن بصدد تعداد الوقائع التي حصلنا عليها في إثبات ذلك، بيد أننا نود اعتماد هذه الوقائع منطلقا لبحثنا.

وإنني لاعتذر عما أبديته من نقد لبعض العلماء الكبار الذين شرحوا رحلة حنون. فهم أصحاب فضل في نواح عديدة، غير أن ما تم اكتشافه أخيرا في أفريقيا السوداء قد أعطى للبحث فيها أسسا جديدة لم تتح للعاملين من وراء مكاتبهم فرصة الاطلاع علها.

هكذا يصبح بإمكاننا تصور حياة القرطاجيين قبل الحروب الرومانية.

ظلت قرطاجة طيلة ألف سنة إمبراطورية تجارية افريقية بلغت أقاصي الخليج الغيني.

وقد حاولنا حقيقة وجود هذه الإمبراطورية ولا ندعي بأننا قد أزحنا كل ما اكتنفها من غموض تاريخي.

على أن ألف سنة من عمر قرطاجة حقبة مهمة جدا في تاريخ بلاد المغرب.

الكتاب الثاني

المصادر التاريخية

1- التاريخ

غرض كتابنا هذا تاريخي بالدرجة الأولى.

بدأ تاريخ المغرب منذ الحروب البونية، حين شرع المؤرخون الإغريق والرومان يتحدثون عن القرطاجيين الذين لزموا الصمت. حول نهاية قرطاجة وضعت مؤلفات عديدة كتبها المؤرخون القدامى من أمثال بوليبيوس وسالوست وتيت ليف. تضاف إليها الوثائق الأثرية والنقوش. وقد عني المؤرخ غيزل بجمع هذه الوثائق وتصنيفها في كتاب تاريخي كبر.

يبدأ تاريخ بداية واضحة وسرعان ما يكتنفه الضباب. ثم يعود إلى نوع من الوضوح في العصور المتأخرة. ففي القرن الثاني عشر نعرف الكثير عن الأسر المالكة الكبرى من الموحدين وحتى المرابطين. ولدينا من عصر النهضة عدد وفير من الوثائق المختلفة والأخبار والأحاديث على لسان المؤرخين الاسبان والبرتغاليين والعرب. ولاسيما وثائق المحفوظات والتماثيل والنقوش. ولكن ذلك ليس كافيا وعلى الباحث جلاء الكثير من الغموض وهذا ما يعجز عنه رجل واحد. كما وإنني سأتجنب تلخيص كتاب التاريخ القديم "لغيزل".

والفترة التي نود جلاءها هي المرحلة المتوسطة الواقعة بين سلسلتين من الفتوحات العربية، أولاهما فتوحات ممثلي الخلفاء في نهاية القرن السابع، وثانيتهما غزوات البدو الهلاليين التي بدأت في أواسط القرن الحادي عشر. ذلك هو العصر الوسيط الأول في بلاد المغرب. وهو يمثل فترة تاريخية منفصلة في تاريخ هذه البلاد. وهي من أهم الفترات على كل حال.

ففي ذلك الوقت بسط المغرب سيطرته على اسبانية وصقلية ومصر. ولم يحصل له قبل هذه الفترة أو بعدها أن بلغ هذا الحد من الإشعاع. لهذا نطلق على هذه القرون الأربعة أو الخمسة اسم الاعصر الظافرة. ولكن ما رمينا إليه من التسمية ليس الإشادة عظمة المغرب وإنما جلاء الحقائق في ذلك العصر الوسيط.

والمغرب بتواضعه المعهود لا يذكر بنفسه شيئا عن أمجاده تلك. فهو رائد في الإسلام وجزء من العالم الإسلامي كما يحمل قناعا عربيا نجد تحته حقيقة هذه البلاد. فهناك

قبائل كبرى انتظمت صفوفها في دول حكمها الأمراء الأجانب ثم السلاطين البربر. لقد أفاد هؤلاء من تصدع خلافة الأمويين في الشرق فاغتنموا الفرصة لإثبات وجودهم وتأسيس دولة مستقلة تعي ذاتها وذلك للمرة الأولى والأخيرة.

ولكن كيف لنا نوضح جميع الملابسات في وقت لم تتضح فيه معالم الأمور في تلك الفترة المجيدة والمظلمة معا.

فالوثائق الحديثة غير موجودة, والفاتحون المسلمون لم يكتبوا سيرتهم. فالعربي شأن البربري لم يكن يعني بالتاريخ. ولم يستيقظ الفضول العلمي في الإسلام إلا في مرحلة متأخرة مع العباسيين وتسرب الأفكار الدخيلة. حيث بدأ بعض المؤرخين الشرقيين يتحدثون عن فتح المغرب, وقد جاء حديثهم متأخرا عدة قرون.

على ا اشد الفترات تشوشا تلك التي انتقلت فيها الحضارة المسيحية للمرابطين.

لقد احدث ذلك أثرا كبيرا في المغرب. فتغيرت لغته وديانته وروحه, ولم يبلغنا بكل أسف شيء كر عن تلك المرحلة المهمة. فقد التزمت وثائقنا الصمت حيالها في وقت نحن بأمس الحاجة إليها.

ولكن هل لنا نعوض بأسلوب آخر؟ اغلب الظن أن التعويض ممكن عن طريق الغربلة والتفسير. فلا يمكننا أن نقتر على المنهج التاريخي المعروف وهو العودة إلى المحفوظات وحدها, فهي لن تفسر لنا شيئا وعلينا أن نتجه نحو دلائل أخرى أغفلها الكثيرون.

فالبلاد لم تتغير, وهي لا تزال قائمة. ونحن نزداد معرفة بها كل يوم.

وقد أحرزت جغرافيا المغرب تقدما لم يحرزه تاريخه. ومن الوقائع المبعثرة هنا وهناك نستطيع أن نصل لنتيجة معولة.

والإنسان المغربي بدوره لم يتغير أيضا. ولعل الصعوبة في معرفة تاريخه تكمن في انقسام هذا التاريخ إلى شطرين منفصلين. فقطاع الدراسات الكلاسيكية لا يتصل بقطاع الدراسات الرقية. في الوقت الذي قطع الإنسان المغربي جميع الحواجز التاريخية واستمر بقاؤه. فالحياة لا تبدأ من جديد كل مرة وإنما تستمر عبر الأجيال.

وظننا أن الحقبة الأولى من تاريخ لمغرب في لعصر الوسيط, لابد وان تنجلي إن نحن عرفنا كيف نربطها بالحقبات التي سبقتها. إذ ليس بإمكاننا أن نظل حبيسي العصر الوسيط الأول. وعلينا أن نتعه كي نحسن فهمه.

لأجل ذلك احتجنا لمقدمة طويلة لاستخلاص ما يجب استخلاصه من العصور

القديمة كما احتجنا لخاتمة تساعد على ربط الماضي القديم بالعصر الوسيط كي تتسلسل نتائجنا وترتقي حتى تبلغ العصور الحديثة.

وهكذا أصبح كتابنا المتواضع هذا مشتملا على الخطوط العامة لتاريخ العصر القيم.

ولدينا العديد من المراجع عن تاريخ المغرب من كتاب مرسيه القديم الدراسة جوليان الحديثة.

غير أننا بصدد إعادة كتابة الأشياء نفسها. فغرض كتانا مختلف كل الاختلاف وكذلك أسلوبه. ونحن لا ندعي الكمال في ما كتبناه وإنما ركزنا الانتباه على عدد من النقاط كانت بمثابة عقد مستعصية في مجرى الأحداث. وبودنا أن نتفهم الأمور لا أن نكتفي بسردها.

هذه ولا شك مهمة شاة ميزة, تختلف عن الأساليب العادية في الدراسات.

وخليق بنا في بداية الحديث عن العصر الوسيط الأول أن نبدأ الكلام بإسهاب عن المصادر.

2 - المصادر العربية

روض القرطاس

أن كل ما بلغنا عن العصر الوسيط الأول في المغرب يعود به الفضل للمراجع العربية. فهل يحق لغير المستعمرين الخوض فيه ؟ انها مسالة معقدة في عصر التخصص العلمي هذا.

وأن نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لابد وان نجد صعوبة في فهم الأمور, وذلك لان الدراسات الشرقية تتسم ببعض الانغلاق على الرأي العام. على أن الأمر قد أصبح مختلفا عما كان عليه منذ نصف قرن, حيث جرى نقل العديد من المؤلفات العربية إلى اللغات الأجنبية ومنها كتاب لأبي زكريا ترجم إلى اللغة الفرنسية بعد العثور عليه مخطوطا.

وقد خصص احد المستعمرين البارزين وهو السيد فانيان الأوقات الطوال لترجمة المصنفات التاريخية العربية من اللغة العربية. وقد نقل إلى الفرنسية ابن الأثير والبيان والمراكشي والزركشي.

إنصاف المؤرخ المنهجي. وكتاب القرطاس من النوع نفسه.

ثم إنه يصنف الحوادث حسب تسلسلها التاريخي. وقائمة لتواريخ هي السلاح القوي في النص. على تفاصيل الأرقام كثيرة ودقيقة على نحو غير مألوف في الغرب. فالمؤلف لا يكتفي بذكر السنة واليوم المعين الشهر بل يحدد اليوم من أيام الأسبوع وحتى اللحظة التي وقعت فيها الحادثة. مثال ذلك أن القائد الفاطمي جوهر وهو مسيحي قد دخل فاس بعد حصارها في "صبيحة يوم الخميس الموافق للعشرين من رمضان سنة 349". ويقول أيضا: "في ليل يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال 267, وقعت هزة أرضية لا يذكر أي إنسان من قبل انه شعر بمثلها".

إلى جانب هذه التواريخ الدقيقة نجد أشياء تقريبية:

" في سنة 349 استولى السلطان الناصر الإدريسي على سوته وطنجه ... ويقول بعضهم إن الاستيلاء قد تم عام 319". فبينما يحرص مؤلف القرطاس على ذكر الساعة واليوم نراه أحيانا يتسامح في اختلاف بالتاريخ يبلغ الثلاثين سنة. ويذكر القرطاس بكثير من الدقة التواريخ المتعلقة بالفلك:

"سنة 266. وفي ليل 21 صفر. لاح في السماء صبح شمالي استمر طيلة الليل... وفي سنة 299 وقع كسوف شمسي كلي يوم الأربعاء 29 شوال وقد أظلمت الشمس بعد صلاة العصر".

وهناك يتضح لنا أمر مهم: فلعل اهتمام القرطاس بالأيام والساعات يفوق اهتمامه بالسنين شأن المنجمين وعلماء الأبراج. وحتى التاريخ الروماني كان في بدايته فرعا من فروع التنجيم. يهتم بأيام السعد وأيام النحس. والقرطاس قريب لهذا النوع من التاريخ.

ولعنوان الفصل الأخير من الكتاب. وطوله سطران ونصف السطر. أهمية في كشف طابعه المميز:

"حكم أمير الزمان ونور العصر الإمام السعيد أمير المسلمين أبي خليفتنا بدأ في سنة 726 هذه".

والفصل كله يسير على هذا النحو من الإطناب. وظني أن أبا سعيد هو السلطان المريني العاشر. ويخصص الكتاب 160 صفحة أي نحو ثلث صفحاته للحديث عن هذه الأسرة بنوع من التزلف. وهو لا يتحدث عن السلف إلا من وجهة نظر المرينيين. وهكذا فان مفهوم مؤلف القرطاس للتاريخ يختلف ومفهومنا له اختلاف تاما.

بدأ الاهتمام بالترجمات في مطلع عهد لاحتلال الفرنسي وقد نشر في المجموعة المسماة مجموعة الاستكشاف العلمي بالجزائر عام 1845 ترجمة للقيرواني يقال انها ضعيفة. ثم ترجم البارون دي سلان الأب برجيس التواريخ الخاصة نتلمسان وتوغرت. كما ترجم جورج مارسي سنة 1917 كتاب "تاريخ ملوك فاس".

على أن هذه الترجمات ليست متساوية في قيمتها. وحتى ترجمة ابن خلدون إلى تركت أثرا كبيرا في الغرب كانت سريعة جدا.

لكن الصعوبة ليست هنا. وإنما الصعوبة في التسرب إلى عقول المؤرخين الذين يختلفون عن مؤرخي الغرب ويصعب علينا فهمهم.

لذا رأيت لزاما علي أن أبدأ دراسة نقدية لبعض المؤلفين العرب كي تسنى لي على ضوئها الوصول لبعض الاستنتاجات المفيدة. وقد اخترت لذلك مصنفين هما روض القرطاس وكتاب ابن خلدون.

روض القرطاس

لروض القرطاس عنوان فرعي هو "تاريخ ملوك مراكش وحوليات مدينة فاس" وهو عبارة عن تاريخ لهذا الجزء من المغرب الذي نطلق عليه اليوم اسم مراكش وذلك منذ ظهور الإسلام فيه وحتى سنة 1326 ميلادية. والكتاب وثيقة هامة ترجمة تورنبورج إلى اللاتينية (سنة 1846) كما ترجمة بوميه إلى الفرنسية (سنة 1860). وبعضهم سماه روض قرطاس بدون التعريف وهو اسم مكان في بلاد فارس. ولكن من المرجح أن يكون اسمه روض القرطاس على غرار مروج الذهب والكتب العربية الأخرى التي تحمل عناوين على هذا النحو.

وهناك تساؤل آخر حول اسم الكاتب. فالصحابة الأولى من المخطوطة تسبه لابن عبد الحليم الغرناطي. ولكن هناك احتمالا يعززه ابن خلدون يفيد بان المؤلف هو ابن أبي زرع المولود في فاس. ودرج العرب على تسمية الكتاب اختصارا "بالقرطاس".

وسواء كان الكاتب ابن أبي زرع أم "الشيخ الإمام والعام العلامة بن عبد الحليم". فان مؤلف القرطاس عاش في فاس وكان يعمل سنة ميلادية في خدمة السلطان المريني الحاكم. ولا حاجة لنا لمعرفة المزيد عن حياته لان مصنفة ليس مميزا جدا. وكثيرون غيره ممن كتبوا في التاريخ لجأوا للأسلوب نفسه. والقرطاس نموذج للأسلوب العربي في التاريخ.

يقول المستشرق فانيان مترجم كتاب البيان أن هذا المصنف التاريخي ليس فيه

واليك على سبيل المثال بعض المعلومات التي يوردها:

"وكان في فاس أيام حكم المنصور الموحد 785 مسجدا و9 حماما عاما و472 طاحونة. أما في أيام حكم الناصر فكان فيها 236، 89 بيتا و467 فندقا و9072 حانوتا وسوقان كبيران، و3064 معملا و118 مغسلا و86 دباغة و116 مصبغة و136 مخبزا، و1170 فرنا و3000 مصنع ورق".

ويخصص الكتاب الصفحات الطوال لوصف جامع القرويين في فاس. ويذكر لنا تاريخ المسجد الذي اندثر من سنين طويلة، وكانت قد أمرت ببنائه امرأة ورعة ثرية. وبدأ البناء فيه في اليوم الأول من شهر رمضان سنة 245 هجرية وكان طوله 150 شبرا من الشمال إلى الجنوب، وله أربعة صحون وباحة صغيرة ومحراب".

ويستفيض القرطاس بالحديث عن جامع القيروان القائم حاليا والذي شيد في مكان المسجد القديم ويذكر لنا بتوسع ما كتب على جدران المسجد حول تاريخ بنائه، كل بدقة تامة (بين 344 و345) وأجريت عليه إصلاحات مهمة سنة 688.

ومئذنته عبارة عن برج مربع يبلغ عرض كل جانب منها 27 شبرا واستخدمت 52,000 آجرة في تبليط الباحة. واليك المزيد من التفصيل: للمسجد 11 رواقا يغطي كلا منها 20 صفا من الآجر وفي كل صف 200 آجرة الخ...

اشرف على بناء الحوض ونافورة المياه وسط الباحة مهندس بارع اسمه... وذلك سنة 599. والحوض مصنوع من المرمر الأبيض وهو مزود بقسطل من الرصاص مد تحت الأرض.

وفي المسجد 270 عمودا تؤلف 16 صحنا كل منها مكون من 21 رواقا. ويتسع كل رواق لأربعة صفوف من المؤمنين أي 210 أشخاص بمعدل 480 شخصا في كل صحن... بحيث يبلغ مجموع المصلين 22,700. وقد استخدمت 467,300 قرميدة لتغطية سقوف المسجد. وللمسجد أيضا 15 بابا كبيرا وبابان صغيران للنساء. وزنة الثريا 1,763 ليبرة ولها 509 مناقير. وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان حين تضاء مصابيح المسجد وعددها 1700، يبلغ استهلاكها من الزيت ثلاثة قناطير ونصف القنطار.

وإذا كانت المساجد من أهم الأبنية ف فاس، فالقرطاس يذكر لنا أيضا متنزهاتها العامة ومراحيضها المبلطة بالرخام.

كما يعير القرطاس انتباهه لإحياء فاس فيصفها بدقة. فمن بوابة أفريقيا إلى ينبوع زليطن تقوم الفنادق والحمامات والطواحين والأسواق. وتكثر المصابغ هناك نظرا لقرب

المكان من الماء وذلك على ضفتي الوادي الكبير. ولا يزال هذا الوادي باديا للعيان حتى اليوم في حين اختفت السواقي الأخرى تحت الأبنية.

وفي الكتاب صفحات وصفحات تتحدث عن خطباء الجوامع. وخطيب جامع القرويين لا يقتصر عمله على المهمات الدينية بل هو الوجيه الأول في المدينة قضاتها.

وعن الخطباء يتحدث مؤلف روض القرطاس بكثير من التحبب، ولا يغرب عن باله ذكر تاريخ مباشرتهم العمل وتاريخ انتهائهم منه. مثال ذلك أن "...ألقى خطبته الأولى نهار الجمعة أول جمادى الأولى سنة 540 وظل خطيبا للجامع حتى آخر حياته". ويذكر أحيانا بعض التفاصيل المهمة كأن يقول مثلا: "مجيء الموحدين حل في مكان ابن عيسى الفقيه الفاضل ابن عطية الذي كان يتقن اللغة البربرية". ويقول أيضا "كان الفقيه الجروري لا يتقن اللغة البربرية كل الإتقان بحيث انه لا يستطيع إلقاء الخطبة، ولذلك احتفظ بوظيفته كإمام وأوكل أداء الخطبة لشخص آخر".

إن تفصيلا من هذا النوع من شانه أن يلقي ضوءا ساطعا على عصر الموحدين لكن مؤلف القرطاس لا ذك هذه الأمور إلا بطريق الصدفة. أما التفاصيل التي يقف عندها طويلا فهي من نوع آخر: كان ابن عيسى درب اللسان واضح الكلام قوى الحجة. وكان في كل جمعة يلقي خطبة جديدة".

والمعلن تسلم وظيفة بصورة مثيرة وقد اعد العدة لذلك بالدموع والصلاة. "حين بدأ المؤذن صلاة الفجر ارتدى المعن أبهى حلله وسار وراء المؤذنين إلى المسجد الكريم... وظلت دموعه تنهمر طيلة فترة الأذان... وأدى الصلاة بلا خطأ أو رجل ثم وقف تحت المحراب وألقى خطبة كلها حكمة ووضوح ولم يستطع الحاضرون حيالها أن يوقفوا دموعهم عن الانسياب".

ليس هذا الأسلوب غريبا علينا معشر الأوروبيين فقد ورد في كتب سير القديسين كثير من الكلام المشابه. غير أن جمع هذه الأخبار في مصنف تاريخي أمر لا نفهمه بدا. وكتاب روض القرطاس لا يفرق بين أهم الحقائق التاريخية وابسط الحوادث العادية.

"سنة 591 انهزم المسيحيون في معركة الركوس ولاقوا حتفهم بالآلاف". ومعركة الركوس تحتل مكانا بارزا في التاريخ الاسباني شأن معركة بواتييه في تاريخ فرنسا.

"بنيت مدينة الرباط سنة 594" ثم يذكر مئذنة اشبيلية، (لاجيرالدا) و"مئذنة الكتبية في مراكش". وهي من أهم المآذن التي تمثل الهندسة المغربية.

هذه برأينا وقائع همة، لكن القرطاس لا يتطرق إليها إلا في ملخص موجز "للأحداث المهمة في عصر الموحدين".

بعد الموجز مباشرة ينتقل مؤلف الروض إلى القول: "في سنة 593 نفسها توفي العالم الفقيه بن إبراهيم الذي بلغ الأربعين من عمره ولم يقم الصلاة مرة واحدة خارج المسجد" كما توفي الفندلاوي الفضل "الذي حضر دفنه أمير المؤمنين".

ولنلاحظ هنا أن ذكر معركة الركوس المهمة لم يتعد السطرين، وبناء الرباط لم يزد على الخمسة في حين خصص صفحتين كاملتين للحديث عن مراسم دفن العلماء.

واليك فقرين متتاليتين من الفصل الذي يوجز فيه "الحوادث المهمة تحت حكم المغراويين:

"سنة 385 هبت عاتية قذفت الحيوانات بين الأرض والسماء. ليقنا الله من غضبه".
"وفي سنة 391 توفي الأمير زير بن عطية" وجدير بالذكر أن هذا الأمير هو مؤسس حكم سلالة عطية.

وفي روض القرطاس فصل مخصص لحكم بن كنون آخر أمراء الأسرة الادريسية. وهو إنسان عاش حياة صاخبة عرف خلالها الظفر والانكسار والسجن.واليك كيف تنتهي مغامرته: "أرسل رأسه للمنصور، وقد تسلمه في قرطبة في أول جمادى الأولى سنة 375".

وكان الأمويون حكام اسبانيا والفاطميون حكام تونس يتنازعون على مراكش طيلة فترة حكمه.

وقد حقق القائدان غالب وجوهر النصراني انتصارات عديدة كما حاصرا فاس واستوليا عليها. وفي زحمة الحوادث الجسام ينتقل مؤلف القرطاس الحديث بإسهاب عن قطعة من العنبر عثر عليها بن كنون على الشاطئ، ويخصص لها صفحة كاملة.

ويذكر القرطاس أحيانا بعض الصور المفيدة، فيقول مثلا: أن جوهر النصراني عاد إلى المهدية بعد استيلائه على فاس حاملا معه أميرها وخمسة وعشرين رجلا من شيوخها مسجونين في أقفاص وضعت على ظهور الجمال.

لقد كان كاتب الروض من مدينة فاس يعرف كل ركن فيها، ويرى انها مدينة بكل شيء للأسرة الادريسية. ويقول القرطاس في وصف وفاة بن كنون آخر أمراء هذه الأسرة:

"عندما توفي كنون هبت ريح هائلة حملت معطفه إلى مكان لا يعرفه احد". وذلك دلالة على أهميته ودخوله في الأسطورة.

وفي الفقرة التالية يذكر الروض وجهة نظر الأمويين بلا مقدمات: "يقول ابن الفياض أن حسن بن كنون كان شريرا عاتيا لا رحمة في قلبه". ويورد المؤلف هذا التناقض غير عابئ به. وإليك ما ذكره الكتاب عن موقف بن كنون من الجيوش الفاطمية والأموية:

"اعترف بن كنون بسيادة الفاطميين طيلة إقامة جوهر (القائد الفاطمي). وبرحيل جوهر في نهاية عام 349 وضع نفسه في خدمة الأمويين لا حبا بهم وإنما خوفا منهم، وظل مواليا لهم حتى مجيء بلكين خليفة جوهر",

"وبمجيء بلكين، كان بن كنون المقيم في البصرة أول من شق عصا الطاعة على الأمويين وعمل على زعزعة حكمهم",

ولكن الروض لا يوضح لنا كيف أن ابن كنون كان يؤثر الفاطميين, وميزة الكتاب انه يترك لنا مجال التأويل والتفسير, وإليك كيف يوجز تاريخ الأسرة الإدريسية:

"لقد دام حكمهم بين اعتلاء إدريس العرش يوم الخميس السابع من ربيع الأول عام 172، ومصرع بن كنون في شهر جمادى الأول سنة 375، مايتي عام وعامين وخمسة أشهر. وامتدت سيطرتهم من سوسة إلى وهران. وقد حاربوا الفاطميين والأمويين الذين انتزعوا منهم الخلافة... والبقاء لله وحده".

وهكذا نرى أن مؤلف القرطاس يعني أكثر ما يعني بأخبار الانتصار والهزيمة دونما اهتمام لتفاصيل المعارك وظروفها.

واليك نموذجا عن أسلوب القرطاس يعطينا فكرة عامة عنه. فيذكر وفاة المهدي مؤسس أسرة الموحدين وأشهر حكامهم دون أن يسعى لإزالة الالتباس:

"توفي المهدي صبيحة الخميس 25 رمضان سنة 524 كما روى البرنس. ويرى ابن الحاشب انه توفي يوم الأربعاء في 13 رمضان 524. ويذكر كتاب آخرون أن المهدي قد تولى الحكم في أول يوم سبت من شهر محرم سنة 515، وتوفي في 13 رمضان سنة 524. ويضيف هؤلاء أن حكم المهدي دام ثماني سنوات وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما.

"وأصح الروايات على ما يبدو روايتا الصلاح وابن رشيق، وتذكران أن المهدي بويع بالملك يوم السبت الموافق لأول رمضان سنة 516 وانه توفي يوم الأربعاء الموافق 13 رمضان سنة 524. ويأتي آخرون ليزعموا بأنهم قرأوا كتابا للأمير أبي يعقوب يفيد بان حكم المهدي

قد دام 585، 3 يوما، أي ثماني سنوات وخمسة عشر يوما ابتداء من نهار السبت يوم مبايعته حتى نهار الأربعاء يوم وفاته".

ذلك نموذج لأسلوب مؤلف القرطاس في التاريخ وهو يعد من المؤرخين العرب المعروفين. وهنا يتبادر إلى الذهن قول رينان في مقارنته بين الشرقيين والغربيين: ليس لدينا نحن الأوروبيين أي حس ديني، أما الشرقيون فليس لديهم حس بالتاريخ. ولعل الحس الديني والتاريخي يتعارضان.

يبقى أن نذكر شيئا عن طريق تأليف الكتاب: لقد اعتمد مؤلفه المقض اعتمادا كبيرا واليك آخر استشهاد يأتي به:

"أخذت كل ما سبق عن القويقري ناظر المدينة تحت حكم الناصر الموحدي". إلى أن يقول: "يروي ابن غالب عن عبد الملك,,, ذهب إلى تلمسان عام 550 وعثرت على لوحة مكتوبة..." ويسرد القرطاس كل الرواية.

وهناك أمثلة من هذا النوع لا تحصى. على أن الكاتب القرطاس لا يحرص دائما على ذكر مصادره. ولا يسعى لغربلة المعلومات المتضاربة بل يوردها كما هي بدون تعليق.

فإدريس الثاني مؤسس فاس توفي عن عمر يناهز الثالثة والثلاثين وذلك سنة 213 كما يروي بعضهم، أما البرنس فيقول بأنه مات مختنقا وهو يلتهم العنب في 12 جمادى الثاني سنة 213 وكان في الثامنة والثلاثين.

ويورد البعض انه توفي ودفن في المسجد كم ناحية الشرق أو من ناحية الغرب. أما البرنسي فيقول انه مات في "وليلي" ودفن في مقبرتها إلى جانب أبيه. ويرى كاتب القرطاس أن من واجبه ترجيح إحدى الروايتين.

وفي الجزء المخصص للموحدين يصور الكتاب قبائل صنهاجة الصحراويين على أنهم قوم أتقياء يؤدون فريضة الحج إلى مكة ويشنون الحرب المقدسة على الزنوج.

وفي الصفحة اللاحقة يصمهم بالوثنية المخيفة وقد "نوصل احد الدعاة لإقناعهم باعتناق الإسلام, والحمد لله".

والكتاب مقسم إلى فصول يتناول كل منها إحدى الأسر الحاكمة كالإدريسيين والزناتيين والمغربيين والمرابطين والموحدين والمرينيين. يعقب ذلك ملخص للفصل بعنوان أهم الأحداث التي وقعت في عهد كل أسرة وهو نوع من التكرار. غير انه يورد أحيانا معلومات جديدة لم يذكرها في الفصل الموسع. ويعني ذلك أن المؤلف لم يبذل مجهودا

في التأليف، وجل همه أن يسرد ما صادفه من معلومات مع الحرص على عدم إغفال أي منها.

ولا يغربن عن البال أن كتاب القرطاس ينتمي للقرن الرابع عشر أي عصر ابن رشد وابن خلدون.

أما لماذا سمي الكتاب بروض القرطاس فذلك كما يقول الشارحون العرب في القرن التاسع عشر: "لان الإمام عبد الحليم قد جمع الكثير من النتف والوثائق والأوراق المبعثرة وضمها بين دفتي كتاب، كما تضم الحديقة أنواع الزهور".

ثم إنه لا بد لي من ذكر الصعوبة التي يصادفها المترجمون في نقل اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية. فكلمات اللغة العربية ومدلولاتها لا تنطبق تماما على كلماتها ومدلولاتنا. ونقل كتاب من العربية إلى الفرنسية أمر شاق جدا يختلف عن الترجمة من لغة أوروبية للغة أوروبية أخرى.

على أن المستشرقين والمستعربين يتنبهون دائما لهذه المشكلة التي تعترضهم دائما وهم لا يألون جهدا في قدر الإمكان.

3 - ابن خلدون

يختلف ابن خلدون كل الاختلاف عن كاتب روض القرطاس. فهو فريد من نوعه بين المؤرخين العرب - المغاربة على الأقل- نظرا لتفوقه وعبقريته.

ويحق للمغرب أن يفخر بابن خلدون ويضعه في مصاف هنيبعل والقديس اغسطينوس. ومن العجيب حقا ألا يصادفك اسم ابن خلدون على لائحة العظماء في مكتبة القديسة جفياف بباريس إلى جانب الرازي وأمثاله, ومن غير الإنصاف أن تقتصر معرفة اسمه على المتخصصين وحدهم, بل ينبغي أن يحاط بكل آيات التعظيم والإكبار. وبوسعنا أن نؤكد انه لولا ابن خلدون لما استطعنا أن نتعرف على ما جرى بين تونس وطنجة منذ الفتح العربي وحتى العصور الحديثة. وانه لشرف عظيم للإنسانية أن يأتي رجل كابن خلدون فيسجل في ذاكرة البشر ما أغفله البشر طيلة ألف عام. وبإلحاح كلي أدعو لإضافة اسم ابن خلدون إلى مؤرخينا الكبار من أمثال غريغوار دي تور، وفرواسار وسالوست، لتدريسه في المعاهد. ومهما يكن من أمر فانه إذا ذكر المغرب لابد وان يذكر ابن خلدون. ولنحاول الآن أن نلقي ضوءا على حياة هذا الرجل وأثره.

عصره

عاش ابن خلدون بين سنة 1332 و1406. ولدينا في غير الأرقام معلومات تدلنا عليه.

ففي سنة 1300 بالضبط وفي مدينة دمشق بالذات مثل شيخ في السبعين بين يدي تيمورلنك الذي غزا مدينة الأمويين. وهي الحقبة التي تعاصر في تاريخنا حرب المئة عام في نهاية العصر الوسيط.

ومما يزيد في أهمية ابن خلدون انه عاش في فترة انتقال بين العصر الوسيط والعصور الحديثة.

وكان يعي بعبقريته الفذة تلك الحقبة التي عاش فيها. وفي ذلك يقول: "يعيش المغرب هذه الأيام دورة عميقة". كما أدرك انه عاش في "فترة تقهقر تتغير فيها معالم البلاد" وان العالم يجتاز فترة "انقلاب شامل"... "وستتغير طبيعته من اجل ولادة خلف جديد".

والتشابه واضح بين "الخلف الجديد" وبين " عصر النهضة" كما يسميها الأوروبيون. ففي بلاد المغرب انهزم المسلمون في اسبانيا وانهار بذلك العديد من الممالك البربرية. فانهار المغرب المستقل بانهيارها وتبددت الآمال الوطنية. وجاء الأجانب ليبسطوا سيطرتهم. وعلى مرتفعات الجزائر العالية حل البدو الهلاليون نهائيا محل البربر الزناتيين. ثم تمركز أتراك بربروسيه على الشواطئ.

إنها ثورة عارمة لا تصح تسميتها بعصر النهضة. ومن غريب الصدف أن تكون تلك الفترة مشتبهة لما كانت غليها أوروبا في نفس الوقت. مما يعزز الاعتقاد بان الحجاب بين الشرق والغرب ليس كثيفا بقدر ما يتصوره الناس.

وفي مغرب ابن خلدون ملامح من مغربنا اليوم. ففي كتابه نلاحظ التمايز بين التل والصحراء. كما نعثر على الشاوية والقبائل والعرب وهي الشعوب التي كانت تقطن الجزائر.

ويفسر لنا ابن خلدون كيفية سيطرة هذه الشعوب على مناطقها. "فلم يستطع العرب السيطرة إلا في البلدان الواقعة في السهول" في حين "تحصن القبائل في الجبال الوعرة".

ويرسم لنا ابن خلدون ملامح المغرب القديم وقد بدأت تتسرب إليه سمات العصر. كانت الأسر البربرية الحاكمة من حفصيين ومرينيين وموحدين وحتى المرابطين كانت لا تزال قائمة أو أن ذكراها لم تزل من الأذهان. لقد عايش ابن خلدون تلك الحقبة ونقل إلينا

صلة الوصل بين العصر الوسط والعصور الحديثة وهذا أيضا مما يضاعف من أهميته التاريخية. وكتابه بمثابة قبس من نور يضيء قرونا عديدة.

إنه شخصية أدبية فريدة يتمتع بموهبة النظر والتحليل والسرد الحي.

سيرته

وشخصية ابن خلدون متميزة في أدق تفاصيلها. فهو إنسان بكل ما للكلمة من معنى. وكتابه وحده ينبئنا عن مدى شخصيته ونفاذ بصيرته. وقد ترك لنا ترجمة كتبها بكثير من الوضوح وضمنها أدق التفاصيل عن عصره.

ومن الغريب حقا أن يكون قد فكر بكتابة سيرة حياته. لعله قد أدرك ببصيرته الخارقة حاجتنا إليها في يوم من الأيام.

ابن المغرب

كانت حياته ضاجة بالأحداث. فقد تنقل بين جميع البلدان الإسلامية الواقعة في جنوبي المتوسط. وجاب الطريق من غرناطة إلى اشبيلية من ناحية وتنقل بين القاهرة ودمشق من ناحية أخرى.

ويوضح ابن خلدون الرابط بين كتابه وبين إقامته بالمغرب فيقول: "بودي أن اقصر البحث على تاريخ المغرب وقبائله وأوطانه وممالكه وأسره الحاكمة. وليس في نيتي الاهتمام بالبلدان الأخرى. ذلك لأنني لا املك ما يكفي من معلومات عن المشرق وشعوبه فالمعلومات المستهلكة لا تسد حاجتي".

وفي سنوات حياته الأخيرة في مصر تخلى عن مخططه الأول. ففي مصر تولى منصب مفتي المذهب المالكي أي مذهب أهل المغرب. ومهام الإفتاء كما هو معلوم ليست دينية بحتة بل قضائية وإدارية أيضا. فقد كان على حد تشبيهنا قنصلا للمغرب في مصر.

ولما مثل بين يدي تيمورلنك في آخر حياته كان ابن خلدون يرتدي عمامة خفيفة وبرنسا أشبه بلون الغسق. يعني ذلك انه لم يتغير هندامه المغربي بعد إقامة عشرين سنة في المشرق. وقد أثار البرنس انتباه تيمورلنك وقال: "هذا الرجل ليس من أهل هذه البلاد".

وكتاب ابن خلدون يحمل إذا صح التعبير برنس صاحبه. وكان شغوفا بالمعرفة الحية.

المعرفة الملموسة. وهي صفات تجعله عبقري الكتاب المسلمين في عصره بل في كل العصور.

أصله النبيل

ابن خلدون اسم العائلة التي ينتمي إليها كاتبنا الكبير، وهذا نادر في البلدان الإسلامية. واسمه الأول أبو زيد عبد الرحمن وكنيته وليد الدين. غير أن التاريخ لم يذكر لنا اسما آخر من أفراد عائلته حتى غدا اسم العائلة اسمه هو.

يتحدر ابن خلدون من أسرة حضرموتية عاشت في القرن العاشر للهجرة، وما كانت أصوله البعيدة لتهمنا لولا أنها تلقي بعض الضوء على حياته. وكان جده خالد أو خلدون ضابطا في جيش الفتح العربي يشبه الجزيرة نحو القرن التاسع) 830-840(. ويبدو من المؤكد أن الأسرة أقامت في اشبيلية عدة قرون وكانت تعتبر من وجهائها في القرن الحادي عشر، ونزحت في منتصف القرن الثالث عشر هربا من الغزو المسيحي لتلجأ إلى أفريقيا.

كانت أسرة ابن خلدون إذن أسرة أندلسية نبيلة نزحت إلى المغرب قبل قرن، حين ولد فيها العلامة الكبير. ويقول المؤرخون إنه ينتمي للجيل الخامس من النازحين وهو الوقت الكافي لحصول أسرة أندلسية على الجنسية المغربية. ولا تغربن عن البال أصوله الاسبانية والعربية وقد كان يدرك جدا. وكاد يكون مواطنا عالميا.

وفي المغرب كما في اسبانيا مارست أسرة ابن خلدون مهنة واحدة توارثتها أبا عن جد، كانوا رجال بلاط وسياسيين. وكان جد صاحبنا وزيرا لبيت المال في تونس وحكم عليه بالإعدام وحجزت أمواله. وأهمية الوزير تقاس بشدة سقوطه.

وسار الابن على خطة أبائه الذين عملوا منذ نزوحهم إلى الأندلس في خدمة أسرة حاكمة واحدة هي أسرة الحفصيين في تونس. أما ابن خلدون نفسه فعمل في خدمة الحفصيين والمرينيين في بجاية وفاس وفي خدمة عيد الواحد في تلمسان. كما خدم سلاطين غرناطة وحكام مصر. وقد تسنى له أن يدخل بلاط بطرس السفاح ملك قشتاله سفيرا وكذلك قابل تيمورلنك.

ويشبه ابن خلدون في سعة افقه وميله لاستخلاص القواعد العامة كبار المؤرخين الذين انتقلوا من السياسة إلى التاريخ على غرار توسيدويوس وسان سيمون.

خليق بنا الآن أن نبدي ملاحظة حول أسلوب ابن خلدون. لقد كان الرجل ذا ثقافة

واسعة، وأسلوبه لم يكن سهلا أبدا وكأنه كان يكتب لنفسه غير عابئ بضعف القارئ. والثابت انه وضع كتاباته على عجل ولم يكن لديه الوقت الكثير للمراجعة بسبب نشاطاته الواسعة. ولاسيما وانه لم يبدأ الكتابة قبل سن الثانية والأربعين أي عام 1374 حين وجد لزاما عليه الإقرار بفشله كسياسي ولجأ إلى قصر توزرت العربي على بعد تسعة أميال جنوب غربي تيهرت على الضفة الشمالية للمينا العليا. وقضى هناك سحابة أربع سنوات في تحرير مقدمته الشهيرة.

وفي اوكتوبر أو نوفمبر 1378 غادر توزرت قاصدا تونس مسقط رأسه ولم يكن قد وارها منذ عشرين سنة. ووجد لدى سلطانها الحفصي شعورا طيبا حيال أهل الفكر "وحيث كان الأمير راغبا في اغناء معلوماته التاريخية فقد كلفني بالعمل على إنهاء كتابي عن البربر والزناتة. وحين فرغت من تأليفه... أهديت نسخة لمكتبته الخاصة". كان ذلك قبل شهر اوكتوبر من سنة 1382. وهكذا يكون ابن خلدون قد خصص ثماني سنوات فقط لوضع مؤلفه الكبير المكون من ستة أجزاء أو سبعة كلها زاخرة بالمعلومات. وسرعة التأليف يبرر إلى حد ما أسلوبه المرسل.

أما في باقي حياته وخاصة في المرحلة الأولى فكان جادا في السعي وراء السلطان.

حياته السياسية والسلاطين

بين الواحدة والعشرين والرابعة والثلاثين كان ابن خلدون متنقلا بين سلطان وآخر بحيث يصعب حصر تنقلاته. وكانت أسرته مدينة للسلاطين الحفصيين في تونس وبدا هو كاتبا لديهم مذ كان في العشرين. ينمق كتابات السلطان ويدبجها "الحمد لله والشكر لله".

وما كاد يدخل معترك السياسة حتى تنكر لأصحابه الأول بعد ستة أشهر كما يقول المؤرخ سلان. وقد كان للحفصيين أخصام تقليديون هم المرينيون في فاس، عمل كاتبنا في خدمتهم واضعا نصب عينيه هذا المبدأ: إذا كان وضع أصحابك في خطر فاعمل من اجل مستقبلك. واغتنم فرصة البلبلة التي سادت إحدى المعارك الحربية وفر إلى كنف المرينيين. وفي طريقه إلى فاس عين موظفا في المدينة بطحا التي اختفت اليوم من الوجود وما لبث أن انتقل إلى العاصمة حيث مكث فيها عشر سنوات أي بين سن العشرين والثلاثين. وهناك قضى فترة من القلاقل السياسية حيث شهد موت السلطان والوصاية على العرش والثورة ثم الثورة المضادة للثورة وظل محافظا على وجوده في ذلك الجو المشحون. وفي بداية دخوله في خدمة المرينيين تآمر ضدهم بالاشتراك مع أمير

حفصي "وأهملت اتخاذ الاحتياطات اللازمة في مثل هذه الأحوال" وحكم عليه بالسجن عامين. ويبدي في مناسبة أخرى أسفه "الآن طيش الشباب قد دفعه للتطلع عاليا جدا".

وفي سنة 1362 غادر فاس قاصدا جبل طارق ساعيا وراء الخطوة لدى سلطان غرناطة. وعينه هذا سفيرا له، وقد رأيناه في اشبيلية يغازل بطرس السفاح. "لقد أراد أن يستبقيني في خدمته)يعني ملك كاستيليا(ووعدني بأن يسترجع لي ثروة أجدادي". ورفض ابن خلدون ووهبه السلطان قطعة ارض جميلة في سهل غرناطة "أقام فيها مع عائلته. ولم تدم الحال طويلا. ففي مارس -ابريل سنة 1365 استقل البحر من العامرية وبلغ بجاية بعد أربعة عشر يوما.

هناك لاقى شريكه الحفصي الذي تآمر معه وقد أصبح ملكا. وفي تلك الفترة بلغ ابن ذروة مجده السياسي فقد أصبح الوزير الأول وحاجب السلطان أي نائبه. وذلك لعدة شهور . وقتل أمير بجاية في ارض المعركة على يد ابن عمه أبي العباس سيد قسطنطينة. ويقول في وصف الوضع حينذاك "جاء لمقابلتي في البلاط وفد من أهالي بجاية طالبا إلى إدارة دفة البلاد وتنصب احد السلطان المتوفي ملكا. غير أنني لم اسمع كلامهم وغادرت المدينة قاصدا أبا العباس، فاستقبلني هذا بحفاوة. وسلمته حكم بجاية". لكن أبا العباس كان حذرا منه ووضع حدا لوظيفته بالبلاط سنة 1366 وكان في الثالثة والثلاثين. لقد سعى ابن خلدون إلى الحكم بجميع الوسائل، ولكن محاولاته باءت بالفشل.

وجدير بالذكر أن كاتبنا لم يرتبط عاطفيا بأحد. ويذكر عن أيام سجنه أيام السلطان المريني في فاس: "طلب السلطان إلي بعض المعلومات عن بجاية وقد أبدى رغبة في الاستيلاء عليها، فأشرت عليه بان العملية سهلة... فأمر بإطلاق سراحي في اليوم التالي".

وبعد أن عمل في خدمة أبي حمو سلطان تلمسان دبر عملية استولى فيها الوزير المريني على كنوز أبي حمو وأمتعته في الزاب.

كذلك في بلاط تيمورلنك، فحين استولى هذا الأخير على دمشق اعمل في أهلها قتلا وتشريدا وسبى نساءها ولم يتورع ابن خلدون عن مقابلته. ودعاه تيمورلنك للعشاء مع عدد من الوجهاء المصريين وراح القائد التتري يحدج ضيوفه بنظرات غريبة دبت الرهبة في قلوبهم فامسكوا عن الطعام. في حين تناول ابن خلدون طعامه بشهية، وقال مخاطبا تيمورلنك: "سيدي وأميري، لقد بلغت من العمر عتيا وأصبح بوسعي أن

اعرف من هو جدير بالملك. إن مصر ى تريد ملكا سواك,,,أما بالنسبة إلي فأنت لي بمثابة الثروة الخ,,," وهكذا خرج من ورطته. وكان شيخا في الثامنة والستين. ولكن ما هو نصيبه من مواقفه تلك؟ وهل ضاق الحكام ذرعا به؟

علينا إلا ننظر لابن خلدون نظرة عصرية ونزيه بمعيار الخيانة والإخلاص. وقد أعجب المحدثون بطباعه تلك كما أعجبوا بعلمه، وحتى السلاطين الذين خانهم لم يضمروا له الحقد.

ذلك أن التقليل كان ميزة العصر برمته وليس عيبا في شخص ابن خلدون وحده. فالوفاء لم يكن صفة حميدة في بلاد البربر. وحتى الرومان نددوا "بالعقيدة البونية".

وبعد أن فشل صاحبنا بسبب سلوكه هذا في المحافظة على أصدقائه في المغرب والأندلس بدأ يعتنق مبادئ جديدة مذ بلغ الرابعة والثلاثين. وعاش بين العرب حياة الجندي بعد أن عرف حياة البلاط.

فقد عاشر بدو بني هلال الذين أموا المغرب مع نسائهم وأطفالهم وباتوا يشكلون عنصرا بشريا جديدا منذ نهاية القرن الحادي عشر.

وكان هؤلاء حتى القرن الرابع عشر متميزين عن الوسط البربري الذي نزحوا إليه، وقد عاشوا في عزلة جنوبي تونس بمنطقة هدنة واتخذوا بسكرة عاصمة لهم، كما كانوا يعملون في خدمة السلاطين ولحسابهم في الغزوات على غرار حرب المئة عام في أوروبا.

وكتب ابن خلدون عن هؤلاء البدو الشيء الكثير "لقد كانوا طائفة من القراصنة وقطاع الطرق، يهدمون عمارة بكاملها كي يقتلعون منها حجرا يسند قدرهم الموضوعة على النار. وإذا لزمهم بعض الحطب اقتلعوا السقوف لإحراق خشبها في النار".

وبين هؤلاء عاش ابن خلدون حيث استقر في بسكرة عام 1366 مع عائلته. وقد وجد أن سلاطين المغرب والبدو الهلاليين على صلة وثيقة، فالسلاطين بحاجة للرجال والبدو يحتاجون للمال. وأمضى في هذا الجو سحابة ثماني سنوات أي من عام 1366 وحتى 1372، وسطيا بين الجنود العرب والسلاطين البربر.

وكانت أسرة عبد الواحد البربرية تحكم تلمسان وقتئذ. وهي الوحدة التي لم يكن ابن خلدون قد عمل في خدمتها على ما أظن. ورفض الإقامة في تلمسان غير انه كان يتنقل بينهما وبين بسكرة باستمرار. ولم يكتف بتجنيد البدو لصالح الأسرة الحاكمة بل تولى بنفسه قيادة إحدى العصابات واشترك في معركة القطفة)وهي مرتفعات جبلية تقع على بعد 22 ميلا جنوب شرقي الجزائر.

وفي هذه المرة أيضا كان عاثر الحظ، فقد انقلب حاكم فاس المريني على حاكم تلمسان وأقصاه عن الحكم، فعمد ابن خلدون للتعاون مع الرابح كعادته وقاد معركة القطفة مرة أخرى لحساب الحاكم الجديد. وهنا بلغ أوج مجده العسكري.

وأثار نجاحه الكبير في أوساط البدو حفيظة احمد بن مزنة حاكم بسكرة. وكان ينوي التآمر عليه. وفي سنة 1372 غادر ابن خلدون بسكرة غير آسف. وأدرك أن أبواب السلطة أقفلت دونه وراح يعود نفسه على نسيان الملك سواء في مراكش أو تلمسان لينصرف كليا للأدب. و عامل السن وحده هو الذي دفعه إلى ذلك. واغلب الظن انه لو أصبح كبير وزراء المرينيين أو بويع بإمارة بسكرة لما كتب سطرا واحدا.

نزوعه إلى الاستقلال

كتب ابن خلدون مقدمته دون الرجوع إلى المراجع، وجميع مصادره كانت من بنات أفكاره. وكتاب المقدمة هو ولا ريب أهم مؤلفاته. لأنه نتاج من خبر الحياة وقد بذل نشاطا كبيرا. وهذا ما يجعل له قيمة فريدة. وجدير بالذكر هنا أن ابن خلدون لن يكن مواليا لأسرة واحدة، لهذا فليس كاتب بلاط يتصرف بعقلية موظف صغير. ولم يقدم خضوعه لأحد بل كان صديقا شخصيا للأمراء والحكام الذين عرفهم. ومن هنا انطلق نزوعه للاستقلال الفكري دون غير من أدباء عصره.

الروح النقدية

وبخلاف الكتاب الشرقيين يبدو أن لابن خلدون ذهنية غريبة من حيث الروح النقدية. ويرى من واجبه "استخلاص ما هو صحيح مما يبلغه من مراجع. لقد قرأ كثيرا جدا غير انه أدرك أن خبرته في الحياة والناس أمر لا يستغني عنه". ويقول"من صفات المؤرخ أن يكون ملما بشؤون الحكم، قادرا على تفهم الأحداث، مطلعا على تباين طبيعة البلدان، كي يتسنى له غربلة المراجع التاريخية التي تصل إليه". لذا يعتمد كثيرا على اجتهاداته الشخصية. وكمسلم مؤمن يختم كلامه بقوله: "والله اعلم".

غير انه لا يكتفي فيما يتعلق بالقضايا التاريخية بالتدقيق في الهوية الراوي فإذا كان من أهل الثقة صحت الراية وإلا فلا تصح، ويقول ابن خلدون أن المسائل التاريخية تختلف عن القضايا الدينية بحيث يجب البحث في النص نفسه والتأكيد من قيمته وإمكانية حدوثه.

وهكذا نراه يعمل العقل في ما، و بذلك يدخل عصر النهضة الذي عرفناه في أوروبا بعده.

الروايات غير المعقولة

من طبيعة العقل الشرقي القديم عدم تمييزه بين الأسطورة والواقع. وقد اصطدم الغربيون كثيرا بهذه الحقيقة حيث كانوا يتكبدون الكثير من المشاق للحصول على أمر مهم سمعوا عنه، وسرعان ما يفاجأون بأنه مجرد أسطورة.

وابن خلدون صادف أشياء كثيرة من هذا النوع:

منها أن الإسكندرية نزل إلى قاع البحر في قفص زجاجي لتحدي الوحوش البحرية، وتقول بعض الروايات أن لإحدى المدن القريبة من بحر قزوين عشرة آلاف باب. وأن إحدى المدن القريبة من صحراء عدن صنعت من الذهب والفضة والياقوت ولكنها تخفى على العين المجردة ولا يراها لا الإنسان المؤمن.

وتلتهب مخيلة الشرقي في وصف الآثار القديمة كقناة قرطاجة والأهرام وفي ذلك يقول:" كان لرجال ذلك العصر أجسام أضخم من أجسامنا وأعضاء أعظم من أعضائنا حيث أن احدهم كان يلتقط السمكة من أعماق البحر ثم يرفعها ليشويها على نار الشمس".

أراد ابن خلدون أن يقضي كتاب المبالغات والأساطير عن معشر المؤرخين ويحصرهم في باب "الرواة المحترفين". ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشف هذه المبالغات لدى كبار المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودي والبكري وليس فقط لدى الأسماء الصغيرة.

لغة الأرقام

ولا يكتفي ابن خلدون بتجنيب الروايات الأسطورية، فكانت له نظرة نقدية بالنسبة للأرقام. ويقول "علينا أن نتوقع الكثير من الكذب والمبالغة في ما يتعلق بكمية الدراهم وعدد أفراد الجيش"."و"علينا أن نحذر هذه الأرقام الخيالية التي لا نعثر على مثلها في تجاربنا اليومية". "ذلك أن الماضي والحاضر يتشابهان تشابه قطرتين من الماء".

مثال ذلك أن ابن خلدون لا يجاري المسعودي حين قدر جيش اليهود بستمائة ألف محارب. بينما يصدقه حين يروي بان تعداد جيش سليمان بلغ 12 ألفا من المشاة و1400 جواد.

الروح العلمية

ولابن خلدون إيضاحات مهمة تسبر غور الأشياء. فحين يتحدث عن الثراء الفاحش في مدينة القاهرة وفي بلاد الهند والصين، فانه لا يجاري العامة بان هذه الثروة تقتر على كنوز الذهب المتوفر في كل مكان "الذهب والفضة وسائل للحصول على الحاجيات ليس أكثر والعمران هو الذي يزيدهما أو ينقصهما". ويكون العمل بالتالي هو مصدر الثروة. والثرة الطائلة سببها كثرة الناس الذين ينتجون كثيرا. تلك هي مبادئ الاقتصاد السياسي الذي نعرفه اليوم. وإليك نظريته في الربح:" بوسعنا أن نفهم الربح حين ندرك معنى الفوائد التي يجنيها التجار والصناع نتيجة ما يبذلونه من نشاط".

بعده بخمسة قرون حدد مفكرون أوروبيون من أمثال باستيا وفردريك باسي رأس المال على انه شغل متراكم. ويكاد تحديدهما هذا أن يكون تحديد ابن خلدون ذاته.

حتى أن حس صاحبنا بالواقع بل نقول روحه العلمية قد حدت به للبحث في العلوم الطبيعية:"من الملاحظ أن الجبال قائمة على العموم في جوار البحار، ذاك أن القدرة الإلهية شاءت أن تضع حاجزا في وجه الأمواج". والعلم الحديث لا يعطي هذا التفسير اللاهوتي بالطبع، غير أن الملاحظة صحيحة جغرافيا.

نقد النصوص

إليك عبارة عظيمة المدلول على إيجازها. "هناك نصوص ينبغي على القارئ أن يتجنبها لأنه لا يستطيع أن يعرف إذا كانت قديمة صحيحة النسبة أو جديدة مختلفا عليها". وهذا ينم عن رغبة في التدقيق حول المصادر واستخلاص روايات المحدثين وتقصي مواقع الخطل. وكلها أمور تخص القرن التاسع عشر وليس القرن الرابع عشر حي عاش ابن خلدون.

الفهم

ويوجه ابن خلدون انتقاداته للمؤرخين القدماء يقول:"يذكر المؤرخون اسم الأمير والعائلة التي تحدر منها واسم أمه وأبيه وأسماء زوجاته ولقبه والكتابة المحفورة على خاتمة واسم كبير قضاته وخدمه ووزيره".

"تلك تفاصيل خلقية بكتاب خاص بالعائلة المالكة. حيث يحتاج أبناء الأمراء ومعاصروهم لمعرفتها، لكنها لا تخص التاريخ في شيء".

ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا وجبهم كاملا إذا ذكروا أسماء الملوك وسني حكمهم. في حين يرى بن خلدون أن معلوماتهم ترهات لا طائل تحتها.

فما هو عنى التاريخ إذن؟ لابن خلدون في هذا المجال رأي وضح: على المؤرخ أن يقارن بين السلالات الحاكمة من حيث سلطتها وغزواتها وان يصنفها حسب أهميتها النسبية وان يهمل سقط المتاع ويستخلص الخطوط الرئيسية.

ويذهب صاحبنا إلى ابعد من ذل. فهو لا يريد لقارئه أن يجهل الأسباب والمبررات. وفي نيته أن يوضح له لماذا عمدت هذه الأسرة لإظهار قوتها ولماذا اقتصر نشاطها على هذا المجال بالذات. ثم يريد أن يفسر نشوء الأوطان ويتعرف على أصول الأحداث وما تحمله من تشابه وتباين. و"بوسعي أن ادرس تاريخ الجنس البشري إذا ولجت إلى الحوادث الخاصة من باب المبادئ العامة".

أن خلدون يريد أن يفهم الأشياء. وهذه ميزة غريبة لديه.

المقدمة

تطالعك المقدمة بالكثير من التشابك. ففيها التاريخ والاقتصاد السياسي والفلسفة واللاهوت. فهل يمكن اعتبارها موسوعة ما هب ودب؟

كلا، فالمادة فيها منظمة، وأول ما يتبادر للذهن أنها كتاب في فلسفة التاريخ. وهي كذلك إلى حد ما، لان صاحبها يسعى لاستخلاص قوانين التطور البشري ليستعملها كقياس في فحص مصادره التاريخية وتأويلها. وإليك ما قاله في شرح أهدافه:

"الهدف المنشود ه بناء قاعدة أكيدة للتفريق بين النصوص الصحيحة وغير الصحيح. أي إيجاد آلة تمكنني من تقدير الأحداث بدقة. وذلك هو الهدف الذي سعيت إليه".

هذا هو العلم الجديد الذي وضع أسسه في مقدمته. "انه علم لا صلة له بالبلاغة أو فن الإدارة وليس له م فائدة إلا في البحوث التاريخية".

ويدعى هذا العلم الجديد بالنقد التاريخي كما يسميه الفرنسيون. ولنلاحظ كيف حاول ابن خلدون تحديده بذكر العلوم التي لا تشابهه.

كتب الغربيون في التاريخ دون أن يعرفوه نظرا لحسهم بالواقع وتعلقهم به منذ عهد الإغريق. ومجرد ذكر هيرودوتس يلفت انتباهنا لظاهرة بارزة وهي أن تاريخ إمبراطورية فارس من سيروس إلى دارا وقمبيز كله معروف بفضل المؤرخين اليونان. ولو اكتفينا

بكتابات المؤرخين الفرس لما عرفنا شيئا عنهم.

وابن خلدون وحده -بين الكتاب المسلمين- تطرق لنقد التاريخ. حتى الذين جاؤوا من بعده لم يأخذوا شيئا عنه وظل تاريخ المسلمين كما كان عليه قبله. لهذا يحتل صاحبنا مكانا فريدا من نوعه دون أن يكون قد عرف مؤرخ الغرب أو درس عليهم. فليس من المبالغة القول أن ابن خلدون قد اكشف بعبقريته علم التاريخ مرة أخرى بعد هيرودوتس.

4 – نمط التفكير لدى المؤرخين العرب

الشرق والغرب

كلما لاح لنا اسم ابن خلدون ننعته بالعبقري، لأنه هو وحده الذي ينبئنا عن العصر الوسيط غي المغرب. ففي تاريخ المغرب -كما يتراءى لمتوسطي الثقافة- ثغرة كبيرة تحول دون الإلمام بمجمله. أنها الهوة الفاصلة بين نهاية الإمبراطورية الرومانية والعصور الحديثة. ففي هذه الفترة نرى المغرب يغرد خارج سربه وكأنه فوق كرة أرضية أخرى، ارض المسلمين. غير أن وجود مؤرخ عبقري تحدث عنها ما يسد حاجتنا للعديد من المعلومات. ولم نستطع رغم ذلك أن نفيد من هذا الوضع قدر الإمكان نظرا للتباين بن العقل الغربيين وعقل الشرقيين. وسنسعى هنا ما استطعنا للإفادة من جميع ما وصل إلينا من مصادر متجاوزين هذه الصعوبة.

الترجمات

وضع البارون دي سلان ترجمة موفقة لمقدمة ابن خلدون، مكنت الغربيين من اطلاع عليها، غير انه لم يطلق اسم المقدمة بل استعار لذلك كلمة أخذها عن اليونانية فهو لم يألف مقدمات بهذا الطول. ثم إن البارون لحرصه على الأصل لم يتجنب الغموض في بعض الأحيان فكلمة عمران ترجمها بكلمة حضارة في حين أن ابن خلدون يحدد العمران بوضوح ويجد في قول الفلاسفة "الإنسان بطبيعته مدني" خير تفسير له. وقد اعتوا بذلك انه لا غنى للإنسان عن المجتمع. ولا أجد تطابقا كليا بين كلمة عمران وترجمتها إلى الفرنسية بكلمة حضارة. فكلمة مجتمع أو اجتماع أو تنظيم سياسي واجتماعي هي الموازنة لكلمة عمران. فالكلمات ليست متطابقة كل المطابقة في جميع اللغات. وليس خليقا بالمترجم أن يتقيد بحرفية النص الأجنبي إلى حد يضيع معه المعنى الذي ذهب إليه الكاتب. ولا ندعي على كل حال القرة على الإتيان بترجمة أفضل ولن وجب

التنويه بالمفارقات الموجودة في مدلول الكلمات بين لغة وأخرى.

والآن ما الذي يذكره ابن خلدون عن التاريخ الروماني القديم؟ لم يكن مطلعا إلا على خطوطه العريضة، فقد ذكر أن الإسكندر قتل دارا وان تيتوس استولى على القدس وان أرسطو هو أستاذ الإسكندر، كما سمع لماما عن سقراط. غير انه وقع في مغالطات عديدة إذ نسب لسقراط برميل ديوجين، ولم يميز بين الإسكندر تلميذ أرسطو وبين الإسكندر الافروديسي على الرغم من أن خمسة قرون تفصل بين الاسكندرين.

وإليك نظرته الخاصة لمجمل التاريخ القديم:

"كان الإغريق أصحاب الإمبراطورية وهم شعب أحرز تقدما كبيرا في العلوم الفكرية... بعد انهيارهم، انتقلت السلطة للقياصرة الذي اعتنقوا النصرانية ودافعوا عن تلك العلوم، تماما كما يحدث في قوانين جميع الشعوب".

وإليك كيف ينظر ابن خلدون إلى المغرب قبل الإسلام:" وجه الرومان أنظارهم نحو افريقية (أي تونس). وطمع القوط بمراكش، وركب هؤلاء البحر وانتقلوا إلى هذه البلدان واستولوا عليها...وأصبح لهم فيها مدن مكتظة بالسكان مثل قرطاجة وجلولة ومرنق وطنجة. أما الملوك الفرنج و(يقصد لاتين روما) فلم يمكثوا في بلاد البربر الوقت الكافي لتعودهم على حياة الاستقرار".

إلى أن يقول:"والفرنجة هم أصحاب اليد الطولي في أفريقيا، لان الروم -أي البيزنطيين) لم يكن لهم أي اثر هناك...وجريجر (غريغوار) الذي قتل أثناء المعركة لم يكن روميا (أي إغريقيا)، وإنما من الفرنجة (أي لاتينيا).

على أن ابن خلدون لم يتمثل جيدا القرون الخمسة للسيطرة الرومانية، لكن ذكرى قرطاجة لم تتبدد من ذاكرته: قبل الغزو الروماني "أعلن ملك قرطاجة الحرب على روما" ويضيف "دمر أمراء روما مدينة قرطاجة ثم أعادوا بناءها في ما بعد"

وقد ضاع الأصل السوري لهذه المدينة العريقة عند ابن خلدون في حين، نعرف عنها في الغرب الشيء الكثير.

ذاك أن الحجاب كثيف بين تاريخ كل من المشرق والمغرب وقد لاحظ ابن خلدون ذلك حيث قال:" يشكل الوثنيون معظم سكان الأرض...ولهم ممالكهم...وقد تركوا الآثار الضخمة من بعدهم...واثبتوا وجودهم في التاريخ ...وكان الجنس البشري موجودا إذن قبل ظهور النبوة".

لكنه يؤمن في الوقت نفسه بان الماضي قد ولى:" ماذا حل بعلوم فارس التي أتلفها عمر بعد الفتح العربي وكذلك بعلوم الكلدانيين والأشوريين والبابليين والأقباط والإغريق لولا أن المأمون قد أمر بترجمة بعض نتاجهم.

وابن خلدون مؤمن بان جميع الوثائق التي تعود إلى ما قبل الإسلام بعيدة عن مناله أو أنها أتلفت وضاعت إلى الأبد."

وهناك نلقي نظرة على ما نسميه تاريخ المغرب في العهد الإسلامي، لنجد أن الذاكرة لا تستطيع حصر الحوادث المتشبعة المتشابكة والحروب العديدة التي لا تعرف أسبابها ونتائجها في تلك الفترة. فما إن تقوم مملكة حتى تنهار وتنشأ على أنقاضها أخرى بدون سبب واضح أو نتيجة ملموسة. انه تاريخ خاو جاف بل أقول صحراء قاحلة. يعرف أولها من آخرها.

فنحن في الغرب نعتبر أن التطور يصنع التاريخ. والمغرب لا يتطور أو أننا لا نراه كذلك.

ولكن هل غربلنا جميع وقائعه وفسرناها؟ وهل الصلة مقطوعة فعلا بين الأحداث أم أننا لم نستطع العثور عليها؟ ابن خلدون عبقري المغرب الذي كتب في فلسفة التاريخ هو الوحيد الذي يستطع أن يحل بعض المشكلة.

المقدمة

إليك الأجزاء الرئيسية الستة كما يعرضها ابن خلدون في بداية مقدمته: يتناول الكتاب الأول العموميات، والثاني حياة البداوة والثالث فن الحكم والرابع حياة الحضر والخامس التطور الاقتصادي والسادس الحركة الفكرية لان هذه العناصر الثلاثة الأخيرة من معطيات الحياة الحضرية في حين أن الثلاثة الأولى ترجع لحياة البداوة.

فالمقدمة إذن مؤلف واسع يتناول التنظيم السياسي والاجتماعي كتبه مغربي لم يطلع قط على أرسطو وهو بعيد عن أفكار الغربيين وأساليبهم. وهذا لعمري شيء قيم ومهم.

فمفهوم الدولة هو النظام الملكي الشرقي ويتمثل هذا النظام بالانعدام الكلي أمام السلطان والاكتفاء بالولاء والمبالغة. "أنها مناسبة لتحية الملك حسب الطريقة المتبعة في بلاط كسرى، أي تقبيل الأرض بين يديه". على حد قول ابن خلدون.

انه نظام ملكي شخصي يحض على العداوة بين اقرب الأقارب.

وللملكية والتوحيد نفس المنطق في ذهنية الشرقيين. ففي السياسة كما في العلوم الدينية يعتبر النصارى من المشركين.

وفي المقدمة فضلا عن ذلك فصل مؤلف من سبعين صفحة يقول عنه:"انه يخص الذين يتمتعون بموهبة رؤية الأشياء غير المتطورة، وذلك بفضل الاستعداد الفطري أو ممارسة الطرق الدينية".

وليست هذه على كل حال من الأمور المستغربة لدى الشرقيين. فلا شيء يفهم في الشرق بمعزل عن الدين. وقد وصف ابن خلدون انتشار الإسلام وانحساره وكأنه إمبراطورية عسكرية. وفي المقدمة صفحات قليلة تتحدث عما نطلق عليه في الغرب اسم الديمقراطية. ولابن خلدون رأي خاص فيها لأنه لا يستطيع تصور الحكم الديمقراطي الذي نعرفه ولو كان ملكيا.

وقد ركز جل انتباهه على الحضارة وقضاياها. ويرى أنها على صلة وثيقة بحياة الاستقرار في المدن كما في بغداد والقيروان والقاهرة. ويلاحظ الرابط بين الازدهار الصناعي والتجاري وبين زيادة عدد السكان. ويرى أن النمو الاقتصادي يؤدي لخلق الرفاهية إلى جانب الثقافة العلمية والرقي الفكري. لكن الثروة هي التي تثير انتباهه بالدرجة الأولى:"فالقبيلة المقبلة على الملذات والترف تخلق لنفسها العراقيل وتسير في طريق الانهيار. والحضارة في رأي ابن خلدون هي حياة الاستقرار والترف...وطبيعة البشر الذين يتأثرون بحياة الاستقرار والرف تجسد اشر نفسه".

ونظرته هذه تناقض رأينا في الحضارة، لان صاحبنا لا يؤمن بالتطور ويرى أن الحياة سلسلة من البناء والهدم دون رابط أو ارتقاء.

في حين يمجد حياة لبداوة، ويعرب عن إعجابه برعاة الإبل وبالإبل نفسها وينوه بقدرتها وقدرة أصحابها على الجوع والعطش. ويمتدح البدو الأقوياء الذين لا تلين لهم عزيمة. فهم يمثلون الفضيلة الحربية والقوة وهم مصدر السلطة الوحيد وينبع التنظيم السياسي والاجتماعي، وهم الذين يكونون الارستقراطية الطبيعية على الأرض.

وهذا أمر طبيعي بالنسبة لرجل قضى حياته بين السلاطين الزناتيين والبدو العرب. فالزناتيون والبدو العرب كانوا أسياد المغرب في الحقبة التي عاش فيها ابن خلدون.

إن الوقائع الحية التي عاشها صاحبنا لابد وان تملي عليه النتائج التي يصل إليها. والواقع أن حياة البداوة هي التي ميزت التنظيم السياسي في الشرق. والبداوة هي التي تميز الشرق عن الغرب.

وهكذا نرى أن أوصاف الدولة الشرقية تنطبق على ملاحظات ابن خلدون فهي ملكية تستمد أسسها من الدين وتهدم الثقافة بمرور الزمن.

المفهوم البيولوجي للتاريخ

حين نطالع المقدمة بوسعنا أن نستخلص أفكار لم نصادفها في أي كتاب أخر. أولا يوجد فارق أساسي بين الشرق والغرب حيث أن للشرق ماضيا بشريا وان له تاريخا، أي مفهوما بيولوجيا في حين أن مفهومنا جغرافي؟

إن مصدر قوة البدو الرحل في رأي ابن خلدون إنما يمكن في عصبيتهم بحيث أن كل فرد منهم على استعداد لبذل حياته فداء للآخرين. وسرعان ما تتبدد هذه العصبية القبلية بفعل الحياة الحضرية. ويضيف قوله: إن صلات الدم هي التي تفرزها. "بحيث انك لا تجد عرقا أصيلا إلا لدى البدو".

من هنا نلاحظ الفارق بين المفهوم الغربي ومفهوم ابن خلدون. فنحن ننظر إلى الوطن على انه وقعة جغرافية ذات حدود. رقعة ثابتة نشعر بالغربة عند الابتعاد عنها. والتعليق بهذه الأرض شعور حضري. أما القبيلة فعلى العكس من ذلك لأنها مجموعة بشرية جاءت نتاج أجيال متعاقبة، ولا تحتاج للإطار الإقليمي في تحقيق وجودها وإنما هي عرق وفئة بيولوجية.

والروح العشائرية نموذج موسع للروح العائلية ويسودها رابط الدم وليس الصلة بالأرض. ويقول النبي: تعلموا أنسابكم. ويقول الخليفة عمر بن الخطاب: تعلموا أنسابكم ولا تكونوا كأنباط بابل حين يسألون عن نسبهم ويجيبون نحن من تلك القرية. ويعني ذلك نفيا واضحا لمبدأ رقعة الأرض التي يقوم عليها الوطن.

ومن الواضح أن الأنساب هي أساس الروح القبلية.

وهناك كاتب عربي معروف هو الكلبي متخصص بعلم الأنساب ولا نعرف من مؤلفاته سوى العناوين كما يقول دي سلان ومنها كتاب الجمرة وهو مجموعة كاملة للأنساب وابن الرقيق كاتب معروف أيضا وضع شجرة انساب القبائل البربرية.

وهكذا نرى بوضوح لماذا تحمل كل من القبائل العربية والبربرية اسما موحدا مثل بني هلال وغيره في حين أن الغربيين ينتمون إلى البلدان التي ولدوا فيها.

وإذا كانت التوراة قد قسمت البشر من حيث السلالة إلى الساميين وحاميين

ويافثيين. فنحن لا نتطلع إلى سام حين نتحدث عن الساميين. وحين نقول أننا أبناء يافث نكون قد عنينا كوننا أوروبيين.

ويقول ابن خلدون أن الشعوب البدوية من عرب وبربر تتميز بقوتها وصلابتها نظرا لأنها تتنقل بين بلد وآخر وتستطيع احتلال المقاطعة التي يحلو لها الإقامة فيها. ولعله يريد أن يقول أقوى الشعوب تلك التي لا أوطان لها.

غير أن هذه النظرة لا تتلاءم مع تفكيرنا كغربيين لأننا نجد تنافرا بين العنصر الجغرافي والعنصر البيولوجي. وهكذا نجد رأي ابن خلدون بعيدا عن الصواب في ما ذهب إليه من هذه الجهة.

ولا يميز ابن خلدون عالم الجغرافيا عن المؤرخ ويرى أن البكري والمسعودي ينتميان للطائفة نفسها:"كلاهما مؤرخ. لكن البكري صرف اهتمامه للحديث عن الطرق والممالك واغفل جميع الأمور الأخرى".

وإذا كنا في الغرب نرسم الأوطان بحدودها الجغرافية فان ابن خلدون يحددها بأسرها الحاكمة.

الأسرة الحاكمة والإمبراطورية هما بالنسبة للشعوب كالصورة بالنسبة للهيولى.

والقوة العددية هي التي تمنح الدولة الشرقية قوتها، وليس مساحتهم وحدودها الجغرافية.

عن اكبر إمبراطورية تأسست على يد البربر مثلا هي الإمبراطورية الفاطمية التي ضمت في حدودها مصر. يعني ذلك أن لقبيلة كتامة التي أنشأتها هي اكبر القبائل عددا وأغناها ثروة. فالقبيلة الظافرة كما ذكرنا هي التي تبني وتحدد الدول.

واستمرار الروح القبلية هو الذي يرسم مع الوقت حدود هذه الدول. غير أن كثرة الانتصارات تؤدي إلى انصراف الحكام لملذاتهم وتنهك قواهم مع الزمن.

ويرى ابن خلدون أن الإمبراطورية الواحدة لا تعيش أكثر من ثلاثة أجيال أي 120 سنة قبل أن يدركها الانهيار. وقد ينقص هذا الرقم أو يزيد على حد تقديره لكن النتيجة واحدة فالدول كالأفراد تولد وتشب وتشيخ قبل أن تموت. وليس هذا تشابها مستعارا عنده وإنما يصر على تأكيد صحته علميا. من هنا مفهوم البيولوجي للتاريخ بخلاف مفهومنا الجغرافي له.

ويرى صاحبنا أن المدينة لا يمكن أن يعيش بعد زوال الدولة التي أنشأتها؛ ذلك حال فاس وبجاية. في حين نرى بدورنا أن مصير المدينة إنما هو منوط بظروفها الجغرافية وهي قابلة للبقاء آلاف السنين.

ونحن نتطلع إلى العراق وسوريا ومصر على أنها دول شرقية قديمة لمجرد أن لها حدودا جغرافية.

ويرى ابن خلدون أن مصر بقيت لان سلطانها عاش في اطمئنان تام، في بلد لا يحب أهله العصيان. ويقول عن دولة الفرس: كانت هذه الدولة قائمة حتى قهرها العرب، فانهارت ولن تقوم لها قائمة بعد الآن. وغني عن الإيضاح ما يتضمنه هذا الرأي من خطأ. فنظرتنا ليست نظرة ابن خلدون لأنه يعني بالفرس كما يعني بالفاطميين والموحدين، سلالة حاكمة تقف وراءها قبيلة. وهو محق من ناحية واحدة، فأين الملوك الساسانيون مثلا؟ لكننا نتطلع إلى فارس على أنها حدود جغرافية قائمة مهما تغيرت الأحوال والظروف والأسر. وعين ابن خلدون لم تكن من القدرة بحيث تستطيع تسجيل الواقع الجغرافي.

من ناحية أخرى يرى صاحبنا أن حراثة الأرض من دلائل التقهقر، في حين نرى أن الزراعة هي عماد مجتمعنا الغربي. والواقع أن الفلاح لم يكن محترما في الغرب زمن ابن خلدون، لكن صاحب الأرض كان يحمل اسمها ويفجر بامتلاكها.

خلاصة

خليق بنا أن نعترف هنا بان نظرة ابن خلدون البيولوجية للتاريخ لها ما يبررها، فالإنسان كائن حي والبشرية سلسة من الأجيال المتعاقبة ومن المستحيل أن نبعد التاريخ عن هذا الواقع.

غير انه من الخطأ الجسيم أن نربط مصير الدول بمصير الأسر الحاكمة، فنحن حين نتطلع إلى وادي الفيزير ندرك بأنه بانيه هو إنسان البوشمان الذي يعثر عليه اليوم إلا في جنوبي أفريقيا، ومع ذلك نقول: أن الذين عاشوا على أرضنا منذ آلاف السنين هم أجدادنا.

وليس بإمكاننا على كل حال أن نتوصل هنا لنتيجة حاسمة في هذا المجال كما في الرياضيات مثلا. ولكن إليك ما نود أن نخلص إليه:

إن ابن خلدون حين يحدثنا عن تاريخ المغرب، ينطلق من مفهوم بيولوجي أو سلالي

سائد لدى الشرقيين. فإذا ذكر قبيلة زناتة مثلا، نراه يخصص فصلا للجيل الأول الذي ينتمي إليها وآخر للجيل الثاني وهكذا دواليك.

ولو شاء مؤرخ غربي أن يتحدث عن تاريخ النومنديين على غرار ابن خلدون لقال عن سكان النرويج أنهم السلالة النورمندية الأولى وسمي سكان النورمندي السلالة الثانية ولكان أهل صقلية السلالة الثالثة. لعمري أن تصنيفا من هذا النوع سيحول دون فهمنا لتاريخ هؤلاء فهما صحيحا.

فليس بمقدورنا أن ننظر للتاريخ بمعزل عن الإطار الجغرافي الذي ألفناه.

فهل نستطيع أن نعيد لتاريخ المغرب إطاره الجغرافي اللازم، علنا نعثر بالنتيجة على صلة الوصل بين الأحداث المبعثرة؟

الكتاب الثالث

ما لا يستغنى عن معرفته من تاريخ المغرب القديم لتنسيق تاريخ العصر الوسيط

أثر قرطاجة

تلك كانت باختصار المصادر التي بحوزتنا للاطلاع على تاريخ العصر الوسيط الأول لبلاد المغرب: كانت لامع جدا هو ابن خلدون وآخرون مجهولون تقريبا على غرار مؤلف روض القرطاس. غير أن لهم جميعا ذهنية شرفية بمعنى أن مفاهيمهم لا يقابلها الغربيون بدون تأويل. فضلا عن أنهم عاشوا جميعا بعد العصر الوسيط الأول. فأبن خلدون وكاتب القرطاس ينتميان للقرن الرابع عشر وكذلك النويري. وحده عبد الحكم عاش في القرن التاسع.

أما البكري العالم الجغرافي فينتمي للقرن الحادي عشر واليعقوبي الجغرافي الآخر عاش في القرن العاشر.

هكذا نرى أن جميع ما وصل إلينا من معلومات لم يأت عن طريق أناس عاصروا الأحداث وإنما جاؤوا بعدها.

غير أن المؤرخين العرب كانوا مقبلين على المكتبات. ولا شك أنهم استهلكوا من قبلهم ولم يحصل بينهم تناقض. الأمر الذي يسهل مهمتنا في إيجاد منطلق للبحث. ولكنما الصعوبة في ربط هذه الأحداث وفهمها.

ومن عادة المؤرخين أن يوجزوا الكلام عن العصر الوسيط الأول بينما يسهبون في الحديث عن العصور التي عاشوا فيها. فكيف لابن خلدون الرجل الذي عاش نهاية القرن الرابع عشر أن يتطلع إلى المغرب القديم في القرنين الثامن أو السابع حين كانت البلاد خاضعة لتأثير المسيحية؟ خليق بنا هنا أن نلقي نظرة على التاريخ القديم لتتضح أمامنا بعض الشيء معالم المغرب في العصر الوسيط الأول. ولا نود بذلك أن نسرد التاريخ القديم لكننا نهدف لاستخراج الأحداث الخفية في تلك الحقبة. فهي ترشدنا إلى طريق العصر الوسيط المتقدم الذي لم يعن به احد.

عليه سنتوغل في البحث حتى بلغ الماضي القديم زمن قرطاجة.

قرطاجة

في متناولنا تاريخ مستفيض عن هذه المدينة وضعه المؤرخ غيزل لسنا بصدد تلخيصه وإنما سنعمل على إكماله في هذا الكتاب الصغير مشددين على عهد سيطرة قرطاجة على افريقية، وهو العهد الذي كان سببا في ازدهارها الطويل.

ومن واجبنا أن لا نغفل اثر الفينيقيين في أفريقيا والمغرب ذلك الأثر الذي دام نحو ألف عام أي بمعدل ضعفي عمر الإمبراطورية الرومانية وذلك في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثاني عشر قبل المسيح وسنة 146 ميلادية السنة التي دمرت فيها قرطاجة.

فهل يعقل أن يمر حدث كهذا الحدث الضخم دون أن يترك أثرا في الحوادث التي تلته؟ !

يحدثنا المؤرخون أن الغزاة الرومانيين حرثوا رقعة قرطاجة وزرعوها ملحا. إعرابا عن عزمهم الأكيد على إزالة أثارها من الوجود. ولكن هل يمكن محو شعب من الوجود محوا تاما كما كنا نظن في عهد الدراسة؟ إن إرادة الهدم لا تكفي لمحو الشعوب. ويبدو من غير المعقول مبدئيا أن يكون اثر قرطاجة قد زال نهائيا بعد الاحتلال الروماني.

على أنها قضية تطرح، وعلينا أن نبحث عبر الحوادث التاريخية عن الحلقة المفقودة التي تربط قرطاجة بالجزائر وتونس مرورا بالعصر الوسيط الأول.

كلمة أفريقيا

اسم أفريقيا لابد وأن يثير الانتباه. حيث انه كان يطلق في البداية على قرطاجة ومناطق نفوذها قبل أن يشمل القارة بأسرها. ففي زمن الحروب البونية كان المؤرخون اللاتين يطلقون اسم افري على المواطنين القرطاجيين. وكان السكان الثائرون يسمون باسم قبائلهم منهم المور والبربر وليس الأفارقة. فالإفريقي هو المواطن القرطاجي. وأفريقيا الاسم الرسمي للمقاطعة المحيطة بقرطاجة في عهد الرومان وهي مستقلة إداريا عن نوميديا وموريتانيا. وكان العرب يطلقون على تونس التي نعرفها اليوم اسم أفريقيا. لهذا يربط المستشرقون كلمة أفريقيا بأصل سامي أصبح بالعربية "الفرق".

ويرى سلان أن الكلمة الفينيقية التي تحولت باللاتينية لإفريقيا تعني القطيعة أو الجزء وهي المقاطعة التي تنفصل عن الوطن الأم.

أما غيزل فلا يعير انتباها لهذا الأمر. على أن كلمة أفريقيا ليست لاتينية وإنما أخذت من اللغة البونية.

ويبدو لي أن بقاء الاسم مع مرور الزمن يعني توفر عناصر معينة لاستمراره.

مملكة قرطاجة

كانت صور وصيدا وجميع المدن الفينيقية واقعة على شاطئ البحر. وموقعها هذا ذو دلالة ولا شك. ويقول فيدال دي لابلاش أن هذه المدن عبارة عن جزر صغيرة أو شبه جزر باليابسة برزخ يسهل الذود عنه. ولم تكن قرطاجة غريبة عن هذا الطراز. ويحدثنا المؤرخون عن المصاعب التي كان يصادفها الغزاة في حصار المدن الفينيقية، حتى الكبار منهم من أمثال الإسكندر الكبير وسبيون اميليان لم يستطيعوا الاستيلاء عليها بسهولة. ولم تكن المواقع الداخلية لتهم الفينيقيين إلا بمقدار ما تؤمن لم زبائن لتجارتهم، فجميع أنظارهم متجهة إلى البحر، وهنا يحق لنا التساؤل إذا كانت قرطاجة مدينتهم قد أحدثت أثرا عميقا في بلاد المغرب.

علما أن قرطاجة احتلت مكانة خاصة في حضارة الفينيقيين، وليست مدينة عادية على غرار صيدا وصور، وإنما كانت من الأهمية بحيث قضت مضجع الإمبراطورية الرومانية بجيوشها وأسلحتها وقائدها هنيبعل.

ناهيك بأن سوريا والمغرب لا يتشابهان. فلم يكن لصور وصيدا ظل من السيطرة على الأراضي المجاورة لملكتي مصر وأشور العظيمتين، في نفس الفترة كان المغرب مجموعة من الشعوب شبه المتوحشة استطاعت قرطاجة السيطرة عليها بفضل تفوقها التنظيمي والثقافي.

ولما بلغ الإغريق الحوض الغربي للأبيض المتوسط وجدوا المستعمرات الفينيقية قائمة قبلهم ولاسيما على الشاطئ الإفريقي. فقد استحوذ المغرب على انتباههم قبل كل شيء، وأصبحت قرطاجة عاصمة له. وظروف سقوطها شاهدة على ذلك. وكانت الحرب البونية الثالثة حرب إبادة إرادتها روما كرصاص الرحمة. ليس لمجرد الحقد القومي وحده كما تصور لنا الكتب المدرسية ولكن هناك سببا أعمق كما يقول غيزل. لقد دمرت روما قرطاجة لتحول دون استيلاء مسينا عليها وتجعل منها عاصمة لها.

ويدل كلام هذا المؤرخ على أن قرطاجة لم تسع لابتلاع المغرب ولم تنهج سياسة السيطرة على المناطق الريفية رسميا كما فعل الرومان. غير أنها فعلت فعلها في تلك المناطق عن غير قصد وهذا أمر طبيعي بالنسبة لجميع الشعوب.

وعلى طول الشاطئ كانت المدن الفينيقية التابعة لقرطاجة تتوالى واحدة بعد

الأخرى كحبات السبحة. فعلى شاطئ سرت شرقي قرطاجة جرى التعرف على عشرين مدينة. ولم يسلك القرطاجيون في تلك المدن مسلكا عنصريا بل على عشرين مدينة. ولم يسلك القرطاجيون في تلك المدن مسلكا عنصريا بل تمازجوا بسكانها الأصليين عن طريق الزواج. واحدث تعلم اللغة المنتظمة والتعرف على حضارة جديدة أثره البعيد في نفوس هؤلاء السكان وتعدى هذا الأثر المناطق التي كان القرطاجيون يسيطرون عليها. وكانت اللغة البونية اللغة الرسمية للملوك النوميديين وشاع استعمالها في عاصمتهم سرتا.

بعد سقوط

جل ما يهمنا من تاريخ قرطاجة معرفة الأثر الذي أحدثته هذه المدينة في بلاد المغرب، والاطلاع على ما خلفته فيه بعد زوالها، وبودنا تركيز الانتباه على عهد سقوطها بغية رأب الصدع بين أفريقيا البونية وأفريقيا الرومانية؛ وواضح اثر قرطاجة في هذه البلاد. فذا كانت المدينة نفسها قد اندثرت فان المدن الفينيقية الأخرى التي أوجدتها لم تزل من الوجود.

وقد درج علماء الآثار على اعتبار النقوش المكتوبة باللغة القرطاجية والتي ترجع لعهد ما بعد قرطاجة -آثارا بونية جديدة. وتكثر هذه النقوش في تونس وشرقي الجزائر.

وهناك أمثلة عديدة من آثار وتسميات تاريخية تدل على عنق الأثر الذي تركته في بلاد المغرب. ولكن يصعب تحديد الفترة التي ظل فيها هذا الأثر ماثلا فيه.

ويخلص غيزل لنتيجة واضحة فيقول: "ذكر القديس اغسطينوس أن اللغة البونية في عصره كانت منتشرة في الأرياف. ولم يكن الفتح العربي بعيدا عن تلك الفترة. الأمر الذي مكن اللغة العربية من الحلول محلتها كما حلت الآرامية محل الفينيقية في فينيقيا قبل ذلك بعدة قرون. ومن السهل القول إن البربر اقبلوا على اللغة العربية نظرا لتشابهها مع اللغة البونية.

هذا لعمري أمر مهم جدا. فلأول مرة يخلص عالم من هذا الوزن لنتيجة كهذه دون أن تبلغ آذان الكثيرين. لا بل قابلها المستعربون بكثير من الفتور لأنهم لا يرون أي شبه بين العربية والبونية.

ولسنا الآن بصدد التعليق على كتاب غيزل لاسيما وانه يشير إلى أن الحقائق التي أوردها معروفة قبله وقد ذكرها جاسينيوس مثلا. ولكن من الذي يقرأ جاسينيوس؟ بودنا

على كل حال أن نتقصى جميع الحقائق المتعلقة بتاريخ المغرب ولا بأس إن أنعمنا النظر في كل ما نصادفه من وثائق.

سبتيموس سفيروس

يبدو لي أن مراجعة الوثائق الخاصة بسفيروس من شأنها إلقاء الضوء على موضوعنا. فالكل يعلم بأنه إمبراطور روماني عظيم، استتب في عهده الأمن والنظام. وقد ولد بلبدة في قلب سرت البونية ولولادته في هذا المكان بالذات مدلول هام.

جميع المراجع التاريخية على اختلافها أبرزت حياة سبتيموس سفيروس. فقد كان أفريقيا بكل معنى الكلمة، عنى بشؤون القارة أيما عناية. وأدرك معاصروه بوضوح مدى حبه لكل ما هو إفريقي. وهو إذا أمر ببناء هيكل ضخم فلكي يبهر أنظار القادمين من روما أو الذاهبين إليها بطريق أفريقيا. ولم يكن الإمبراطور شرها في مأكله ومشربه وكان يؤثر تناول الفاكهة، نتخيله يأكل التمور وهو جالس على عرشه. ويقول المؤرخ سبارتيان: انه حسن اللفظ ولكن كلامه لا يخلو من لكنة افريقية، أي لكنه بونية.

أما شقيقته فكانت اقل اتقانا للاتينية. سبب ذلك أنها نشأت في عائلة ارستقراطية بلبدة حيث كان النساء يتكلمن اللغة البونية دون غيرها. أما الرجال فلم يستطيعوا التخلص من لهجتهم الإفريقية. ويحدثنا سبارتيان عن الزواج الثاني لسبتيموس فيقول:

بوفاة زوجته الأولى بحث في الأبراج- وكان مولعا بعلم التنجيم- فوجد أن هناك امرأة سورية كتب لها أن تصبح ملكة فاقترن بها. فكانت جوليا زوجته الثانية.

واهتمام سبتيموس بالتنجيم دليل أخر على طبيعته الشرقية. فقد تخلى عن جميع حسان بلاده ليقترن بامرأة سورية من ضفاف نهر العاصي.

واحتفظ سبتيموس بجوليا على الرغم من فضائحها وتآمرها عليه. وهذا أن دل على شيء فعلى عمق الصلة بين ذاك القرطاجي وتلك الفينيقية.

لقد عثر سبتيموس على ضالته بأحاسيس شرقية ونمط تفكير شرقي. حتى اللغة الآرامية التي يتحدثون بها في سوريا كانت قريبة من اللغة البونية.

ثم إن الإمبراطور كركولا ابن سبتيوس من جوليا، نصب في أرجاء مملكته عدة تماثيل لهنيبعل، فيا له من آثار عظيم لم يكن هنيبعل ليحلم به.

نذكر أيضا بيتا من الشعر قاله جوفنال يعزز عملية الثأر هذه: "لزمان طويل مضى أصبح العاصي رافدا من روافد التيبر".

بيد أن الأثر الحقيقي الذي أحدثه الشرق في روما يفوق ذلك بكثير. فإذا كانت بلاد الإغريق قد أثرت في عاصمة الرومان من حيث الثقافة والتفكير فان الشرق قد طبع الغرب بطابعه. فالمسيحية انبثقت من الشرق واعتنقها الغرب. ونشأت إمبراطورية شرقية جديدة لها عاصمة أشهر من أن تعرف هي القسطنطينية.

ومع الإمبراطور هليوغوبال حفيد سبتيموس سفيروس دخلت العربة الشرقية التي تجرها ستة جياد بيضاء إلى ارض الرومان. كان ذلك عام 218 بعد مرور سبع سنوات إلى وفاة سفيروس. ثم إن كركولا تزوج على غرار أبيه من امرأة سورية من عائلة جوليا أمه. أراد بذلك أن يخلق لنفسه جوا عائليا شرقيا. حتى أن مؤامرات الحريم كانت سائدة كما في الشرق. أو لم تدفع جوليا ابنها كركولا لقتل أخيه جيتا؟

صحيح أن هناك سابقة آغريبين أم نيرون. ولكن مضى عليها مئة وأربعون عاما. ناهيك بأن قتل الأشقاء ومآسي الحريم في الممالك الشرقية من الحوادث العادية التي ترافق تغير العهود.

سبتيموس سفيروس هو الذي حمل تأثيرات الشرق إذن. وهليو غوبال سار قدما في تطبيق رسالة جده.

كذلك كانت الشراكة بين فينيقيا وقرطاجة. وقد دامت طيلة ثلاثة قرون ونصف القرن بعد سقوط مدينة هنيبعل.

وأود أن أوضح هنا نتائج كهذه تقرأ بين السطور في كتب المراجع التاريخية الموجزة عن تلك الحقبة من حياة المغرب.

القديس اغسطينوس

بعد ذلك بقرن واحد نقل إلينا القديس اغسطينوس من القرن الخامس الميلادي أن اللغة البونية كانت سائدة في رعيته. وكان هو أسقفا لمدينة هيبون أي بون (عنابة). وقد تحدث عن شيوع هذه اللغة بصورة غير مباشرة في رسائله ومواعظه. ولا افهم رغم كل هذا عزوف المستعمرين عن ملاحظة الشبه بين العربية والبونية.

وقد كتب القديس اغسطينوس للبابا سلستيان مطالبا بتعيين أسقف لرعية

فوسالا وهو مكان يبعد نحو ستين كيلومترا عن بون ولم يعثر له اليوم على اثر ويقول في وصف مرشحه لهذا المنصب ويدعى انطونيوس انه يحسن اللغة البونية.

وفي رسالة أخرى وجهها اغسطينوس إلى كريسبان أسقف جيلما الذي دعا أبناء ماباليا إلى الهرطقة يقول: "تدعي بأن المابالين قد أيدوك بملء إرادتهم. إذن تعال نعي نتحدث إليهم ونسجل كلامنا خطيا. ويتولى المترجم نقل حديثنا إلى البونية".

وفي رسالة إلى منافسيه الأسقف ماكروب يقول اغسطينوس أن احد المترجمين قد نقل كلام الأول إلى البونية كي يفهمه أهالي المدينة.

ويقول أيضا في إحدى عظاته: في بلادنا عدد من الفلاحين الهراطقة بل أقول كان هناك بعض منهم ولكنهم تضاءلوا تدريجيا. أنهم أهل هابيلون. وهو اسم بوني مأخوذ من اسم هابيل ابن آدم.

وكان اغسطينوس شديد الاهتمام باللغة البونية. وغليك بعض ما قاله في خطبته رقم 157. "هناك مثل بوني -أورده لكم باللاتينية لأنكم لا تعرفون اللغة البونية- يقول المثل: إذا طلب الطاعون إليك درهما فأعطه درهمين ودعه يذهب". يود اغسطينوس أن يوجد صلة بين المثل وقول الإنجيل: "إذا أراد احد أن ينازعك ويأخذ جبتك منك فأعطه الجبة والمعطف فوقها". ولكن هناك فارقا كبيرا بين المعنيين. وبيت القصيد ليس هنا على كل حال. فالقديس اغسطينوس يسعى لإثبات القرابة الشديدة بين بلاده وبين البلد الذي ينتمي إليه الإنجيل. بغية المزيد من التأثير في نفوس سامعيه.

وفي مجال آخر يشرح القديس الاختلاف بين الصوت والكلمة أي بين الكلمة والفكر. ويرى أن الفكرة تبقى دائما كما هي والكلمة وحدها تتغير. "فلكي يفهمنا الإغريقي علينا أن نلجأ للكلمة اليونانية وكي يفهمنا اللاتيني علينا بكلمة لاتينية وكذلك علينا بكلمة بونية حتى يفهمنا البوني" وهكذا وضع اللغة البونية في مصاف أهم لغتين عرفتها الإمبراطورية. وهما الرومانية واليونانية. وما كان له أن يأتي بهذا القول لو لم يوجه حديثه لأناس يولون اللغة البونية أهمية قصوى.

مرة واحدة فقط نعثر على كلمة بونية في تراث القديس اغسطينوس. ويروى عن فاليريوس احد أسلافه انه كان يصغي ذات يوم لبعض الفلاحين يتبادلون الحديث بالبونية طبعا. وسمع كلمة لاتينية هي الجرس: "سالوس" وسأل عن معناها فقيل له أنها تعني بالبونية "ثلاثة" فتبادر إلى ذهنه الثالوث المقدس ولاحظ الشبه بين كلمة سالو التي تعني الخلاص وثلاثة التي تشير إلى الثالوث. لان الثالوث هو الخلاص. على أن الشبه واضح

بين ثلاثة العربية ومرادفتها اللاتينية. وتشديد اغسطينوس على التشابه اللغوي مع البونية دليل آخر على اهتمام الجمهور بهذا اللغة.

ولم يكن فاليريوس على كل حال فقيها في اللغة البونية، شأنه شأن القديس اغسطينوس رغم مولده الإفريقي. لكن الرعية لم تخل من رهبان يتقنونها.

ويقول اغسطينوس: كان الفلاحون حين يسألون عن أصلهم يجيبون بأنهم شنانيون أي كنعانيون. فمعاصرو القديس كانوا يعون صلتهم بالفينيقيين. على أنهم بونيون بالدرجة الأولى، ومعظمهم لا يفهم اللاتينية.

على أن القدماء لم يعيروا اهتماما للغة وكل ما ورد عنها عند اغسطينوس جاء نتيجة خلاف مذهبي بين الفرق الدينية، على الرغم من أن تراث هذا الفيلسوف الإفريقي قد وصل إلينا برمته نظرا لأهميته الدينية. وإذا كانت هذه هي الحال في عنابة فلم لا تكون كذلك في تونس حيث كانت البونية منتشرة في عهد سفيروس.

في القرن الخامس وصل الفنداليون إلى أبواب هيبون (عنابة) وتوفي اغسطينوس أثناء الحصار. وتلاشت الإمبراطورية الرومانية ولم يسبق مجيء العرب سوى بعض الغزوات الفندالية والبيزنطية. ولكن ما الذي حل باللغة البونية؟ هناك مؤرخ آخر يجيب على سؤالنا واعني بروكوبيوس الذي جاء بعد اغسطينوس بزمن طويل.

بروكوبيوس والمؤرخون العرب

ذكر بروكوبيوس أن أهل البلاد كانوا يتكلمون اللغة البونية. ويعني بهؤلاء المغاربة الذين عاشوا بعيدا عن قرطاجة. الأمر الذي يدل على أن البيزنطيين عثروا عند قدومهم على اللهجة البونية في الأرياف. مر قرن من الزمن دون أن تتغير لغتهم هذه.

ويأتي كلام بروكوبيوس في سياق نص مسهب يقول فيه: يعود ذلك إلى الوقت الذي استولى فيه العبرانيون على بلاد كنعان، وقد تولى قيادتهم بعد وفاة موسى يوسف ابن نافيه. "في تلك الحقبة كانت فينيقيا تضم جميع البلدان الساحلية الممتدة من صيدا إلى مصر. وحين شعر الفينيقيون بعظمة هذا القائد هجروا بلادهم إلى مصر ثم قصدوا بعد ذلك إلى افريقية (المغرب) واحتلوها بأكملها حتى أعمدة هرقل" ثم ترد هذه العبارة: "كان أهل البلاد يتكلمون البونية حتى ذلك الوقت".

ويضيف بروكوبيوس: "في مدينة تجيزس عمودان من الحجر الأبيض بدوار نبع ماء عذب نقس عليهما بالفينيقية: "نحن الذين هربنا من قاطع الطرق يوسف ابن نافيه".

وقد جرى التعرف على مدينة تجيزيس على بعد نحو خمسين كيلومترا جنوب شرقي قسنطينة في مكان يطلق عليه اليوم اسم عين وبرج. وفيه نجد النبع الغزير الذي ذكره المؤرخ. أما العمودان فهما بونيان وأما الكتابة فلا يتفق معناها وترجمة بروكوبيوس. وليس بالإمكان فهمها الآن لان اللغة البونية قد اندثرت كلغة مكتوبة ولم يبق منها سوى اللهجة العامية. ويضيف بروكوبيوس: بعد ذلك، وجد الفينيقيون الذين هاجروا برفقة ديدون جالية من أبناء جنسهم وأسسوا قرطاجة بالاتفاق معهم. لكن القرطاجيين أقصوا الجالية القادمة من فلسطين وهم الذين نسميهم اليوم مغاربة وأرغموهم على الإقامة بعيدا عن المدينة.

وناقش المؤرخ غيزل هذا القول. لان هناك أسطورة شعبية نشأت عن بقاء اللهجة البونية حية في السهول الإفريقية يتداولها الفلاحون الذين سموا أنفسهم كنعانيين. غير أن هذه الواقعة استرعت انتباه المعاصرين في القرنين الخامس والسادس في الوقت الذي كانت فيه قرطاجة نفسها قد أصبحت لاتينية.

وبدت السهول البونية والمدينة القديمة التي فقدت طابعها البوني وكأنهما كتلتان متباينتان، واغفل الناس كل الصلات التاريخية التي تربطهما فنشأت الأسطورة في أذهان أبناء الشعب. تلك هي النتيجة التي استخلصها غيزل وهي عين الحقيقة. غير انه اكتفى بهذا القدر من التعليق، وهناك شرح مهم أورده المؤرخون العرب حول نصوص بروكوبيوس ويتناول المواطنين المغاربة الذين كانوا ينسبون أنفسهم للكتاميين والصنهاجيين، وتنطبق أوصافهم عل من نطلق عليهم اليوم اسم القبائل وكانوا يدعون المغاربة في الماضي.

يقول المؤرخون العرب أن الكتاميين والصنهاجيين من أصل شرقي وليسوا من البربر وهم ينتمون للحمريين. ولكن من هم هؤلاء الحمريون؟ قبل المسيح بعشرة قرون أو عشرين وحتى القرن الخامس الميلادي كانت تقوم في جنوب غربي الجزيرة حول عدن حاليا مملكتا حمير وسبأ وكانتا عنوان الازدهار والثقافة العربية في العصر القديم. وقد سمي البحر الأحمر باسم الحمريين لأنهم كانوا مسيطرين عليه وعلى المحيط الهندي أيضا من الناحية التجارية. فهم أرباب التجارية البحرية بين الهند والحوض الشرقي للأبيض المتوسط، وهم فينيقيو البحار الشرقية. وقد الحميريون في الآثار المصرية البون. وتغنى العرب كثيرا بهم، فقد كانوا مدعاة لفخرهم قبل مجيء النبي.

وإليك ما أورده ابن خلدون عنهم: قام افريقوس بن قيس بن صيفي بحملة على افريقية

أدت لسحق البربر. وافريقيوس هو الذي أعطى البلاد اسمها ومنه يتحدر الصنهاجيون والكتاميون.

عاش ابن خلدون في القرن الرابع عشر. فلابد من تأثره بالمؤرخين القدماء. وأسطورة افريقوس تناقلتها الأجيال بين مؤرخ وآخر حسب المفهوم العربي التقليدي للتاريخ.

ويورد ابن خلدون نقلا عن مالك بن مرابط أن البربر ينتمون لقبائل مختلفة من أصل حميري ومصري وقبطي وكنعاني وقريشي تجمعوا في سورية وكانوا يتحدثون البربرية. وأطلق افريقيوس عليهم اسم البربر لفرط ثرثرتهم.

ويضيف نقلا عن المسعودي والطبري والسهيلي أن افريقيوس كون جيشا لفتح افريقية، وكان وراء الهجرة إليها. ويروى انه قال بيتا من الشعر بما معناه: كان الشعب الكنعاني يبرير كلما أرغمته على الهجرة من بلاد بائسة إلى بلاد زاخرة بالخير.

ويقول ابن الكلبي انه لا اتفاق على اسم الرجل الذي ابعد البربر عن سورية. فبعضهم يقول انه داود وبعضهم يقول يوسف بن نوح وآخرون يقولون افريقيوس.

ويبدو هنا أن أسطورة بروكوبيوس قد استعادها العرب فحل افريقيوس محل يوسف والحميريون محل الكنعانيين. لكن ذكر يوسف والكنعانيين لم يزل من الوجود. ففي مقاطعة وهران لا تزال تقوم قبة كان يوسف يقدسها وقد درسها رينيه باسيه. وهي آخر اثر بقي من تلك الأسطورة. ولا أظن أن المؤرخين العرب قد عرفوا بروكوبيوس ولكنهم اطلعوا على الأسطورة من مصادرها.

والمستعربون مطلعون ولا شك على ما أورده ابن خلدون. ولم يجدوا صعوبة في التوصل إلى أن افريقيوس اسم لغير مسمى وان الحميريين لم يصلوا إلى المغرب حتى بطريق البحر أو البر أيضا. وليسوا بحاجة لإثبات ذلك، فالأسطورة لا تحتاج برهانا لعدم تصديقها.

غير أنهم لم يطلعوا على نص بروكوبيوس. ولم يشك الدارسون الكلاسيكيون بما أورده ابن خلدون. ولم يبلغني انه قد جرت مقارنة بين النصين. وهذا دليل آخر على عدم وجود مبرر للفصل بين الدارسات الشرقية والدراسات الكلاسيكية.

لان كلا من هذين النصين ينير واحدهما الآخر ولا يمكننا أن نفهمهما كل الفهم ما لم نقارب بينهما. وصحيح أن المؤرخين العرب والبيزنطيين قبلهم لم يتمتعوا بالروح العلمية ومزجوا بين الأساطير والواقع ولكن قد يكون للأسطورة نفسها منطلق واقعي.

وبروكوبيوس أفصح لنا عن ذلك حين قال: أن أهل البلاد كانوا يتكلمون البونية. وهذا تفسير للأسطورة التي أوردها ابن خلدون فكلاهما من مصدر واحد. ونخطو خطوة إلى الإمام عندما نستنتج أن العرب حين غزوا افريقية وجدوا فيها اللغة البونية، ولكنها ليست بالخطوة الكافية على كل حال.

إن عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش، فكم شاع لديهم أن ينسبوا الذكريات التاريخية الفينيقية والبونية إلى أصل حميري. وإليك مثالا على عدم الدقة أورده مؤرخ اسباني نقلا عن مؤرخ عربي قصد الحديث عن لعمدة هرقل:"ثلاثة تماثيل، اصفر واخضر واسود نقش على صدر واحد منها ما يلي: "صنعها أبرهة ذو المنار الحميري لإلهته الشمس خطبا لودها." ولنلاحظ أن صورة الشمس وخطب ودها تذكرنا بالأعمدة البونية التي لا نزال نعثر عليها حول قرطاجة حتى اليوم.

أو ليس من الأرجح إذن أن يكون المؤرخون العرب قد فكروا بحمير التي امتلأت أذهانهم بها واغفلوا قرطاجة البونية التي لم يكتشفوا ودودها قط؟

الخلاصة

يبدو لي رغم نفي المستشرقين أن المغرب قد احتضن تحت الرماد طابعه البوني كما حمل الأثر القرطاجي طيلة عهد الإمبراطورية الرومانية وفي زمن الفنداليين وفي ظل السيطرة البيزنطية. واعتنقت قرطاجة الإسلام بكل ما فيها من استعداد شرقي تبلور من جديد.

وقد حافظت أفريقيا في عهد الإمبراطورية الرومانية على نوع من الشخصية الدينية: فعطارد وسيلست (السماء) معبودا افريقية الرومانية صنوان لبعل هامون وعشتروت قرطاجة. ويضيف غيزل قوله: أن الإفريقيين طبعوا بالروح البونية لإيمانهم بالديانة البونية. وقد وضعوا الآلهة في مرتبة فوق مراتب البشر.

وعرفوا مشاعر لم يعرفها الإغريق واليونان وإنما عثروا عليها في الإنجيل: هذه المشاعر هي الخضوع لمشيئة الرب. وكانوا جميعا في المدن والقرى يعبدون بعل الذي حمل اسم عطارد وقد وضعوه في المرتبة الأولى بين الآلهة قبل سيلست. وهذه خطوة في طريق التوحيد. ولعنا نحتاج العودة إلى المعتقدات القرطاجية لنفهم السهولة التي انتشرت بها المسيحية في افريقية. لننظر مثلا إلى تمثال تانيت أو سيلست المعروض في متحف العلوي بتونس: أنها الأم الآلهة تحتضن وليدها وتقدم إليه ثديها. والى جانبها صورة سيلست على نحو مختلف تماما. فهي عبارة عن رأس لبوءة فيها علماء الآثار على

ساخيث الآلهة المصرية. وفي هيكل الكرنك تحتل ساخيث هذه إحدى الكنائس الثلاث إلى جانب كنيستي الأب والابن. وقد أوضح لي المرحوم لوجران مدير الحفريات بأن ساخيث شبيهة بالعذراء. وهنا أرى أن غيزل على حق في اعتباره أن الفينيقيين لم يعبدوا الثلاثية الفينيقية الشرقية، حتى أن معبد سياجو خصص لعبادة الهين هما بعل وتانيت وليس لثلاثة آلهة. على أن الآثار الموجودة في المتحف العلوي تشير إلى عمق المشاعر الدينية لدى الإفريقيين قبل أن يعرفوا المسيحية. حتى أن بعض العادات القديمة قد انتقلت إلى الإسلام على نحو الحجاب الذي نسميه اليوم كف فاطمة. والهلال نفسه يشير إلى تانيت.

وقد اشرنا في السابق للصلة بين الهرطقة واستمرارية الحياة البونية في الأرياف وما حل بين الاتجاهين من نزاع دموي. وهذا أن دل على شيء فعلى عنق المشاعر الدينية عند الإفريقيين.

والقديس اغسطينوس نفسه إفريقي في تشدده الديني وتمسكه بمذهبه. ومسلمو المغرب في أيامنا هذه ينتمون للمذهب المالكي وهم معروفون بتشددهم وصلابتهم في مجال العقيدة الدينية. ويمكننا أن نقول مع غيزل في نهاية الجزء الرابع من كتابه: أن قرطاجة القديمة قد ساهمت في إعدادا البربر لاعتناق الديانة الإسلامية.

ويقدم لنا غيزل دلائل أخرى على هذا النحو حيث يلاحظ أن القرطاجيين ارتدوا اللباس الشرقي وهو عبارة عن جلباب فضفاض بدون حزام وقبعة تأخذ شكل الرأس. وهذا ما يطلق عليه اليوم اسم الغندورة والفاسي. ولم يتوقف عند صورة من قاموس "ريش" القديم تثير انتباه الجزائري إذ تمثل معطف السفر الذي تنطبق أوصافه كل الإنطاق على البرنس الذي نعرفه اليوم في شمالي افريقية. وكانوا يطلقون عليه في ايطاليا اسم بنولا وهو تحوير لكلمة بينا وتعني المعطف. وليس أدل من هذا اللباس على البرنس المغربي.

ثم إن السمة الخارجية متقاربة بين مغربي اليوم وسلفه حتى لو لم تكن قصة البرنس صحيحة. فالقناع هو نفسه وهناك شبه في الشعر القصير المختبئ تحت القلنسوة وكذلك باللحية الطويلة التي كانت تصبغ حين يلتهب فيها الشيب، وكذلك في الوجه المتبرج. واغلب الظن أن الحناء والكحل يعودان لأيام قرطاجة.

وعادات قرطاجة شرقية شأن لباسها. ويرى غيزل أن الختان الفينيقي لم يكن معروفا لدى القرطاجيين بدليل أن النصوص أغفلت الحديث عنه، وليست هذه حجة كافية. ومن

المؤكد أن هؤلاء عرفوا خشوع الشرقيين الأمر الذي أدهش الإغريق والرومان، كما أن لحم الخنزير كان محرما عندهم.

وقضية العائلة ووضع المرأة أمران مهمان ولا ريب. وما من هوة أعمق من هذه الهوة بين الشرق والغرب. وليست لدينا بكل أسف أية معلومات عن العائلة القرطاجية، ولم يذكر غيزل سوى امرأتين لم تكونا في عداد الحريم هما سفونيسيا واستروبال زوجة آخر قائد قرطاجي.

وخليق بنا هنا أن نشير لنقطة مهمة تتعلق بوضع المرأة الشرقية الذي لم يتفهمه الغربيون. فصحيح أنها تعيش منعزلة، لكنها تحافظ على وضعها كامرأة. وقد يكون رغم جهلها أكثر اندفاعا وعنفا وشدة من المرأة الأوربية. وكلنا سمع بمكايد الحريم. وقد عثرنا في عائلة سبتيموس سفيروس وتلاحمها نوعا من الشبه بين العائلة البونية والحريم.

من حيث نمط التفكير أيضا، نلحظ تباينا بين الفكر القرطاجي والفكر الغربي رغم ذكاء القرطاجيين وعلمهم وثقافتهم. فقد استخدموا طاقاتهم من اجل الحصول على المكاسب والثروات وإبعاد الهواجس الدينية. ولم يعنوا بالعلم والصناعة والفن والأدب والتاريخ أي بكل ما يمت للفصول الفكري بصلة.وما كنا لنعرف شيئا عن تاريخهم الذي دام ألف عام لولا بوليب وتيت ليف وهما مؤرخان من أعدائهم.

لقد جابوا البحار بسفنهم فبلغوا الجزر البريطانية وداروا حول افريقية ولعلهم سبقوا فاسكو دي غاما بنحو ألفي عام ولم يذكروا شيئا عن ذلك شأن المنقبين عن المناجم يحافظون على سرية اكتشافاتهم. تلك هي الروح الشرقية التي مضت على هذا النحو منذ أقدم العصور.

وما العداء المستحكم بين روما وقرطاجة، وإقدام الأولى على السعي لمحو الثانية من الوجود سوى تعبير عن هذا التنافر الفكري بين نمطين للتفكير متضاربين.

ولكن أنى لروما أن نستطيع إلى ذلك سبيلا وهي لم تنقل الكثير من الدم الايطالي لتلك البلاد. وبقيت البونية لغة التفاهم في الأرياف كما رأينا. وان كان سكان المدن قد تعلموا اللاتينية.

ولكن ما الذي خلته قرطاجة من روحها وتفكيرها ومشاعرها بعد كل ذلك؟

انه أمر لا يمكننا إغفاله وان صعبت الإجابة عليه.

بمتناولنا عملة عربية سكت في أفريقية على الطريقة البيزنطية مؤرخة في سنة 97 هجرية كتب عليها: "لا اله إلا الله محمد رسول الله" أنها اثر من أثار شعب حضري عرف الصناعة بدليل إتقانه سك العملة كان قد اعتنق الإسلام بانتظار تعلم العربية.

وفي زحمة الغزوات والانتصارات والهزائم والمجازر التي تميز بها الفتح العربي في المغرب تتبادر إلى أذهاننا واقعة واضحة: جميع المعارك الكبرى كانت باتجاه طنجة وتياريت (تيهرت) وحول الاوراس. والقيروان محطة القوافل العربية سقطت واسترجعت وتعرضت للسلب والاحتراق وإعادة البناء. ولم تظهر المدن الرومانية في تونس إطلاقا. وفي تاريخ الكاهنة ملكة البربر وهي حقبة سنعود إليها مرة أخرى نجد أن لاتيني افريقية من تجار ومزارعين غرقوا في البربر أعداءهم التقليديين وليس في الخلافة العربية.

وبعد لن كانت القيروان قلب البلاد النابض لفترة قصيرة عادت قرطاجة إلى سابق مكانتها. وأصبحت تينس أي تونس اليوم بمثابة ضاحية من ضواحي قرطاجة. ومن الغريب حقا أن تونس لم تعد في تاريخها كونها سلطنة عربية. وحين اضمحل نفوذ الخلافة في المغرب وبرزت الممالك المحلية في أنحاء البلاد نشأ في افريقية (تونس) حكم عربي أسسه إبراهيم بن الأغلب عامل الخليفة. وأمر "الدايات" حكام تونس الآخرين يثير الاستغراب حقا فهؤلاء رغم أصلهم التركي انصهروا مع أهل البلاد وتعلموا كغيرهم اللغة العربية ليصبحوا سلاطين تونسيين كأسلافهم. ذاك أن تونس حفيدة قرطاجة عرفت دائما كيف تؤقلم حكامها.

وهكذا يكون الفتح العربي في المغرب والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وضع خاص، ليس في تونس وحدها بل وفي الأندلس أيضا. وتعتبر قرطبة وتونس مهد الحضارة الإسلامية منذ القدم. ولم تحتل فاس مكانتها إلا في وقت متأخر بعد أن ورثت قرطبة وغرناطة. ذاك أن افريقية قرطاجة والأندلس بلدان عريقان ثقافيا وهما الوحيدان في المجال الإسلامي بالمغرب. على أن العنصر الذي لعب دوره هنا هي فترة ما قبل الإسلام وما هيأته لاعتناق الديانة الجديدة.

وإليك أيضا ظاهرة جديدة من نفس النوع لم يشر إليها احد على ما أظن: ففي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط نقطتان استتب فيهما الإسلام اعني الأندلس وصقلية. وهما البلدان الوحيدان اللذان حل بهما الفينيقيون والقرطاجيون قبل الفتح الإسلامي. ولسنا هنا بصدد البحث في الاستعداد النفسي للشعوب من الناحية الاتنولوجية، والجسر القائم بين قرطاجة والإسلام إنما هو من باب التاريخ الوثائقي.

وأيسر ما يثير انتباهنا في زحمة الصراع بين الشرق والغرب في بلاد المغرب انهيار النفوذ اللاتيني والمسيحي في افريقية. على عكس ما جرى في بلاد الغال حيث تركت روما أثرا لا يمحى. لقد اختارت "غالية" العرب في حين اتجه "المغرب" بكليته نحو الشرق.

وإذا استعرضنا الشخصيات التي أنتجتها افريقية للغرب وجدنا أنها ثانوية على العموم على غرار أبولي الكاتب البوني اللغة والذي تعلم اللاتينية في وقت متأخر. وفرنتون معلم مارك اوريل وترنتيوس آفير. وكذلك من أمثال القديس اغسطينوس الذي يشذ عن القاعدة نظرا لأهميته البالغة في العالم الكنسي والقديس سبريان. ناهيك بإمام الهراطقة ترتليان وبالإمبراطور العظيم الشأن سبتيموس سفيروس.

أما بلاد الأندلس فقد عرفت سينيك ولو كان وتراجان.

لقد اختلفت افريقية عن بلاد الغال لأنها حافظت على نواتها البونية. تلك النواة التي بذرتها أقدم حضارة في الأرض.

وفي معظم أنحاء المغرب، يتحدث الناس لغة سامية قريبة إلى العربية. كما يرتدون ثيابهم ويزينون شعورهم ويفكرون ويشعرون على الطريقة الشرقية منذ ثلاثة آلاف سنة. وهو واقع يلقي الكثير من الأضواء.

عهد السيطرة الرمانية: دراسة حول السكان

وقائع بارزة حول السكان والمجتمع في إفريقية الرومانية وإفريقية المسيحية

لا تعنينا تفاصيل الحوادث التاريخية المتعلقة بعهد السيطرة الرومانية بقدر ما يعنينا التطور السكاني والاجتماعي في المغرب طيلة ستة قرون من الحكم اللاتيني.

وليس المؤرخون القدامى حتى أفضلهم قادرين على إعطائها فكرة عن السكان والتطور الاجتماعي. ولا ادري مدى أهمية دراسة النقوش والكتابات وغيرها من أنواع الدراسات وغيرنا أطول باعا منا فيها.

غير أن لدينا من المعلومات حول اختفاء الفيل وظهور الجمل وهما ظاهرتان متلازمتان على جانب من الأهمية كبيرة من شأنهما إلقاء الضوء على التطور الاقتصادي عند السكان البربر.

جزيرة المغرب كما يسميها العرب معزولة بفعل البحر والصحراء. ولا يمكن للحيوانات أن تبلغها من الأصقاع الأخرى إلا ضمن ظروف خاصة جدا. وظهور الحيوانات واختفاؤها فجأة يدلان على تغيرات مفاجئة لابد وان تثير اهتمامنا. ولكي نجعل من فكرة وجود الفيل المغربي فكرة مقبولة، علينا أن نضع ذلك الوجود في إطاره الطبيعي، أي أن نجعل الفيل من الحيوانات المقيمة في المغرب في ذلك الزمن.

الكوبرا

كلنا سمع عن أفعى الكوبرا الشهيرة ولاسيما عند الحواة الهنود. والكوبرا حيوان مصري في أصله، عثر عليها في النقوش القديمة تزن رأس الملك أو الإله.

والكوبرا حيوان تونسي وجزائري أيضا. وكثيرا ما يصادف السائح في القيروان مثلا حاويا يلاعب حيته وسط جمهرة من الناس. وكم أثار هذا المشهد فضول المصورين والرسامين.

أما في الجزائر فقد شاهدت عام 1916 حية من نوع الكوبرا في مؤسسة باستور، كان ذلك بعد إقامتي ست عشرة سنة في البلاد. إنها حيوان عظيم يبلغ طوله المترين وتفوح

منه رائحة الوحوش. وكانت الأفعى تنفخ بشدة كلما تعرضت للإثارة. ولونها داكن جدا. لكنني لم أر فيها تينك العينين الكبيرتين كما تمثلها الصور الأوروبية.

على أنها من حيوانات النادرة. يطلق عليها السكان المحليون اسم الثعبان وهي الكلمة العربية الفصحى كما يسمونها أيضا النعجة. ويرى دوفرييه أن هذا الاسم يطلق على أنثاها فقط. وجدير بالذكر أن الكوبرا تدعى ناجا حسب تصنيف علماء الحيوان.

ولا توجد الكوبرا في التلال حيث المناخ قارس، ولا في الأماكن الجافة في الصحراء على ما يبدو. ويمكن العثور عليها في بسكرة وفي فجويج. وهناك أقوال ثابتة تنبئ عن وجودها في غزارة وواحة سبأ. ويعرف جنود الصحراء الجزائريون هذا الأفعى جيدا وقد قتل احد الضباط واحدة منها شمالي تيمون. ويلوح أن مكانتها المفضل في منخفضات الأوراس حيث تتوفر الحرارة والماء.

وفي جنوبي مراكش حواة كثيرون يروضون الكوبرا. لكن التونسيين سبقوهم إلى ذلك. ويكثر وجود الكوبرا في مناطق الشطوط بين بسكرة وقابس جنوبي تونس وعلى الحدود الجزائرية. ويتحدث الرواة عن قبيلة بسيل التي كانت تعيش مع الأفاعي في تلك المنطقة دون أن تخشى لدغها. وكان الآباء يجمعون رزمة من الثعابين يرمون في وسطها أبناءهم غير الشرعيين. ولا يتحدث غيزل الذي ذكر هذه الحوادث عن إمكانية وجود علاقة بين هذه القبيلة والحواة الحاليين. على انه ليس من السهل الربط بين جيلين يفصل بينهما عشرون قرنا من الزمن.

والكوبرا على صلة وثيقة بمناطق المياه. ففي العطايا بجوار بسكرة يتجنب الناس الاغتسال في النهر لأنه يعج بالأفاعي. ويؤكد جنود الصحراء في بني عابس أنهم شاهدوا أفعى في بئر بدوارة كانت لاصقة بجدارها تتربص للعصافير والحجال التي ترد الماء.

ويروي بعض المبعوثين إلى منطقة فجويج أنهم ذات مرة كانوا ينتشلون دلوهم من البئر فعثروا على كوبرا اتخذت شكل الإناء. ورد هذا في تقرير رسمي. كنت مستعدا لعدم تصديق الخبر لو لم أشاهد بنفسي في معهد باستور أفعى اتخذت شكل الإناء الزجاجي الذي وضعت فيه وهو على هيئة الدلو. وتستطيع هذه الأفعى أن تمكث عدة أسابيع وسط الماء فهي حيوان مائي. والأمر عادي بالنسبة للأفعى الهندية أما بالنسبة للكوبرا الصحراوية فليس الأمر عاديا أبدا.

ومن المعروف أن هذا الثعبان يهاجم الإنسان. وكم تحدثنا الكتب عن مطاردة الأفاعي

للبشر في بلاد الهند. وفي بسكرة يروي الناس قصة رجل طاردته الكوبرا مسافة طويلة لكنه استطاع قتلها بالبندقية قبل فوات الأوان. وفي غرارة يروي احد القادة انه خاض معركة عنيفة مع الأفعى انتهت بقتلها. حين ادخل سيفه في احد الثقوب.

وكانت ناجا مؤسسة باستور تدفع رأسها إلى الإمام بقوة كلما لاحت لها صورة رجل جاء يتفرج عليها.

أما اسمها فرهيب. وتحدثنا الكتب عن عشرات الآلاف من الهنود يموتون سنويا بسم الأفاعي.

أما في المغرب فلا يخشون الكوبرا ولم يسمع احد عن رجل قتلته هذه الأفعى والحية ذات الأجراس هي التي تمثل النوع المخيف في بلاد المغرب.

ذلك أن ذات الأجراس متوفرة جدا أما الكوبرا فنادرة ولها خصائص مختلفة. فليس لونها اغبر رمليا شأن الأفاعي التي تعيش في الشمس. بل هو داكن لأنها تعيش تحت الأرض في مواطن الماء.

ولا شك أن هذه الأفعى قد تنقلت كثيرا في أصقاع الأرض. ففي مصر مثلا يبرر بقاءها وجود النيل. ولكن كيف لها أن توجد في بسكرة؟ لا نستطيع أن نفهم الأمر ما لم نتصور وقوع كارثة جغرافية استطاعت الكوبرا أن تقاومها بمعجزة. وهي إذن من الحيوانات التي نجت من الكوارث مع من نجا.

الأسماك

هناك أنواع أخرى من الحيوانات المائية لابد وان يثير التساؤل وجودها في الصحراء. ففي منطقة قسطنطينة جرى حفر الكثير من الآبار الارتوازية وفي معظم الأحيان كان السمك يشاهد وسط الماء المتدفق. بعضه صغير جدا والبعض يبلغ حجم السمك الأحمر.

ويكثر وجود هذه الأسماك في واحة الزاب وفي وادي غير. تحت أقدام النخيل حيث تنساب أقنية الري الكثيرة وتنساب معها هذه الأسماك في المياه الصافية. وكذلك نجدها مسلوقة أو مقلية على موائد سكان تلك الواحة.

وفي البداية قوبل الحديث عن وجودها في الآبار الارتوازية بالاستهجان التام. لكن مراقبين موضوعيين من أهل الثقة قد شاهدوا بأم أعينهم هذه الأسماك القادمة من باطن الأرض.

على أنها ليست شبيهة بحيوانات المغاور التي تفقد بصرها في الظلمة الدائمة، فهي ذات عيون سليمة لا تختلف عن أشباهها الموجودة في الواحات.

ونحن لا نعرف طريقة جريان الماء في باطن الأرض وإنما لنا أن هذه الأسماك تتسرب إلى الباطن وتعود إلى السطح، وهكذا تقضي أيامها موزعة بينها.

من هنا نراها تثير انتباهنا، لاسيما وان جانبها أنواعا أخرى لا توجد إلا في المتوسط كالحنكليس والبوري وقلما يعثر على السمك النهري.

ولم يشاهد سمكة من هذا الأنواع في شمالي هدنة، فالأسماك تلك مقرها النيل. وفي حوض المياه بالقاهرة ثلاثة أجنحة مخصصة لأسماك يعثر عليها في التشاد والنيجر وهي من النوع السوداني. ويلوح أنها غريبة عن وادي غير. وقد برهن المقدم كوفيه الذي عنى بتربيتها أنها تحتاج لوسط حار. وقال انه فقد إحداها حين ابتلعت دودة باردة.

السلور

وقد عثر كوفيه في نفس المنطقة على نوع آخر من السمك الاستوائي من طائفة السلور. وهو سمك كبير يبلغ طوله الخمسين سنتمترا له زعانيف عظيمة تجعله مخيف المنظر. ويعيش في توجا وهي واحة غربي بسكرة ولو يشعر احد بوجوده هناك قبل 15 يوليو 1915. لأنه يعيش في مستنقعات على شكل فوهات بركانية اقرب لتكون آبارا ارتوازية كانت من صنع الإنسان. وعثر على أول سمكة في مستنقع عين الزرقا في الجزائر. ويبلغ قطر هذا المستنقع 60 مترا بعمق أربعين تقريبا تنبع منه مياه ارتوازية. فيها يعيش السلور مختبئا. ويقول المقدم كوفيه أن لهذه السمكة جهازا إضافيا للتنفس يمكنها من التنفس خارج الماء حين تجف المستنقعات التي تعيش فيها.

التمساح

قبل عام 1915 تم العثور على السلور. كان ذلك على يد دوفرييه الذي أتى بعينة منه لمتحف الحيوان ونشر صورة له سنة 1864. وقال انه عثر عليه بطريقة الصدفة في وادي تيخاملت بعد أن جرفته المياه القادمة من تسيلي. وجميع البعثات العلمية التي عملت في بلاد طوارق الهجار وفي واحة غات شاهدت هذا السمك. فهو متوفر بكثرة هناك وله عدة أنواع.

والملجأ الطبيعي لهذا السلور في وادي المهيرو، وهو مكان عظيم الأهمية لان فيه عثر لأول مرة على تمساح وسط الصحراء.

وقد تحدث دوفرييه الذي عودنا على أمانة معلوماته عن هذا التمساح أيضا. وقال انه لم يشاهده بنفسه لكنه حصل على معلومات دقيقة تؤكد وجوده. "كان يثير الرعب في القطعان حين ورودها إلى الماء، ثم أن آثار الجروح التي شاهدتها بأم العين في جسم بعض الرجال الطوارق قد أزاحت كل شك في وجود هذا الحيوان. ويقول الطوارق عنه انه يعيش طيلة الشتاء مختبئا في المغاور تحت المياه ويأتي إلى الشواطئ في الربيع. وفي فصل الإخصاب تطلق إناثه صيحات أشبه بصوت الجمال الهائجة".

وأكد رواية دوفرييه مكتشف الماني يدعى اروين دي بادي. غير انه مات في الطريق، ولكن مذكراته وصلت إلى أوروبا. قصد هذا من غات إلى وادي منيرو حيث سمع الطوارق يتحدثون عن التماسيح وجد في البحث عنها لكنه لم يستطع إدراكها وإن أكد انه شاهد آثارها.

وظل التمساح الصحراوي في مجال الشك حتى سنة 1910, حين اصطاد الكابتن نيجر تمساحا من وادي مهيرو واعده ونقله لمختبر فلامان بجامعة الجزائر ثم نقل مرة أخرى إلى مختبر تروسار في باريس على ما أظن. واعتبره الباحث بلغران من تماسيح النيل.

ولكن ما من حيوان لم يصدق الناس وجوده في بلاد الطوارق أكثر من هذا التمساح, ذلك لأنه نادر الوجود هناك.

و لنشر هنا إلى أن تمساح تسيلي لم يعد فريدا في الصحراء. فقد عثرت بعثة تلهو في الندي على " خزان يحتوي تماسيح صغيرة ".

وليس وادي ميهرو بالمكان المعروف, ولكن العلماء اخذوا صوره وحددوا موقعه بالبوصلة, وهو بالطبع واد جاف شأن جميع الوديان الصحراوية غير انه يقع في تربة شديدة الرطوبة تكثر فيها ثقوب المياه .

وهذا الوادي عبارة عن مجرى نهر جفت مياهه, غير انه حافظ على جميع تعرجاته بوضوح. و الغرغر أشهر الجاري من هذا النوع حيث يمر بوادي غير وفي منطقة الشطوط الكبرى تحت بسكرة .

موت نهر

في المجلة العلمية رواية مفصلة عن موت احد الأنهار. وهي عبارة عن وصف تجراه شاهد عيان في جنوبي أفريقيا من الجهة الشمالية لبلاد الترانسفال. والنهر رافد لنهر آخر هو لمبوبو. ويقع في منطقة غنية بالمياه والخضرة تكثر فيها المزارع والمراعي. وقد جف

بصورة مفاجئة بين 1913 و1914. ويروي احد المزارعين بدقة كيف أن الصحراء غزت النهر وهو أمر من شأنه أن يلقي ضوءا موضوعنا.

عجب المزارع لاختفاء التماسيح بعد أن كانت تملأ المكان. وفي احد الأيام بينما كان يحفر ثقبا في الرمل بحثا عن الماء عثر على عمق متر ونصف المتر على تمساح صغير يبلغ طوله المتر وقد بدا له ميتا. كان ملقى فوق الرمال الرطبة، وجسمه مبلل بالماء. وعثر بجواره على بعض الأسماك.وعادت هذه الحيوانات إلى الحركة بعد أن صب عليها الماء. لقد خرجت من نهر قتلته الصحراء.

نبات مراكش وحيوانها

تعتبر منطقة الشطوط جنوبي تونس مكانا مختارا للحيوانات المقيمة ذات الأصل الاستوائي.

ويلوح أن في مراكش الأطلسية أيضا مجموعة من النباتات والحيوانات التي لا توجد إلا فيها ويعود مصدرها إلى افريقية الاستوائية.

ولم تجر حتى الآن دراسات وافية حول هذه النباتات والحيوانات الباقية. ولكن لابد لها أن تسترعي انتباه المشاهد. هناك نبتة الفربيون التي تحتل مكانا بارزا بين نبات المغرب وهي كثيرة الشوك وتشبه نباتات المكسيك. لكنها لم تستورد من أمريكا منذ وقت قريب فكلمة الفربيون معروفة في اللغة البربرية المراكشية منذ ألفي سنة. وابرز حيوانات المغرب الأطلسي الدجاج الفرعوني وهو من أصل استوائي وقد عرفه الرومان جيدا. وفي جنوبي جبال الأطلس يعيش الزنوج بأعداد كبيرة. ولا يعثر على هؤلاء في مكان آخر ما عدا الصحراء الكبرى طبعا. وساء كانوا من الجرمنتيين كما يقول دوفريبه أم لم يكونوا فان بإمكاننا اعتبارهم من بقايا الإثيوبيين الذين استوطنوا البلاد منذ آلاف السنين أو من السودانيين القدامى.

وليس الزنوج كل ما بقي من ارث السودان في المغرب الأطلسي فهناك أيضا الأكواخ المخروطية الشكل الموجودة في افريقية الاستوائية.

وهناك ظواهر عديدة أخرى تستوجب التحليل، لكن ما وصلنا إليه حتى الآن من شأنه أن يقودنا لبعض الاستنتاجات الواضحة.

إن منطقة الشطوط تمت ولا شك بصلة لمجرى الغرغر، النهر الذي كان طريقا للاتصال بين السودان والأبيض المتوسط. ويسهل علينا التصور أن مراكش الأطلسية كانت على

صلة بالمناطق الاستوائية. وإذا كانت الصحراء الغربية مجهولة لاسيما في منطقة ريو اورو الاسبانية، فان اثر المحيط على الساحل المراكشي لا يستهان به. وعلى طول الشاطئ الصحراوي حتى السنغال، نرى أن اثر المحيط قد حج من الجفاف وساعد على هجرة الأنواع الاستوائية باتجاه الشمال.

الفيل القرطاجي

لعلنا أسهبنا في الحديث عن أنواع الحيوانات الاستوائية التي حافظت على بقائها في المغرب. ومن الواضح أن الأسماك والتماسيح والدجاج الفرعوني ليست على علاقة مباشرة بموضوعنا، ولكنها تسمح لنا بالتعرف على نوع آخر ذي أهمية تاريخية كبرى ألا وهو الفيل.

كلنا يعرف فيلة قرطاجة، وقد قرانا عنها في الكتب المدرسية التي حدثتنا بإسهاب عن الحروب البونية نقلا عن تيت ليف. وفي ذكرياتنا الأدبية نعرف رواية سلامبو جيدا، حيث تبقى صورة القائد الأعور الذي يمتطي صهوة الفيل ماثلة في أذهاننا.

ولكن لم ينبئنا احد عن المصدر الذي جاءت منه هذه الفيلة. فنحن نتمثلها في إسطبلات هملقار وفي سفنه تنتقل مع جيشه الجرار، ونغفل أنها كانت متوحشة ذات يوم تعيش في البراري الإفريقية على قضم السنديان والمصطكي والعرعر.

فمن الثابت أن الفيل القرطاجي مواطن أصلي في البلاد، وكانت قطعانه ترتع في جبال الأطلس قبل تدجينه. ويتفق العلماء والدارسون حول هذه الناحية لكنهم لم يعمموا استنتاجاتهم على الناس.

والفيل القرطاجي يهم طائفتين من الدارسين، علماء الحيوان والمؤرخين. وغني عن البيان أن كل فئة منهما تعمل لحسابها الخاص بسبب كثافة الجدار الذي يفصل الآداب عن العلوم. أما علماء الحيوان فهم متفقون مع علماء الآثار. وقد عثر علماء الحيوان على الهيكل العظمي للفيل القرطاجي، ولاسيما على أنيابه ذات الطابع المميز وخلصوا إلى نتيجة واضحة، فلا يوجد على سطح الكرة الأرضية سوى نوعين من الفيلة، الفيل الإفريقي والفيل الهندي. وتعود الهياكل العظمية التي عثر عليها في بلاد البربر إلى النوع الإفريقي.

الكرنك الهندي

اغفل أسلوب الكتب المدرسية أهمية الإمبراطورية الإغريقية في الشرق، تلك الإمبراطورية التي عرفت عهد الإسكندر الكبير والسلوقيين والبطالسة. وبقليل من الانتباه ندرك أنها دامت ثلاثة قرون في حين تتوقف الكتب المدرسية عند موت الإسكندر وكأن الإمبراطورية عاشت بضعة شهور فقط. خلال هذه القرون الثلاثة أتيح للفيل الهندي لأول مرة أن يبلغ عالم البحر المتوسط. ويتحدث اللاتين والإغريق عن "هندي" كلما ذكر الفيل القرطاجي.

يروي لنا بوليب انه تم الاستيلاء على عشرة فيلة بهنودهم. ويروي في مكان آخر أن الرومان استولوا بعد هزمة استروبال على أربعة فيلة بدون هنودهم. ويروي أيضا انه حين كان هنيبعل يقطع الرون غاصت الفيلة في النهر لكنها رفعت خراطيمها فوق الماء فنجت من الغرق ومات هنودها.

وهكذا نلاحظ التلازم بين الفيل وراكبه بالنسبة للقدماء.

لقد استعانت قرطاجة بخبرة الهنود في تربية الفيل وترويضه لكنها لم تستخدم فيلة الهند.

الفيل الليبي

قبل السلوقيين بنحو قرنين أي قبل تدريب الفيل الإفريقي على القتال ذكر المؤرخون أخبارا عديدة عن هذا الحيوان: فقد سمع هيروتس عن وجود الفيلة في نوميديا غربي بحيرة تريتون (الجريد) كما شاهدها حنون صاحب الرحلة على الشاطئ الأطلسي لمراكش وفي رأس سولس الذي نسميه اليوم كنتين (بين صافي ومزغان).

ويرى أرسطو معاصر الإسكندر والذي تطرق لعلم الحيوان في حديثه عن الفلسفة -أن التوزيع الجغرافي للفيلة يدل على كروية الأرض. ولاحظ أن هذه الحيوانات لا تعيش إلا في أطراف الأرض المأهولة في الهند من جهة وعند "أعمدة هرقل" من جهة أخرى. ويرى أرسطو أن هذين الطرفين قابلان للالتقاء. ولا يغربن عن بالنا هنا أن أرسطو بادي الأثر في ثقافة كريستوف كولمبس. وليس الفيل الموريتاني بالتالي غريبا عن اكتشاف أمريكا.

ويشير بعض المؤرخين الإغريق من أمثال بوليب وديودورس وابيان إلى البون الكبير في القدرة على القتال بين الفيل الليبي والفيل الهندي. وقد قبض للنوعين أن يتقابلا في الحرب بين بطليموس وانطيوخوس وإبان الغزو الروماني لآسيا. ويجمع هؤلاء المؤرخون

على القول أن الفيلة الليبية كانت تخشى ضخامة الفيلة الهندية وشدة باسها، بل كانت عاجزة عن تحمل رائحتها ونهيمها ومقابلتها في القتال كما يقول بوليب.

ويقول ديودورس إن الفيلة الهندية اشد من الإفريقية إقداما وقوة. ويذكر ابيان أن الجيش الروماني لم يستخدم الفيلة حين انتصاره على انطيوجوس لأنها كانت افريقية، تخاف الفيلة الأخرى. لذلك خصصها القائد الروماني دومسوس لحمل الأمتعة. ويقول بلين:أضخم الفيلة الهندية، ولا طاقة للأفريقية على مقابلتها. والفارق بين الطائفتين واضح لا يقبل المناقشة.

وجدير بنا أن نتذكر أن الفيل المغربي من الحيوانات الباقية إلى جانب السمك والسلور والتمساح وغيرها. وقد حافظ على وجوده معها رغم تغير المناخ وهذا ما يفسر ضالة حجمه. والفيل السوداني وفيل الكونغو أضخم من الفيل الهندوسي وأقوى منه في الوقت الحاضر ولم تفلح الجهود المبذولة لتدجينه حتى الآن. على أن أنواع الفيل الموريتاني قد تقهقرت باستمرار، ذلك شأن الحيوانات الباقية، فتمساح وادي منيرو لا يزيد طوله علة متر واحد.

الفيل المراكشي

ليس مستبعدا أن يكون الفيل الليبي قد حافظ على بقائه في بعض المناطق الموريتانية حتى فجر التاريخ المسيحي. وقد أورد بلين المعروف بروحه العلمية أشياء دقيقة بهذا الصدد، فحدثنا عن ساله التي لا تزال قائمة حتى اليوم تجاه مدينة الرباط على مصب أبو رقرق، وبجوارها مناطق منعزلة ترتع فيها قطعان لفيلة البرية، كما تقطنها بعض قبائل القراصنة. إذ يقع المكان على الطريق المؤدية لجبال الأطلس أهم الجبال الإفريقية. ويذكر بلين أن احد المكتشفين لروماني ويدعى سيتونيوس بولينوس قد عبر الأطلس حتى بلغ نهر جير (وادي نير؟). وشاهد في طريقه حقولا ملأى بالفيلة. ويضيف بلين أن في مقاطعة نتجيان (أي طنجة) الرومانية لجهة الشرق (أي منطقة الريف) توجد الفيلة أيضا.

كذلك يتحدث مؤرخون آخرون اقل دقة من بلين عن وجود الفيل هناك. قد ذكر الأمر أرسطو نفسه كما رأينا. ويقول بومبونيوس ميلا أن العاج من منتجات المرتفعات المراكشية.

ويذكر اليان أن الفيلة كانت تعيش بكثرة حول جبال الأطلس وسط مراعي الجميلة والغابات الرائعة.

وليس المؤرخون وحدهم هم الذين يتحدثون عن وجود الفيل في الجبال المراكشية، فهناك بعض النقوش الصخرية إلى ذلك أيضا. ففي امتداد جبال الأطلس ناحية الجزائر في "سلسلة القصور" وجبل أمور عثر على نقوش صخرية تمثل الفيل. ويعثر على هذه النقوش أيضا في المنطقة المراكشية حتى جبال فجويج. وليست هذه الرسوم بالطبع تحفا فنية ولكنها ليست بدائية دا في نفس الوقت. ويلوح أن بعضها قد استخدم لأغراض العبادة. وكثيرا تحدث الناس عن النقوش الصخرية التي يحتل الفيل مكانا مرموقا بينها.

الفيلة الصحراوية

ويذكر بلين احتياطيا آخر للفيلة في غير مراكش. ويشير إلى منطقة سرت في مكان ندعوه اليوم خليج قابس وسط السهوب الوعرة التي تصل بالصحراء الممتدة حتى فزان. على أن الوصف ليس دقيقا همنا ولا ندري هل تدفعنا إشاراته هذه لمنطقة الشطوط أو لوادي غير أو وادي غرغر أو الهقار. والواقع انه قد تم العثور في تسيلي على فيلة رائعة منقوشة على الصخور.

ويمكننا الظن استنادا لبلين أن وجود الفيلة في المغرب منطبق على المنطقتين اللتين تعيش فيها بعض الحيوانات الباقية، أي في مراكش من جهة وفي منطقة الشطوط من جهة أخرى. وهنا تلحظ مصادفة لا يمكننا التغاضي عنها.

ويحسن بنا على كل حال أن نتجنب المبالغة. فالفيل من الحيوانات الرحالة يتنقل بسهولة كما يحلو له. ويقول كبيلنغ: "الفيل لا يستطيع الجري، ولكنه يسبق القاطرة لو شاء اللحاق بها". وبديهي أن حيوانا كهذا لا يبقى مسمرا في مكانه.

يتحدث بلوتارك عن حقبة في حياة بومبيوس هي الحقبة الإفريقية القصيرة. حيث مر بأفريقيا لمدة أربعين يوما كانت حافلة بالأحداث العسكرية والسياسية. وقد قيض له أن يصطاد من نوميديا فيلا.

وهناك نصوص أخرى تشير إلى وجود الفيل في التل الجزائري وحتى جوار قرطاجة. وهي نصوص تناقض بلين الذي كتب في وقت متأخر عن افريقية الرومانية التي تضاءلت فيها مراعي الفيلة.

والمكانان اللذان أشار بلين لوجود الفيلة فيهما من اشد المناطق المغربية فقرا بالسكان. ونحن نعلم كم تأخر الوقت الذي أصبحت فيه المنطقة المغربية جنوبي أبو

رقرق غنية بالناس. ولم يكن في منطقة الشطوط وقتئذ أي اثر لأشجار النخيل الموجودة بكثرة في الوقت الحاضر. وجميع المياه التي تروي هذه الأشجار حاليا كانت ينابيع خاصة بالفيلة.

ولعل بوسعنا القول انه مهما بدا من بعد بين الأطلس المراكشي ومنطقة الشطوط فثمة طريق معروفة تصل بينهما. وعلى سفح جبل الأطلس يمتد على مئات الكيلومترات واد تكثر فيه المراعي والينابيع، انه وادي الجدي الطريق الرئيسية للبدو وقطعانهم. وراقصات ولد نابل اللواتي يقبل على مشاهدتهن السياح في بسكرة، يأتين من أقصى الغرب عن طريق وادي الجدي.

فهل بوسعنا أن نتصور الفيلة وهي تسلك نفس الطريق؟

هناك ملاحظة يمكننا الأخذ بها رغم تشوش المصادر القديمة وهي أن الفيلة الليبي قد عرف إطار المغرب القديم كله.

الصيد

ويتحدث القدماء عن تدجين الفيل وطريقة ترويضه. فيحدثنا أبيان عن احد أبناء استروبال، ويحدثنا فرونتان عن استروبال آخر أنهما ذهبا إبان الحرب البونية الثانية لصيد الفيل. فقد كانا يريدان امتطاء الفيلة القرطاجية مرة أخرى. ويحدثنا فلورس عن معركة تبسوس فيقول: إن الفيلة التي تم الاستيلاء عليها لم تكن مجدية لأنها لم تأخذ الوقت الكافي للتدريب مع أصحابها الجدد.

وإليك ما يرويه بلين بدقة عن طريق تدجين الفيلة الإفريقية: كان الفرسان يطاردونها في حلبات خاصة تحيط بها الصخور والحفر من كل جانب وذلك قصد إخضاعها والسيطرة عليها. ثم كانوا يتركونها فريسة الجوع. ويعلن الفيل خضوعه حين يقترب من مروضه ليلتهم غصنا من يده. ويمكن اعتبار هذا الوصف صحيحا لما فيه من شبه بما أورده كبيلنغ في كتابه عن الغابة حين يصف عملية الترويض في الهند: الحلبة هنا محاطة بالأوتاد ويطلق عليها اسم "كدة" باللغة الهندوسية. وتنتهي العملية بإطلاق الفيلة ليلا فتندفع بأقصى سرعتها وسط الكدة وحين تشعر بان لا سبيل إلى الفرار ترتمي الحيوانات على الأوتاد خائرة القوى، ويجري إبعادها بعد ذلك بالصراخ والتلويح بالمشاعل وإطلاق الرصاص في الهواء.

والشبه واضح بين ما أورده بلين وما جاء به كيبلنغ وإن كان الأخير أحسن تصويرا.

والفرق بين الترويض الهندي والترويض الإفريقي أن الهنود يستخدمون الفيلة الأليفة، في حين يلجأ الموريتانيون للجياد.

كما يشير بلين إلى نوع الطعام المفضل عن الفيل الأليف ويقول أن شديد الشغف بتناول الشعير.

الفيل في الأساطير الشعبية

أورد المؤلفون القدامى طرائف عدة عن عادات الفيل الليبي هي اقرب إلى الأساطير. وذكروا كيف أنهم تفننوا في طرق صيده، ونوهوا بمكانته المهمة في التراث الشعبي. ومعظم هذه الأخبار مصدرها جوبا ملك موريتانيا الذي وضع كتابا عن بلاده كان نصيبه الضياع. وكلما أشار كاتب إغريقي أو لاتيني إلى جوبا نعرف انه يقصد الفيل الليبي. ويشدد جوبا على الفضائل الأخلاقية للفيل وصفاته الاجتماعية. ويذكر لنا كيف انه تعاون رفيقه إذا ما وقع في حفرة أعدها الصيادون:"تأتي الفيلة بالكثير من الحجارة والأخشاب تلقى بها في الحفرة حتى تمتلئ ويتمكن الرفيق أن يخرج منها".

ويروى الكثير أيضا عن ذكاء الفيلة، فهي تعرف أن الناس يصطادونها من اجل الحصول على أنيابها العاجية لهذا تعمد في الأوقات الحرجة لوضع أفرادها ذات الأنياب المحطمة في واجهة القطيع لتثير اشمئزاز الصيادين. وتحسن الفيلة مكافحة حريق الغابات. كما تنظم في صراعها مع الصيادين فرقا في المقدمة وأخرى في الجوانب. ويلتقط الفيل الجريح بخرطومه غصنا اخضر يرفعه كالعلم الأبيض.

ويقال أن للفيلة صفات إنسانية في مجال الحب. وقد عاش اسكندر احد صيادي موريتانيا مشهدا مخيفا في إحدى عائلات الفيلة يعتبر عن ثورة الكراهية بسبب الزنى. فلم يستطع "الزوج" العجوز أن يحتمل اعتداء فيل آخر على شرفه فانقض عليه الخ... وتشعر الفيلة بروح الصداقة ويذكر جوبا أن احدهما قد تعرف على الشخص الذي كان يركبه قبل سنوات طويلة.

ويروى عن احد الفيلة انه كان يعشق عطارة يحتفظ لها بكل درهم يعطى له.

وللفيلة مشاعر دينية، فهي تتطهر بمياه البحر وتعبد شروق الشمس وهي ترفع خراطيمها كما يرفع الإنسان يديه. وتعبد القمر أيضا. ويذكر بلين أن قطعان الفيلة كانت ترد مياه نهر اميلو (الذي لم يعثر على أثره أبدا) لتغتسل قبل تقديم واجب العبادة للقمر.

ولعلنا نذكر أن استدارة القمر تشابه تانيث وان هناك شبها بين الشمس وبعل.

أنها قصص صغيرة يصح أن يرويها الصيادون المهرة لأترابهم المتجددين بعد أن يتحلقوا حول النار.

الواقع التاريخي

لاشك أن في الصفحات السابقة عيوبا لا يمكن إخفاؤها. فليست الأخبار التي أوردتها نتاج دراسة علمية عن الفيل الليبي، بل كانت روايات من هنا وهناك لا تخلو من أخطاء جسيمة. وجل ما في الأمر انني شئت أن أؤكد بطريقة تصويرية حقيقة تاريخية واضحة تثبت وجود الفيل القرطاجي. وقد خشيت أن أجابه القارئ بهذا الحقيقة دون مقدمات فيرفض التسليم بها. على انني لست مؤمنا كل الإيمان بجدوى أسلوبي هذا.

الأسباب

ذاك أن القارئ لابد وان يستهجن واقعه كهذه. إذ كيف لحيوان استوائي ضخم كالفيل أن يتنقل في أنحاء منطقة البحر المتوسط كما صورناه؟

فهل يحق لنا الظن بان المناخ قد تغير؟

ما من شيء على سطح الكرة الأرضية أكثر تغيرا من المناخ. لكن ذاكرة البشر لم يستيقظ إلا في وقت متأخر؛ ثم إن عمر الإنسان قصير إلى حد أن التاريخ لم يسجل حتى الآن أي تغير مناخي حتى ولا على شواطئ المتوسط حيث نشأ هذا العلم، أو في الصحراء الكبرى أو في مصر التي وجدنا فيها أثارا غرانيتية ورخامية تعود لستة آلاف سنة.

ولم يغفل غيزل، بما له من طول باع في هذا المضمار، الحديث عن تبدل المناخ في منطقة الشمال الإفريقي وخلص إلى نتيجة تنفي هذا التبدل. ولا ادري إذا كان احدهم قد وصل لرأي مغاير.

على أن هناك العديد من النصوص والآثار القديمة التي تحدثنا عن أفريقيا الرومانية وكذلك عن تونس والجزائر، ولم تدفعنا هذه المعلومات إلى الاعتقاد بتبديل المناخ، على ما بحوزتنا من وسائل البحث والاستقصاء.

بيد أن النصوص تحدثنا عن حياة الحيوان في عهد الرومان وقرطاجة على صورة لا نلحظها في أيامنا هذه. وليست قضية الفيل وحدها في الميدان.

فهناك فضلا عن ذلك ذكر البوا تلك الأفعى الرهيبة التي تحدثنا عنها.

وانه ليثير انتباهنا حقا كثرة الحديث عن الحيوانات في تلك الفترة. فقد اعتبر المؤلفون القدامى افريقية مرتعا للحيوانات المفترسة وذكروا منها الفيل والأسد والفهد والظبي والنعامة.

ويرى ملينوس أن كثرة الحيوانات فيها دليل غضب الآلهة على قرطاجة.

ويقول غيزل: كانت الحيوانات قبل العهد الروماني من الكثرة بحيث أنها شكلت خطرا دائما على سلامة السكان.

ويرى سالبوست أن ثلاثة أنواع من الموت يمكن أن تقهر الشعب الصامد الجاف: الشيخوخة والحرب والحيوانات المفترسة.

لقد كانت افريقية مصدر الوحوش التي استخدمها الرومان في الحفلات. ويروي اوغسطس انه قد تم قتل 3500 حيوان إفريقي خلال ستة وعشرين يوما من أيام الأعياد قدمها للشعب. وقد بدأ إرسال الحيوانات إلى روما منذ القرن الثاني قبل الميلاد واستمرت عمليات التوريد حتى عهد ثيودوريك. وبسطر واحد يذكر بلين صادرات نوميديا فيقول:" لاشيء سوى الرخام والحيوانات".

ولا تعتبر الجزائر وتونس وحتى مراكش في أيامنا هذه مواطن للطرائد. فأماكن الصيد في افريقية معروفة لدى الجميع. ويعتبر صيد الحيوانات الكبيرة هواية عالمية في أفريقيا الاستوائية بجوار البحيرات. ويمكن للسودان (مالي) أن يجتذب الصيادين لو أن طرقه سالكة. فليست افريقية الاستوائية نفسها موطنا لأنواع الحيوانات، لكن هذه تعيش في السهوب والغابات الصحراوية والأماكن الجرداء. كما تكثر الوحوش في المناطق المتجمدة التي تعيش على صيد السمك والقنص. والمناطق القطبية أقصى مكان يمكن للحيوان أن يفر إليه هربا من الناس. وفي تصورنا نسبة السكان في الكيلومتر المربع تندرج عكسيا بين الإنسان والحيوان. فوجود الحيوان بكثرة في أفريقيا الرومانية دليل على ضآلة البشر فيها. كان من الممكن أن تبقى الفيلة في الغابات الجزائرية لولا وجود الإنسان. لكنها فرت إلى مراكش التي بدأ ساكنها يزدادون أيضا. وقد بنيت عاصمة هذه البلاد في القرن الثاني عشر في مكان لم يسبق لمدينة قديمة أن قامت فيه على ما يبدو.

انقراض الفيل

في بداية القرن الثالث كتب الكاهن الجزائري ترتيليان يقول بأسلوب لا يخلو من

الإطناب:"حلت الأراضي الضاحكة مكان الصحاري الشهيرة، والحقول المحروثة قهرت الغابات، وهزمت قطعان الماشية الحيوانات المفترسة...كل ذلك دليل على ازدياد أبناء باطراد في هذا الجزء من العالم. وتأتي الشكاوى من كل صوب: الطبيعة سائرة إلى القهقرة". أن عبارة كهذه من شأنها أن توضح لنا كيف وجدت روما فيلة افريقية وكيف قضت عليها.

لكننا لا نعرف بالضبط تاريخ اختفاء هذه الحيوانات. ويورد غيزل بصدد ذلك نصين واحدهما من القرن التاسع والثاني من السابع.

فمنذ القرن السابع كان الناس يتذكرون الفيلة المراكشية دون أن يروها. الأمر الذي يدفعنا إلى الجزم بأنها زالت تدريجيا في عهد الإمبراطورية الرومانية.

تقاوم الحيوانات الباقية تبدل وسطها بقدرة تحاكي المعجزة ولكنها لا تدوم طويلا. وهو رأي يصح في الفيل هذا أن العظيم الجثة -بنوع خاص.

فروما لم تستخدمه في الحرب. فقد بذلك قدرته على البقاء بعد أن تحول لحيوان داجن.

ويذكر بلين عن بوليب هذه الطرفة لغولوسا احد الملوك النوميديين: في أقاصي موريتانيا كان السكان يستخدمون أنياب الفيل في صنع إطارات الأبواب وفي أقفال الإسطبلات. أما روما فاستعملت الأنياب لأغراض أخرى. فالعاج هم الرومان بالدرجة الأولى. وكم ضحوا في سبيل الحصول عليه من فيلة. وكان الصيادون يصبون على قدم الحيوان وهو نقطة ضعفه ثم يعقرونه ويستخرجون منه العاج.

وسرعان ما اختفى العاج بجميع أنواعه عن موريتانيا. وقد أشار بلين لهذا التقهقر في بداية التاريخ المسيحي. ولم يبق منه عينات صغيرة، في حين بدأ استيراد الأنياب الكبيرة من الهند.

لقد قتلت الحضارة الأوروبية تلك الدجاجة التي تبيض ذهبا من اجل ملذاتها.

يقول اليان: في الماضي كانت توجد فيلة ضخمة جدا إلى حد لا تستطيع معه الحركة، تعيش في سفوح جبال الأطلس دون أن يتعرض لها أي صياد شريف. حتى جاء ملك البلاد الجشع ليأمر بالقبض عليها جميعا قصد الاستيلاء على أسنانها العاجية.

ويروي أريان قصة من هذا النوع جرت بين انطيوخوس والرومان. فقد تعهد انطيوخوس بعد هزيمته بعدم استخدام الفيلة مرة أخرى، لكنه لم يكن يقوى على تنفيذ هذا

التعهد. فأقدم الرومان بأنفسهم على قتل هذه الحيوانات المروضة أحسن ترويض. وثارت حفيظة احد المواطنين ممن شهدوا المجزرة فأقدم على قتل الضابط الروماني الذي قام بالعملية.

النتيجة

اختفت النعامة من بلاد المغرب في أيامنا هذه كما اختفى الفيل في العصور القديمة. ومن غريب المصادفات أن الحضارة الغربية التي استولت على بلاد البربر مرتين، كانت تشهد كل مرة اختفاء حيوان جديد. ولاختفاء الحيوانات نتيجة إنسانية مهمة، لان عملية الاختفاء هذه ترافق الخضات السياسية والاجتماعية التي تصحب حركة التطور البشري.

وإحصاء السكان ليس بالعلم البعيد في التاريخ. ولا يزيد عمر أول إحصاء جرى في العالم على قرن واحد. فليس من السهل مثلا تقدير عدد سكان فرنسا في عهد لويس الرابع عشر. فكيف لنا من باب أولى أن نعرف سكان أفريقيا القرطاجية أو الرومان. ووجود الفيلة البرية هو السبيل الوحيد للإحصاء. رأينا كيف أن أمريكا الشمالية -كانت لثلاثة قرون خلت خاوية إلا من نصف مليون هندي وما يقارب هذا الرقم من أبقار وحشية- قد أصبحت تضم اليوم ما يزيد على المائتي مليون نسمة. وكيف أن الجزيرتين الفرنسيتين موريس وبوربان كانتا مقفرتين قبل اكتشافهما إلا من طائرة كبير انقرض بدخول البشر إليها. وكيف أن مدغشقر كانت خاوية في العصر الحجري ثم عرفت طلائع سكانها الأسلحة الحادة والأدوات الحديدية.

لقد ألفنا إغفال البحث في ظاهرة اختفاء الحيوانات بسبب تكاثر البشر لأننا نعيش في قارة قديمة. وليس هذا شأن شمالي أفريقيا إذا تغاضينا عن سكان البربر الأصليين.

ويعتبر الفيل القرطاجي دليلا بين دلائل آخر. ويفيدنا عن وجود ثغرات في السكان.

وبمجيء الرومان زاد عدد البشر كثيرا. وليس لدينا سوى اختفاء الفيل دليلا على ذلك. فالفيل إذن من القرائن الهامة في المجال الديمغرافي (السكان). ذاك أن الدراسات الازمة لإحصاء عدد السكان لم تكن معروفة كما ذكرنا. ووجود الفيلة قطعانا ثم تضاؤلها باستمرار لدرجة الانقراض. يعطينا فكرة عن الوضع الذي كانت فيه بلاد المغرب قبل مجيء الرومان. وكيف أن هؤلاء بحلولهم فيها ملأوها بالطاقات البشرية وبالموارد بعد أن كانت فقيرة فيها.

وحين نرى أن المغرب المسلم يتقوى على جيرانه الاسبان والصقليين والمصريين، فلا يغرب عن بالنا أبدا أن جهودهم قد عبئت منذ العهد الروماني.

ولكن ما الذي جعل المسيحية تنهار في الشمال الإفريقي؟ إن أعظم هدية قدمتها روما للمغرب إنما هي إدخال الجمل إليه. والجمل هو الذي أسهم في انهيار دولة الروم.

3 - ظهور الجمالين الرحل الكبار

حيوان مستوطن-الحصان

في المغرب سلالة خاصة من الخيول تدعى فرس المغرب لها قامة ميزة لا تنساها العين. قوائمها الأربع مجموعة تحت جسمها وأردافها صغيرة مضمرة. فليس لفرس المغرب مؤخرة واسعة مدورة فوق أرجل وثابة تقفز فوق الحواجز شأن الجواد العربي. ففرس المغرب ضعيفة في القفز. وهي لا تحتاج الكثير من الغذاء إذ تكفيها ستة كيلوغرامات من الشعير يوميا أي اقل بكثير مما يحتاجه الحصان الفرنسي. والحصان المغربي صغير هزيل الجسم ضامره. لا يبهرك منظره وهو اقل قوة من الخيول الأوروبية ولا يتحمل الأوزان الثقيلة التي تتحملها. كما انه اقل منها جموحا ولا يصعب على الخيال ركوبه. وهو أبطأ منها المسافات القصيرة. لكن له القدرة على الاحتمال لا تصدق. حيث انه قادر على قطع ثمانين كيلومترا دفعة واحدة رغم قلة غذائه. ومستعد لمعاوية الكرة في اليوم التالي.

وكم حقق فرسان إفريقيون لانتصار في حلبات السباق في عهد الإمبراطورية الرومانية. كما الحق الفارس النوميدي بجيوش قرطاجة وجيوش الرومان في جميع أنحاء العالم القديم وهو يمتطي صهوة هذا الجواد المغربي. وقد تحدث المؤرخون عنه منذ أقدم عصور التاريخ. وذكره هيرودوتس. ولم يكن ركوبه معروفا قبل الحروب البونية. وإنما كان يستعمل فقط في جر العربات الحربية.

انه حصان عريق في سلالته. له شخصية فريدة متلائمة وطبيعة البلاد. بحيث يمكننا الاعتقاد بأنه أصيل فيها أبا عن جد. وليس بوسعنا تصور افريقية بدونه. ويرى غيزل -رغم كل ذلك- انه ليس سوى مستوطن.

ذاك أن عظام الحصان لم يعثر عليها إلا في الطبقات العليا من الرسوبيات القديمة إلى جانب عظام الكلب. ولم تقع العين على اثر للحصان الإفريقي في أقدم الرسوبيات

النيوليتية والحجرية . الأمر الذي يعطي الجواب الحاسم على تساؤلاتنا عن أصله، ضمن حدود مداركنا الحالية بالطبع.

وللمؤرخين كذلك الحق بإبداء الرأي، وإذا كنا لا نشاء اللجوء للمؤرخين المغاربة نظرا لاعتمادهم الوثائق الجديدة، فلا يمكننا الاستغناء عن المؤرخين المصريين. ولا يذكر هؤلاء شيئا عن الحصان المغربي قبل عهد الإمبراطورية الجديدة. ويرى ماسبيرو انه قد دخل البلاد مع الغزو الهكسوسي الكبير للبلدان الأسيوية -على انه ظهر في الأبنية الأثرية القديمة منذ القرن السادس عشر قبل المسيح. وانطلاقا من مصر بدأ الحصان بالانتشار في أمصار المغرب. وقد ظهرت القبائل الليبية المجاورة لمصر في القرنين الثالث عشر والثاني عشر في عهد منفتاح ورعمسيس الثالث- ظهرت في النقوش الهيروغليفية مع خيولها الضعيفة.وقد علق روجيه على ذلك بقوله: "لعل الجياد لم تكن كبيرة العدد على الشواطئ الإفريقي."

ويعطي علماء الحيوان إجابة تتفق وهذا الرأي، حيث يشيرون لوجود سلالة من الجياد في ومصر العليا ببلاد النوبة، تشبه فرس المغرب، هي جياد دنقلة. ويلاحظون الخطوط المتعرجة في قوائمها ويجدون لها قرابة مع الحمر الوحشية الإفريقية والخيول الداجنة المستوردة من آسيا ومصر. كل ذلك يقودنا لاستنتاجات دقيقة. فاصل فرس المغرب منتظم جدا، حيث أن سلالتها نشأت في القرن السادس عشر قبل المسيح في بلاد النوبة عن أبوين هما الحصان الإفريقي من جهة والحمار الوحشي من جهة ثانية.

على انه استنتاج طريف قد يكون خاطئا. وهناك مجالات أخرى للتأويل لاسيما وانه قد تم العثور في بلاد الطوارق على نقوش صخرية تمثل الخيول، وهنا يمكن الظن بان الحصان قدم إلى المغرب من السودان.

على أن هناك حيوانا آخر على جانب عظيم م الأهمية، هاجر إلى المغرب في وقت متأخر، وهو الجمل.

الجمل

يروي لنا التاريخ عن وصول الجمل متأخرا إلى بلاد المغرب. ويقول انه تأخر بالعودة إليه. فجميع علماء المتحجرات متفقون على تأكيد وجود جمال منذ العصر التاريخي الرابع لوجود هياكلها العظيمة على طول البلاد بين نوميديا وموريتانيا.

ومن المتفق عليه أن هذه الجمال الحجرية كانت متوحشة تعيش طليقة كالظباء في تلك العصور الغابرة.

ولو راجعنا ما قاله هيرودوتس لألفيناه يتحدث عن أناس يعيشون في برقة وسط الصحراء يتقنون قيادة العربات التي تجرها الجياد الأربعة، هؤلاء القوم هم الليبيون. وعلى شواطئ بحيرة تريتون أي في منطقة سرت كان الأهالي في عيد الآلهة يستعرضون فتيات يرتدين الخوذة ويقدن العربات. وكان الجرمنتيون وهم سكان الصحراء الفزانية يطاردون الإثيوبيين سكان الكهوف على عربات تجرها الجياد الأربعة. وكانت النساء في جنوبي تونس يرافقن رجالهن إلى المعارك ليقدن العربات الحربية. وتؤكد النقوش التي عثر عليها في وادي الجراد صحة ما أتى به هيرودوتس.

ويذكر لنا هيرودوتس قصة خمسة مغامرين ينتمون لقبيلة ناسامون المعروفة فيس طرابلس القديمة. وهي قصة أول عملية استكشافية عبر الصحراء. توغل الناسامون بعيدا في الصحراء حتى بلغوا نهرا تكثر فيه التماسيح وتحيط بضفتيه الأشجار على الجانبين، وحوله تعيش قبيلة من الأقزام. إن قصة كهذه لا يمكن تصديقها إلا في صحراء لا اثر للإبل فيها ولا يعرفها حتى الصحراويون أنفسهم.

وينتقل هيرودوتس لتعداد الحيوانات التي كانت تعيش في ليبيا بين برية وأليفة، وهو تعداد دقيق في مجمله شأن كل ما أتى به هيرودوتس واستطعنا التحقيق منه.

فقد ذكر التماسيح البرية الضخمة التي تحدث موباسان في قصته "تحت الشمس عن صراعها مع الأفعى ذات الأجراس، وذكر الحيات التي تحمل قرونا في رأسها، والثعالب الصغيرة ذات الأذان الطويلة، والنعامات وأبناء آوى، والظبأ والجرذان القائمتين وفئران التلال. كما ذكر والغنم والماعز والخيل. ولكنه لم يذكر الجمال الإفريقية أبدا.

ونحن نعرف عن الحروب البونية الشيء الكثير، فهي التي كانت وراء عظمة روما وسيطرتها على الغرب، وهي التي شكلت منعطفا كبيرا في التاريخ. ولطالما تشوق الناس لأخبارها وأسهبوا في الحديث عنها، وأشبعها المؤرخون الكبار من أمثال تيت ليف وبوليت درسا وتمحيصا.

وفي مجمل الكتابات لم يأت احد على ذكر الجمل مطلقا، رغم تردد اسم الفيل القرطاجي. وإغفال ذكر الجمل يشكل وحده دليلا.

وعن حرب جوغرتا وصلنا كتاب وضعه المؤرخ سالوست المعروف بسعة اطلاعه على شؤون المنطقة لكونه واليا على المقاطعة الإفريقية. ولم يورد سالوست اسم الجمل. وقد ذكر الحصان والفرسان في حديثه عن استيلاء ماريوس على غفصة، ووصف المنطقة بأنها قاحلة جرداء وقال إن ماريوس أمر جيشه من مشاة وفرسان بإلقاء جميع الأمتعة والاكتفاء بقرب الماء. واضح إذن أن ماريوس لم يستخدم الجمال، كذلك لم يذكر سالوست شيئا عن استخدام جوغرتا لها. وإمساكه عن ذكر الجمل في هذه المعركة دليل واضح أيضا.

غير انه يشير إليه في مكان آخر من كتابه حيث ذكر أن الجيش الروماني استخدم الجمل لأول مرة في معركة ريناداكس التي خاضها لوكولوس ضد مثريدات. لكن بلوتارك الذي نقل الخبر عن سالوست يعجب كثيرا لان المؤرخ اغفل ذكر الجمل في المعارك التي جرت ضد انطيوخوس وارخيلاوس في ارخومين وشيرونيا.

وهكذا كان تاريخ بدء استخدام الجيش الروماني للجمل موضع اخذ ورد في روما وفي بلاد اليونان. ولكن لا خلاف على المكان الذي وجد فيه. فقد تعرفوا على الجمل في آسيا بل في الشرق خلال حربهم ضد انطيوخوس أو مثرايدات. ولا مجال لافتراض آخر في هذا المجال. ولم يعرف الجمل في افريقية إذن.

يضاف إلى ذلك رأي بلين القاطع حيث يقول: الجمال مصدرها الشرق وهي على نوعين: الجمل العربي والجمل ذو السنامين. ولا يغربن عن بالنا أن بلين نفسه المعروف بروحه العلمية هو الذي يؤكد الأمر. ثم إنه زار افريقية بنفسه.

وهنا يمكننا استنتاج حقيقة لا يرقى الشك إليها: لم تعرف افريقية القرطاجية الجمل، وكذلك لم يعرفه الرومان في أول عهدهم. ولم يظهر الجمل إلا في بداية العصر المسيحي وبصورة نادرة أيضا.

وقد ورد أول ذكر له في النصوص الإفريقية في تعليق لقيصر عن الحرب الأهلية. بعد معركة تبسوس استولى القيصر على اثنين وعشرين جملا. وهو رقم يثير الانتباه بدقته، فالقصة لا تلمح لوجود جهاز كامل للنقل. ثم إن جوبا الذي انتصر عليه القيصر في معركة تبسوس لم يكن ملكا بمعنى الكلمة، بل كان اقرب لرجل مثقف يعني بشؤون العلم واقتناء الأشياء النادرة. ولعل هذه الجمال من مقتنياته الشخصية.

وبوسعنا أن نستنتج أن الجمل في عهد الجمهورية لم يكن سوى حيوان تحت التجربة وليس معروفا حق المعرفة.

ثم تغيرت الحال مع الوقت، ولكن ببطء شديد. إذ بقي ذكر الإبل نادرا طيلة القرون الثلاثة الأولى للحكم الروماني. وفي متحف العلوي يوجد تمثال من الطين يمثل رجلا على ظهر جمل، يظن انه يعود إلى القرن الثاني بعد المسيح وقد عثر عليه في سوسه من أعمال تونس. ولكن لا يعرف الأصل المتوسطي الذي اخذ عنه التمثال.

وفي نهاية الثالث، ذكر ارنوب الإفريقي الجمل ذكر عارف. وتحدث عن ضرورة أناخته لإلقاء الحمل عليه.

ولم تتغير حال الإبل كليا قبل القرن الرابع الميلادي وتقهقر الإمبراطورية الرومانية. ففي سنة 363 طلب الجنرال رومانوس إلى سكان لبدة تأمين أربعة آلاف جمل لنقل المؤن لجيشه كما روى مارسلان. وجرى له ما أراد. فقد استطاع الرومان بكل بساطة أن يفرض جزية قدرها أربعة آلاف جمل. ومنذ القرن الرابع أصبح الجمل جزءا من مواشي افريقية، في المنطقة الطرابلسية على الأقل. وقد أكد المؤرخون البيزنطيون الذين تحدثوا عن افريقية هذه الحقيقة الواضحة.

ويروي بروكوب تفاصيل معركة جرت بين الونداليين ومغاربة طرابلس ويصف لنا الاستحكامات التي أقامها الطرابلسيون وطريقة تنظيم جيشهم على شكل شبه دائري ووضعهم اثني عشرة فرقة من الجمال في الخنادق مع إحلال النساء والأولاد في الوسط، في حين وقف المحاربون بين قوائم الجمال. وانهزام الونداليون في المعركة لأنهم جيش من الفرسان، والخيل تخشى الإبل كثيرا.

ثم يروي بروكوب قصة معركة أخرى على النحو نفسه، جرت في ضواحي تونس بين المغاربة والجيش البيزنطي، واتخذ المغاربة هذه المرة أيضا استحكاماتهم بين قوائم الجمال، ودب الذعر في قلوب الجياد البيزنطية فراحت تقهقر وتتعثر ملقية بفرسانها على الأرض، غير أن سليمان القائد البيزنطي شكل على فرقة من المشاة واستطاع أن يخترق الحصن الذي إقامته الإبل.

وهناك مصدر آخر إلى جانب بروكوب يحدثنا عن افريقية في عهد البيزنطيين هو الشاعر اللاتيني كوريبوس مؤلف ملحمة الجوهانية ويحدثنا هذا أيضا عن مهارة المغاربة في استخدام الجمل في القتال، غير انه يذكر كيف أن جوهان حذا حذو سليمان أثناء المعركة وشكل جيشا من المشاة اخترق صفوفهم. ويصف كوريبوس جملا عقره جوهان وسقط على اثنين من المغاربة فسحقهما.

ويذكر ابن خلدون شيئا يشابه ذلك حين يحدثنا عن فنون القتال عند العرب، ومعظم

البدو الرحل الذين يلجأون لطريقة الكر والفر ويقول إنهم يكونون جبهة من الإبل للقتال ويضعون نساءهم على الحيوانات الأخرى.

وانتقد ابن خلدون قادة عصره لأنهم تعتمدوا جيش المؤخرة واغفلوا جبهة الإبل.

ولا ادري إذا كان قد خفي على الانتباه هذا التشابه بين أما أورده ابن خلدون وما أتى به الكتاب البيزنطيون. لأنني لم أصادف شيئا بهذا الخصوص. وهذا ما يؤكد وجود هذا الأسلوب الحربي في افريقية واستمراره منذ عهد ستينيان أي قبل قرن من ظهور الإسلام حتى القرن الخامس عشر. ويمكن القول إن هذه العادة لا تزال حتى اليوم في عهد البندقية حيث تلجأ القافلة المهاجمة لرص جمالها والوقوف خلفها لإطلاق النار. وهي طريقة تمليها طبيعة الجمل الهادئة، وجسده الضخم.

ونشير هنا إلى وجود النساء ضروري في المعركة ولهذا يؤمن لهن المكان المناسب. ذاك لأنهن يشتركن في المعركة حيث يحفرن الخنادق ويعنين بالجياد.

ويرى ابن خلدون أن العرب في عصر الانحطاط بدأوا يتركون نساءهم في البيوت، وهذا ما حد من قدرتهم على القتال، لان المعركة في غياب النساء والأطفال لا تتحول لمعركة حياة أو موت يستميت المحاربون فيها من اجل عائلاتهم وأرزاقهم.

طريقة انتقال الجميع لأرض المعركة هي الأسلوب الذي ساد إذن بلاد المغرب بجوار قرطاجة منذ عهد الونداليين والبيزنطيين.

ويسهب كوريبوس في وصف معارك الإبل هذه، ولشد ما يصبح مشوقا حين يصف المرأة البدوية عندما تقع مع بعيرها بين أيدي الأعداء، فيطفها هؤلاء حتى الموت ويقتلون أولادها فيخرون جميعا صرعى تتدحرج أمتعتهم فوق رؤوسهم.

ويصف كوريبوس دخول الأسيرات إلى قرطاجة، حيث يتجمهر الناس لمشاهدتهن وهن يرضعن أبنائهن فوق الهودج.

وهناك نصوص عديدة تؤكد هذه الأخبار جرى جمعها في القرن السابع عشر (بوشار، الجغرافيا المقدسة 1646).

وينطلق بارت في مقدمة رحلته من حقيقة واضحة هي أن القرطاجيين لم يعرفوا الجمل.

وقد أغفلنا في الصفحات السابقة ذكر المصادر، إذ تكفي العودة لغيزل في كتابه

التاريخ القديم لافريقية الشمالية لنطلع على جميع المصادر المتعلقة بوجود الجمل في عصر ما قبل التاريخ.

في احد الأفلام السينمائية المأخوذة عن دانتزيبو في قصته كابيريا تدور المشكلة حول قرطاجة والحروب البونية. ويولي الفيلم دورا مهما للجمل ويصور صفاقس محاربا على ظهره. والكاتب كما هو معروف شاعر وليس مؤرخا. وجرى تصوير الفيلم في المنطقة الطرابلسية في جو لا يسهل فيه الاستغناء عن الإبل. ثم إن السينما لا تتقيد كثيرا بتصوير الحقائق كما هي. وإنني لأعجب كيف أن ملايين الناس شاهدوا الفيلم ولم يستهجن الخطأ التاريخي في استخدام الجمل، وكأنني بالمخرج يصور الجيش الروماني وهو يستخدم المدافع.

وفي رواية سالامبو لجوستاف فلوبير نعثر على خطأ تاريخي من هذا النوع. ذلك لان فلوبير كاتب روائي لا يعني بحذافير التاريخ.

أما السيد رينيه باسيه أستاذ الأدب بجامعة الجزائر فهو مستعرب معروف واختصاصي باللغة البربرية. ويقول باسيه أن البربر يطلقون على الجمل اسما شبيها بالاسم العربي. ويذهب إلى ابعد من هذا حين يؤكد أنهم لم يعرفوا الجمل قبل قدوم المسلمين من المشرق. وقد أورد براهين لإثبات ذلك لا تمت بصلة مباشرة للموضوع حيث ذكر سالوست وبلين وبلورتارك وفارون وفكتور دي فيتا. غير أن أستاذنا هذا ليس متخصصا بالتاريخ البيزنطي.

ولسنا هنا بصدد توجيه النقد إليه شخصيا. وخاصة وانه تحدث في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين الذين عقد في الجزائر ولم يعترض عليه احد، ولعل الجميع قد شاطروه هذا الخطأ التاريخي الذي وقع فيه.

النقوش الصخرية

لا حاجة لنا لنكرر من جديد أن النقوش الصخرية من شأنها أن تعزز النصوص. وقد عثر في جبال الأطلس على نقوش تمثل الفيل والجمل. لكن الرسوم مختلفة إلى حد لا يمكن اعتبارها منتمية لعصر واحد. ولكنها إنما نقشت معا على فترات متفاوتة بحكم تقليد الزوار بعضهم لبعض. ثم أن هناك اختلافا كبيرا في حجم كل من الفيلة والجمال المنقوشة إذ يبلغ الفيل المتر الواحد وقد صنع بإتقان. في حين لا يزيد الجمل على عشر هذا الطول وبخطوط غير واضحة أو منفصلة. وليس تقارب بين رسم كل من الفيل والجمل أو بالعكس بحيث لا يمكننا أن ننسبهما لرسام واحد.

وهناك اختلاف أيضا بين الرسوم الجانبية التي تفشت على الصخور..إذ يشاهد إلى جانب الحيوان المنقرض ذي القرون الطويلة، وإذا ظهر إلى جانبه إنسان فلابد أن يكون عاريا أو مرتديا خفيف اللباس وبيده الفأس النيوليتية. أما الإنسان أي ظهر إلى جانب الجمل فواضح المعالم تاريخيا، يحمل ترسا مستديرا ورمحين شاع استعمالهما لدى البربر في العصر الروماني والبيزنطي. كما تبدو مع الجمل أشكال الكتابة الليبية.

وهناك اتفاق في مجال الدراسات الاثنولوجية على تصنيف الفيل بين النقوش الصخرية بحد ذاتها. في حين يصنف الجمل مع الصور الليبية البربرية.

وهكذا يمكننا التفريق بين كل من الصورتين المختلفين.

وطبيعي أن الاتفاق في رسم الفيل ظاهرة تدل على العبادة الدينية. ولا يمكن اخذ الاعتقاد نفسه بالنسبة للجمل. فمن البديهي أن رسومه من وضع عابري السبيل.

ويمكن للزائر الأوروبي أن يطلع بنفسه على صعوبة النقش في الحجارة. فهو إذا استخدم سكينة العادي، فلن يفعل فعله في الصخر. عليه أن يستخدم آلات خاصة لنحته، ليعطي آنئذ نتيجة تختلف كل الاختلاف عن الرسوم الموجودة.

في حين تسهل العملية كثيرا لو أخذنا حصاة صغيرة مسننة. فهي في الصخر أمضى من السكين.

بإمكان عابر السبيل إذن أن يأخذ قطعة من الصوان ويرسم بسهولة صورة مشابهة للرسوم الليبية البربرية. ولكن أنى لشخص كهذا أن ينقش حيوانا بمثل الإتقان الذي نقش به الفيل. إذ يحتاج ذلك لأدوات مختلفة، كما يحتاج لمهارة يدوية وقوة مراس. أي على المرء أن يكون نيوليتيا ليستطيع نقش صورة بمثل الإتقان الذي صنعت به صورة الفيل.

فبين رسم الفيل ورسم الجمل تضارب حضارتين، حضارة الحجر وحضارة المعدن. وهناك أيضا تضارب جنسين: الجنس البربري والجنس الليبي من جهة، والجنس الزنجي من جهة أخرى. وقد رأينا أن نقوش وادي الجراد تؤكد هذا الافتراض.

مصر

إليك واقعتين لا جدال فيهما: لم يعش الفيل المتوحش -الذي كان يعيش في شمال أفريقيا- بعد قرطاجة ابدأ. ولم يعرف المغرب الجمل الأليف إلا في عصر انهيار

الإمبراطورية الرومانية زمن السيطرة البيزنطية. وبين الجمل والفيل فاصل مداه ثلاثة قرون كاملة، أي طيلة عهد الإمبراطورية الرومانية.

وثلاثة قرون ليست بالفترة اليسيرة في عمر الأفراد فهي تتسع لعشرة أجيال وأكثر.

ولكن كيف عبر الجمل تدريجيا ارض المغرب طيلة هذه القرون؟ ليست الإجابة على ذلك يسيرة لان النصوص لا تحمل أي رد. غير انه بوسعنا التوصل لترجيح جواب من خلال الوقائع التاريخية المهمة.

فمسألة الجمل المصري مثلا واضحة بإجماع الاختصاصيين بالشؤون المصرية. فمصر الفرعونية والهيروغليفية لم تعرف الجمل ابدأ، بدليل أن مصر القديمة التي اعتمدت صور الحيوانات أساسا لعبادتها لم تترك شيئا يدل على وجود الجمل.

وقد ظهر الجمل في الفن والأدب المصري منذ الغزو الأشوري والفارسي خاصة، لان الفرس قضوا نهائيا على الاستقلال مصر. ويعد تلك الفترة أي في عهد اليوناني في مصر دخل الجمل في قائمة الحيوانات المعروف فيها.

يعني ذلك أن مصر لم تعرف الجمل في عهد استقلال. وهذا أمر طبيعي جدا لان بلاد الفرعونيين لم تعرف حياة البداوة وتاريخها يتميز بالاستقرار والحياة الحضرية، والإبل كما نعلم ترافق القبائل الرحالة.

ثم جاء اليوم الذي أصبحت فيه مصر إقليما من أقاليم الإمبراطورية الأسيوية الكبرى، فدخل إليها مع الغزاة الأجانب. قبل ذلك الحين كان حول النيل يشكل حاجزا كثيفا يفصل بين جزيرة العرب وبلاد المغرب.

سبتيموس سفيروس

وقد لزم ألف لوصل الجمل إلى المغرب بعد اختراق هذا الحاجز المصري.

فتح قمبيز مصر 525 قبل الميلاد ويفصل بينه وبينه جوستينيان نحو قرون عشرة.

ولا يغربن عن البال قضية التأقلم. فقد لزم النعامة مثلا وقت طويل قبل تأقلمها في الوسط المغربي.

أما بالنسبة لسبتيموس سفيروس، فيعرف عنه حبة لافريقية وتعليقها به. وغنى عن البيان أن المكان الذي يقيم فيه الرئيس يحظى دائما بعطف السلطة ويحصل على العديد من المكاسب. وكان سفيروس مقيما في لبدة.

وفي عهده كانت المدينة تعج بالناس الذين يمتون له بصلة القرابة والزمالة في عهد الدراسة. وكان هؤلاء يلعبون معه بالطبع في أزقة لبدة حين كان طالبا. كما رافقه هؤلاء إلى روما بعد أن أصبح إمبراطورا ذا حول وطول وظلوا قريبين منه قدر الإمكان.

وموقع لبدة في أسهل نقطة للاتصال بين السودان والأبيض المتوسط. ومن المرجح أن يكون هذا الاتصال قد بدأ منذ عهد قرطاجة ثم في ومن الرومان وذلك عن طريق غدامس وجرمة ومرزق. ومن الطبيعي أن يكون سكان مدينة كهذه منصرفين لأعمال التجارة عبر الصحراء. وقضية ترويض الجمال على حياة الصحراء، عظيمة الفائدة بالنسبة إليهم. وحانت الفرصة لذلك حين أصبح احد أبنائهم إمبراطورا.

على كل حال، توفي سبيتموس سفيروس عام 201. بعدها بقرن ونصف القرن كتب أميان مارسيلان انه قد تمت مصادرة أربعة آلاف جمل من لبدة. ويبدو أنها حقيقة لا اثر للمغالطة فيها.

روما

وروما هي التي أقلمت الجمل في بلاد المغرب، وليس هذا محض افتراض وإنما تاريخية ثانية، فالجمل عربي الأصل يرجع إلى شبه الجزيرة. فهناك ذكره المؤرخون الأول ما ذكروه. حيث كان مرتبطا بحياة البدو الذين روضوه. ويومي إلى الجمل في جميع اللغات المتوسطية بكلمة أصلها غربي، الأمر الذي يدل على أن العرب هم الذين ادخلوه لبلاد المغرب حين فتحوها.

لكن هذا الرأي قابل للأخذ والرد، إذ كيف للبدو الرحل أن يحملوا ظاهرة حضارية إلى البلدان الأخرى. أو لم يقل فيهم ابن خلدون الذي يحبهم أنهم يهدمون بيتا بكاملة ليستخرجوا حجرا لموقدهم؟ كما يرى رينان من جهته أن الساميين يرفضون فكرة الدولة.

وهنا يطرح سؤال: كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين وصقلية وبلاد الأندلس تحت الحكم العربي، رغم بداوتهم؟ وكذلك كيف لهم وهم الرحل أن يأتوا إلى بلاد المغرب بحيوان مفيد كالجمل؟ فلو فعلت روما ذلك لما بدا الأمر مستغربا نظرا لطبيعة الاستقرار التي تميز شعبها.

غير أن الجمل فد بلغ بلاد المغرب في نهاية الإمبراطورية الرومانية، أنها حقيقة واقعة مهما بدت مستغربة ولكن من المستغرب حقا أن أحدا لم ينتبه لها.

ويعتبر تدجين الجمل بمثابة رفع الحصار عن منطقة تعزلها الصحراء والأراضي الوعرة.

فما من حيوان غيره يستطيع أن يقطع البراري والقفار. لقد قصر المسافات وضغط حجم الصحراء. وبعث ثورة اقتصادية أشبه نسبيا بتلك التي رافقت ظهور السكة الحديدة والسيارة والطائرة.

وقد شاءت الإمبراطورية الرومانية أن تخلق ثورة مثل هذه الثورة. ونجم عنها عن غير قصد هزات اجتماعية وسياسية خطيرة. فالجمل حيوان لا يعيش بدون صاحبه، وصاحبه بدوي رحالة ينتمي لقبيلة لا تدري متى تهاجم أو متى تنقض. فهي آلة للحرب خطيرة. ذلك أن البدو الذين ألفوا حياة القساوة في الصحراء يقبلون بنهم على مطامعهم وملذاتهم ويستخدمون الجمل للغزو والاستيلاء على الغنائم.

تلك هي الظاهرة الجديدة التي رافقت قدوم الجمل ولم تكن روما لتحسب لها حسابا. الأمر الذي أدى لتغيير واسع في النظام الاجتماعي والسياسي المستقر.

لقد عرفت افريقية عهدها الذهبي زمن الرومان، فازداد عدد سكانها وانتعشت اقتصاديا، وأضافت روما لمآثرها الأخرى إدخال الجمل إلى البلاد. ولكن مجيئه كان سببا في القضاء على الإمبراطورية اللاتينية في الربوع الإفريقية. وقامت على لنقاضها دول المسلمين.

ومهما يكن من أمر هذه الاعتبارات، فمن البديهي بالنسبة إلينا وجود مغربين، مغرب ما قبل الجمل ومغرب ما بعده.

يساعدها إيضاح هذه الفكرة على فهم حقيقة المغرب بعد قدوم الجمل في العصر الوسيط الأول.

الحدود الجبلية

كان لافريقية في عهد الرومان وقبل قدوم الجمل إليها حدود جنوبية مميزة. وقد استطاع علماء الآثار إعادة تخطيطها بدقة كبيرة. حيث كانت تقع على شاطئ الأوراس الجنوبي وتضم بسكرة مرورا بهدنة وتمضي بمحاذاة التل الجنوبي قاطعة بوغاري وتاهرت وتلمسان.

ولنشر إلى أنها كانت حدودا طبيعية واضحة ودائمة، وحدودا اورغرافية لجغرافيا طبيعية. وتمتد من ناحية الشمال نحو البحر بلاد مختلطة تختنق سهولها وسط المنعرجات الجبلية. وتنتهي إلى جدار جبلي متجه نحو الجنوب. وفي جنوبي هذه السلسلة سهول رحبة على مد النظر، حتى ليخيل للرائي انه أصبح في عالم آخر.

ولنشر أيضا إلى أنها حدود مناخية أيضا، وحتى في المناطق القاحلة في الشمال تظل الزراعة ممكنة والتجمعات البشرية متوفرة.

وعلى مرور الأزمان تراكمت الأضرحة التي تعود لعهد ما قبل الإسلام. ويختلف طراز القبور في الشمال اختلاف المنطقة نفسها. غير أن معظمها يحمل طابع المقابر القديمة. أما في الجنوب فالقبور اقل اتقانا وهي من نوع "الرجم" أي أكوام الحصى. وتجدها مبعثرة هنا وهناك بلا انتظام.

ولا تزال سلسلة الجبال هذه تشكل فاصلا بشريا بين شعبين لا يعرفان لغة واحدة. في الشمال يتجمع الناس الذين يتحدثون البربرية، في حين لا تجد في الجنوب سوى اللغة العربية.

واقتصار السيطرة الرومانية على هذه الحدود ظاهرة لا تحتاج أبدا للتفسير. ثم إن سلسلة الجبال هذه ليست حدودا تفصل بين دولتين. فإذا كانت الإمبراطورية الرومانية تقع من ناحية، فلم يكن في الناحية المقابلة سوى أماكن منعزلة وحقول للصيد، وصنعت روما فيها بعض المخافر العسكرية للمراقبة ومنها مخفر مسعد المعروف.

وقد وضع السيد كركوبينو دراسة موجزة قيمة عن الحدود الجبلية ومحاولة الرومان في عهد سبتيموس سفيروس توسيع رقعتها انطلاقا من مخفر مسعد. في تلك الفترة حلت فرقة التبالين السوريين محل الكتيبة الرومانية الثالثة لأنها أكثر قدرة منها على حرب المناطق الوعرة. لكنها محاولة باءت بالفشل وظلت مناطق ما وراء الحدود على حالها.

أما في وقتنا الحاضر فليس بإمكان أي جهاز عسكري حماية التل، فقد أصبحت الحماية أمرا بعيد المنال بعد الإمبراطورية.

وحين أعاد البيزنطيون تنظيم افريقية اللاتينية، حاولوا بدورهم أن يخلقوا حدودا مماثلة لكنهم عجزوا عن ذلك على طول السلسلة الجبلية ونجحوا عند طرفي السلسلة في كل من نوميديا وشرشل.

ويبدو تقلص الجيش البيزنطي طبيعيا بالنسبة إلينا، كما أن التاريخ تحدث باحتقار عنه مثلما احتقر كل شيء بيزنطي. ولعل تاريخنا مجحف في ذلك، لان المؤرخين العرب تحدثوا عن هذا الجيش باحترام، شأن الحديث عن خصم مهيب الجانب. لاسيما وان البيزنطيين صمدوا في وجه العرب في آسيا الصغرى حين كان هؤلاء في أوج قوتهم.

والجيش البيزنطي يختلف عن الجيش الروماني، لأنه يعتمد الفرسان المزودين بالنبال والرماح، وقد ألف الحروب في الوعور والصحاري في صراعه الطويل مع الفرس، وهي تجربة لا يستهان بها بالنسبة لمعارك المغرب في القرن السادس. وقد ذكر بروكوب وكوريبوس انه كان على الجيش البيزنطي الوقوف في وجه الجمالين البدو، الأمر الذي لم يواجهه جيش الرومان.

ومهما يكن من أمر هذا الجيش فقد كان عليه أن يواجه عدوا جديدا لم يكن معروفا من قبل، ولا قدرة له عليه في حرب الأراضي الوعرة حيث يجتلي الجمل ويكون سيد الوقف.

فليس غريبا إذن أن تتمزق الحدود الجبلية بتأثير الدفع القادم من الجنوب من المنطقة الوعرة.

4 - ما ذكره المؤرخون العرب عن قدوم الجمالين البدو الكبار أي البتر والزناتة

زناتة والبربر الآخرون

البتر والبرانس.

لم يشر أي كتاب معاصر لهذا التحول العظيم الذي حدث في المغرب. وإن ذكر القدماء لماما، بعض الشيء عنه. على أن جميع الباحثين متفقون على تأخر ظهور الجمال في هذه البلاد، وهي ظاهرة أساسية تنبع منها وقائع كثيرة. وكان من الممكن أن نعود إلى المؤلفات العربية بهذا الصدد لكنها تحتاج للتأويل وهذا ما لم يقدم عليه احد. وهكذا نرى أننا وحدنا على هذه الدرب الخطرة. وخليق بنا أن نلفت الانتباه لذاك التشابه بين النصوص القديمة الذي أغفله الباحثون.

حين وضع العرب أيديهم على بلاد المغرب بدأوا ينظرون إليه نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرة الغربيين.

واختفت تسميته الأولى (أي افريقية) وظهر اسم المغرب أي المغرب بالنسبة للشرقيين. واختفى أيضا اسم الليبيين وظهر اسم البربر لأول مرة بمعناه نعرفه اليوم. ولعل العرب استعاروا التسمية اللاتينية كما يرى غيزل. ورأيه في هذا المجال ليس نهائيا. غير أنه من الواضح أن العرب قد أطلقوا على الليبيين اسم البربر في فجر الفتح الإسلامي. لكنها محض تسمية ليس لها أهمية كبرى، وإنما ظهرت مع الفتح العربي أشكال جديدة لم تكن معروفة من قبل.

يقسم اللاتين البلاد الإفريقية لمقاطعات وأراض. فالمقاطعة الإفريقية بحد ذاتها أطلقت على الأرض قامت عليها قرطاجة. أما نوميديا فتضم الأوراس والوديان العالية في شماليه. وموريتانيا هي منطقة القبائل ومنطقة وهران.

واختفت معظم هذه الأسماك بعد قدوم العرب وزوال الرومان، لان العرب لا يعيرون اهتماما للتقاسيم الجغرافية بقدر ما يهتمون بتعدد القبائل.

غير أن المؤرخون العرب قد تركوا لنا إرثا ضخما ن أسماء القبائل البربرية التي عاشت

في بلاد المغرب. وإذا كان اللاتين قد أوردوا بعض الأسماء فجميع ما جاؤوا به موجود في المراجع العربية.

ومهما يكن من أمر الفوضى المعروفة لدى الكتاب العرب الأقدمين فان القبائل التي ذكروها تساعدنا على إيجاد رسم بيان للقبائل في جميع بلدان المغرب.

وغني عن البيان أن ابن خلدون وحده بين المؤرخين العرب هو الذي وضع تاريخا للبربر. وقد كتب عنهم في القرن الرابع عشر. وأسهب في الكلام على القبائل التي عاصرته وراقبها عن كثب.

على أن حديثه عن القبائل الأخرى التي تهمنا على جانب كبير من الأهمية لاسيما ما جاء به عن زناتة القبيلة البربرية الكبرى.

قبائل زناتة بشكل عام

في ترجمة سلان ورد عن ابن خلدون انه قسم كتابه "تاريخ البربر" إلى قسمين: واحد يتعلق بالبربر الأصليين وآخر يتحدث فيه عن زناتة. وكأن هذه القبيلة ليست من البربر.

وينبغي ألا ننسى الفترة الزمنية التي كتب فيها ابن خلدون. ففي نهاية القرن الرابع عشر كانت أهم الأسر الحاكمة قذفي المغرب من الزناتيين كالمرينيين في فاس وبني عبد الواحد في تلمسان. وهما الأسرتان اللتان عمل ابن خلدون في خدمتهما في مستهل حياته. ولم يكن الزناتيون، بعد أن وصلوا إلى درجة كبرى من الأهمية، راغبين في التشبه بسائر البربر أبناء بجدتهم.

غير أن ابن خلدون ليس متشبثا كما رأينا بتأييدهم وقد فر منهم ليعمل في خدمة الحفصيين بتونس حيث وضع كتابه عنهم.

ويقول الزناتيين كانوا أصحاب لغة ميزة تختلف عن سائر لغات البربر بمعنى أن اللهجة الزناتية كانت ميزة عن اللهجات الأخرى. ولدينا دراسة اللهجات البربرية بإشراف رينيه باسيه لكنها ليست وافية مع الأسف بحيث نرى لزاما علينا العودة إلى العامل الجغرافي بغية الوصول إلى حل حول هذه الناحية. لنستعرض على الخريطة المناطق الزناتية كما ذكرها ابن خلدون:

يقول المؤرخ العربي أن قبيلة زناتة كانت تقيم في بلدان النخيل ابتداء من غدامس وحتى السوس الأقصى، ويمكن القول أن الزناتيين هم سكان القرى الواقعة في المناطق المشجرة من الصحراء.

واختفى الزناتيون اليوم كمجموعة قبيلة كبرى، لأنهم لم يستطيعوا الاستمرار بعد انهيار عظمتهم مع القاعدة الثابتة في بلاد المغرب. لكنهم لم يزولوا تماما من الوجود وقد عثر على بعض أثارهم في المناطق المشجرة من الصحراء.

إذ ينتمي القصوريون في غزارة للبربر وهم يتحدثون البربرية ويدعون أنفسهم بالزناتيين.

ولا تزال اللهجات البربرية في الزاب وأورغلا تحمل اسم الزناتية. وتاريخ هاتين المنطقتين معروف حتى المعرفة، لأنهما كانتا الملجأ الأخير لما بقي من مملكة الزناتيين الزاهرة في تاهرت والتي سنتحدث عنها في ما بعد. ومن المؤكد أن الزناتيين قد أقاموا شمالي الصحراء الجزائرية في الأراضي الغنية بالنخيل.

ويتابع ابن خلدون كلامه قائلا: في منطقة التل يشاهد الزناتيون في ضواحي طرابلس وسط سهول افريقية وفي جبل الأوراس. وهو قول مثبوت بدليل أن البربر لا يزالون حتى الآن يعيشون في جبل نفوسة بالمنطقة الطرابلسية وهم على صلة تاريخية بمملكة الزناتيين في تاهرت، كما أنهم من أهل الزاب يحافظون حتى على رابط القرابة التي تثبتها المذهبية الدينية.

أما السهول الإفريقية فيعني بها جنوبي تونس ومنطقة الجريد التي طغى عليها الطابع العربي بعمق. أما جنوبي الجريد فيقع جبل مطماطة ويعتبر ابن خلدون أن قبيلة المطماطة من الزناتة.

ويشير إلى أن البربر المقيمين شرقي الأوراس يتكلمون لغة تختلف عن لغة المقيمين غربه وهؤلاء من "ولد ضني" - ويرى أن جنة هو الاسم الأساسي للزاناتة.

وكان الأوراس الشرقي إبان الفتح العربي موطن قبيلة جراوة التي كانت الكاهنة ملكتها. ويعتبر ابن خلدون أن الجراوة من الزناتيين. وفي شمالي الأوراس بمحاذاة سهول قسنطينية العالية ومنطقة التل، ويقع وادي الزناتة الذي لا يزال حتى اليوم يحمل اسم القبيلة الكبرى. وليس الأوراس كله موطن زناتة على رأي مسكوراي إذ يستثني وسط الجبل ومنطقة الوديان المقفلة أي وادي العبدي ووادي الأبيض.

ويضيف ابن خلدون أن معظم الزناتيين يقيمون في أواسط المغرب وكانوا من الكثرة بحيث سميت المنطقة باسمهم.

وفي مكان آخر يحدد صاحبنا ما يقصده بأواسط المغرب ويعني ذلك القسم من

الجزائر الممتد من الملوية غربا حتى منطقة القبائل والأوراس شرقا أي مرتفعات الجزائر ووهران ووادي شلف.

هنالك كان مهد الزناتيين. واليوم أصبحت هذه المناطق عربية غير أنها لا تزال تحمل أثار القبيلة البربرية الشهيرة.

وجبل أمور الذي نعرفه اليوم ومنه يبدأ وادي شلف كان يحمل في السابق اسم جبل راشد. ويعتبر ابن خلدون بني راشد من الزناتيين. ولهجة هؤلاء متشابهة مهما ابتعدت مناطقهم بعضها عن بعض. واليك على كل حال ما جاء به م.ديستان عن اللهجة البربرية التي يتكلمونها في بني سنوس بجوار تلمسان:

لقد فهموا بسهولة النصوص التي عرضها رينيه باسيه عن لهجات بني مناصر. أما لهجة القبائل فلم يفهموها.

وعلينا أن نشير هنا إلى أن جميع القبائل التي استوطنت في أواسط المغرب بما فيها مغراوة وبني يفرن تنتمي للزناتية. واهم عاصمتين لمملكة الزناتيين هما تاهرت وتلمسان في قلب البلاد.

ثم توسع الزناتيون نحو الغرب وظهر بعض منهم في المغرب الأقصى أي في مراكش كما قال ابن خلدون.

فموقعهم الجغرافي واضح إذن لأنهم حلوا في الصحراء الكبرى وفي جنوبي تونس وبجوار الأوراس وفي الهضاب العليا والسهول القريبة من الساحل ابتداء من نهر شلف. وموقعهم الجغرافي هذا دليل كاف على كونهم من البدو. وهذا ما يؤكده ابن خلدون حين يقول: نلاحظ عند هذه القبيلة كثيرا من العادات العربية، حيث يعيش أبناؤها تحت الخيام ويعنون بتربية الماشية ويحسنون ركوب الخيل وينتقلون من مكان لآخر. فيقضون الصيف في التل والشتاء في الصحراء ويطردون بالقوة أبناء البلاد المتحضرة ويرفضون الخضوع لحكومة منظمة، وهم بذلك يختلفون عن البربر سكان الجبال المستقرين.

ولم يعثر في الآثار على منقوشات للزناتيين. غير أن غيزل تحدث عن احد نقوشهم في منطقة شلف وذكر الزناتة وكأنها إشارة لشخص وليس لقبيلة. ولم يصلنا من الكتاب القدماء بمن فيهم البيزنطيون أي أخبار عنهم. فمن العجيب حقا أن يكون التاريخ قد اغفل ذكر قبيلة كبرى كهذه. بيد انه من المرجح أنها لم تكن جميعها بالقبيلة الطارئة وأنها امتزجت بأهل البلاد لتكون بوتقة جديدة. وهو رأي يتفق وما ورد معنا في الفصل السابق.

والزناتيون هم بالفعل الجمالون الكبار الذين عرفهم المغرب. وهذا ما يجعلهم متميزين عن سائر البربر، حتى أنهم كانوا يقيمون في القرن الرابع عشر نوعا من الوطن.

سبق لنا الصحراء كانوا في عهد الرومان من السود فقط. ولم تكن أشجار النخيل معروفة في ذلك الوقت. أما نخيل وادي غير، جنوبي بسكره، والذي يشكل موردا اقتصاديا هاما في أيامنا هذه فكان خارج الحدود الجبلية. ولم يشر إليه احد من المؤرخين القدامى وكذلك لم يعثر على شيء منه في الآثار الرومانية.

أما نخيل منطقة غرارة الذي لا يزال الزناتيون يعنون به حتى الآن فقد أسهب المؤرخون العرب في الحديث عنه. زرعت أشجار النخيل لأول مرة في غرارة، على اثر هجرة الناس القدامى من الشرق في "عام الفيل" وهي سنة مشهورة قبيلة الإسلام.

ولا حاجة لي للعودة إلى ما ذكرته في لسابق من أن الصحراء الكبرى بسكانها البيض الرحل وبواحاتها ونخيلها وأساليب الري المتطورة فيها، لم تتكون معالمها الحضارية تدريجيا في العصر الوسيط وحتى في العصور الحديثة إلا مع ظهور الجمل الذي ساعد على ارتياد الصحراء واستغلالها اقتصاديا.

وقد حصل هذا التطور في قلب الصحراء مع قدوم الزناتيين إليها. ولابد لنا هنا من ذكر القرابة بين الزناتية واليهودية في الأصل. فالكاهنة أول أميرة على الزناتيين كانت تحمل اسما يهوديا: فكاهنة تذكر بكوهين.

ولكن كلمة كاهنة عربية مثلما هي عبرية. ويقول ابن خلدون: من بين البربر اليهود يمكننا أن نذكر جراوة القبيلة التي كانت تقطن الأوراس واليها تنتسب الكاهنة.

ويضيف أن قبيلة نفوسه وبربر افريقية يهوى أيضا. وبنو نفوسه معروفون جيدا ويعتبرون من الزناتيين أو المنضمين إليهم.

واليك دليل آخر في هذا المجال: ففي غرارة وأقصى شمالي توات بين تمنتيت وسبع غرارة في تلك المنطقة التي حافظت على لغة زناتة وجنسها حتى أيامنا هذه كانت تقوم دولة يهودية مستقلة استمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر. ولدينا تفاصيل وافية عن إبادة هذه القبيلة عام 1491 حين قضى عليها المسلمون بعد هزيمتهم في اسبانية.

وبنو نفوسه قبيلة طرابلسية. ومن المعروف أن الجمال قد انتشرت في المغرب انطلاقا من طرابلس. ومن المعروف أيضا أن ثورة يهودية قامت في عصر الإمبراطور تراجان انطلقت من برقة. وقد مدد رينان كثيرا على هذه الثورة "قام هؤلاء وعلى رأسهم شخص يدعى

لوقوفا عتبروه ملكا عليهم، بعمليات ذبح واسعة النطاق لليونانيين والرومان. وأكلوا لحمهم وتلذذوا بتلطيخ أيديهم بدمائهم منتزعين جلدهم عن أجسامهم ليجعلوا منه ثيابا يرتدونها ! ويقدر عدد سكان برقة الذين قضوا على هذا النحو بحوالي مئتي وعشرين ألفا. أي أن جميع السكان قد ذبحوا تقريبا وتحولت البلاد إلى صحراء قاحلة من جديد.

ولا تدل وقائع كهذه على مدى التعصب الديني اليهودي وحسب، بل على أن هؤلاء كانوا منظمين أحسن تنظيم أيضا. على أن برقة كانت آخر بقعة رومانية يشاهد فيها اليهود ظافرين. فاليهود إذن هم الذين قضوا على حكم الإغريق في برقة في بداية القرن الميلادي الثاني. وعلينا أن نبحث في برقة عن انطلاقة الزناتيين. أنها وقائع لا يسعنا إلا أن نربط بينها.

تقع بلاد زناتة حسب تحديد ابن خلدون بين كتلتين من القبائل البربرية هما سكان منطقة القبائل في الجزائر وقبائل الأطلس المراكشي، بحيث يفصل بينهما حاجز طبيعي كثيف.

واسم زنانة مرتبط ارتباطا وثيقا بالثورة الاجتماعية والسياسية الكبرى التي حصلت في المغرب بعد ظهور الجمل. ذلك لان قبيلة زنانة قد ظهرت في نفس الفترة التي ظهر فيها الجمل وكأن احدهما يحمل الآخر.

يبقى أن نوضح بعض القضايا الأخرى

البتر والبرنس

على الرغم من أن ابن خلدون وسائر المؤرخين العرب قد ذكروا زناتة منذ بداية الفتح العربي، فيبدو أن هؤلاء لم يكونوا ليمثلوا وحدهم جمالي القرن السابع كما أصبحوا فيما بعد.

ويتحدث ابن خلدون عن أصل البربر فيقول:

"يتفق الخبراء بعلم السلالات على إرجاع البربر لأصلين اثنين: البرنس والمدغيس. وكان مدغيس بالأبتر فأطلق على المتحدرين منه اسم البتر. ويدعى البرانس أولئك الذين يرجعون في أصلهم إلى برنس.

ويعلق البارون دي سلان مترجم ابن خلدون على ذلك فيقوا: البتر بالعربية جمع أبتر. واعتماد اللغة العربية الأصلية في المنطقة الموريتانية في ذلك الحين يدل على أن هذه

اللغة كانت شائعة في الوقت الذي بدأ فيه العلماء البربر يدونون أنسابهم. وتدل بعض الظواهر الأخرى على أن هذه الأنساب قد أعدت باللغة العربية في القرن الرابع الهجري. ونظرية سلان هذه منطقية كل الانطباق على واقعة لا تقبل الجدل: وهي أن المؤرخين الغربيين لم يذكروا شيئا عن إرجاع البربر إلى أصلين وهذا دليل واضح على أن البربر قد جاؤوا بعدهم. ويذكر ابن خلدون بين نسابي البربر ويوسف الوراق الذي نقل عن أيوب بن أبي زيد (صاحب الحمار)، وسابق بن سليمان المطماطي وهاني بن مصدور الكومي وكحلان بن علي لوا وغيرهم. ولا شك أن تمازجا بين السلالات قد حصل بعد الفتح العربي كانت نتيجته ما نعرفه عن نسب البربر.

ويرجع نسب البربر إلى فرعين متباينين إلى أن البعض لا يجد لهما أصلا واحدا. ويقول ابن خلدون إن مدغيس وبرنس يلقبان كلاهما بابن بر ولكن الكثير من النسابين لا يميلون لإرجاعهما لنفس الأب.

فجد البرانس متحدر من مازق ابن كنعان وجد البتر هو بر ابن قيس.

وفي نظرنا أن جميع هذه التسميات جاءت اعتباطا؛ لذلك اغفل المؤرخون الغربيون ذكر هذه السلالات.

ونحن نعلم أن المفهوم البيولوجي للتاريخ عند العرب هو الذي حدا بهم لتقسيم الشعوب على أساس الأنساب. فحين تصور عرب وبربر القرن العاشر أن نسبهم ينقسم إلى فرعين أرادوا بذلك أن يشيروا إلى سلالتين متباينتين من البربر. فما هما هاتان السلالتان؟

البتر

يعدد ابن خلدون قبائل البتر بشكل مستفيض لا نستطيع أن نمضي وراءه فيه. إذ يبدو لنا أن البتر متحدرون من نفوسه ولواته. أي من القبائل المعروفة بانتمائها لطرابلس.

ويقول ابن خلدون أن بني نفوسة أقاموا في نواحي طرابلس والمناطق المجاورة لها. وهم لا يزالون فيها حتى الآن أو أنهم أعطوا اسمهم على الأقل لجبل نفوسة وقد سكن بعض أحفادهم هناك.

ويبدو أن اللوا أو اللواته هم الذين يكونون القبيلة التي عاشت في برقة وحول اليونان أسماء أبنائها فأصبحوا الليبيين. ويقول ابن خلدون نقلا عن المسعودي: اللواته كانت من البدو المقيمين في نواحي برقة. ويضيف المسعودي (كما ذكر ابن خلدون) أن عددا كبيرا

من اللواتيين كانوا يقيمون في الواحات المصرية كما مسيطرين عليها في العصر الذي كتب فيه المسعودي. وقد تعرف ابن خلدون على بعض النسابين الذين ارجعوا اللواته لأصل قبطي.

وقد طبعت أفخاذ لواته بطابعها عدة مناطق في صحراء تونس وقسنطينة ونفزاوة اسم لا يزال يطلق حتى اليوم على مجموعة واحات الجريد. قبيلة نفزاوة احد أفخاذ لواته. وقد لعب بنو نفزاوة دورا مهما في بداية الفتح العربي.

وسدارته التي تقع على بعد عدة كيلومترات جنوبي ازرغلة اسم يطلق على مكان عثر فيه على آثار مهمة وبنو سدراته قبيلة لواتية يذكر ابن خلدون مجمل نسبها.

وبنو لواته من أهم الجمالين الذين أموا نواحي الأوراس قادمين من الشرق. وقد تعرف ابن خلدون في القرن الرابع عشر على أبناء هذه القبيلة في نواحي الأوراس وكانوا من القوة بحيث أنهم استطاعوا تجنيد ألف فارس كما كانوا خير عون للحفصيين حكام تونس. في نفس الحقبة التي كانت تقيم بالقرب من نغاوس قبيلة لواتية تقوم بجباية أموال كثيرة من سكان المدينة. ونغاوس واحة صغيرة معروفة تقع شمالي شرق هدنة.

ومجمل القول إن نفوسة ولواته قبيلتان يسهل تحديد مواقعهما.

وهناك طائفة أخرى مهمة من البتر تدعى ببني فاتن. ذكرها ابن خلدون في فصل كامل ويبدو أنها ليست من القبائل التي نزحت من الشرق وإنما تعتبر مغربية أصيلة.

وإليك ما يذكره ابن خلدون عن قبيلة متغرة إحدى هذه القبائل: كان أفرادها يقيمون في بيوت ثابتة من القش. كما كانوا موجودين في المغرب قبل ظهور الإسلام فيه. ويحدد المؤرخ العربي مواقعهم بجوار تلمسان في ممر تازه ويروي أن لهم قلعة اسمها تاونت وتقع بجوار البحر أي بضواحي تلمسان ليس بعيدا عن ندرومه.

وكان لهذه المنطقة من تلمسان اتصال وثيق بالصحراء. إذ أن بني متغرة لم يبقوا في أماكنهم وكانوا يغادرون بيوتهم المصنوعة من القش. وأبناء سجلماسة عاصمة مناطق النخيل الصحراوية بين تيوات وفجويج. حتى أن فجويج هي المنطقة الوحيدة التي كان فيها لبني متغرة سلطة سياسية في القرن الرابع عشر.

وبنو لماية فرع آخر من قبيلة بني فاتن. وهم أشقاء بني متغرة كما يروي ابن خلدون وكانوا يجوبون افريقية والمغرب كالبدو الرحل. غير أن معظمهم كانوا مقيمين في أواسط المغرب بجوار الصحراء.

وجدير بالذكر هنا أن بني لماية هم القبيلة التي أسست مملكة تاهرت. وبعد سقوطها تبعثر قوم بني لماية ومنهم من بلغ جنوبي تونس. فبنو جربة التي سميت الجزيرة باسمهم ينتمون لبني لماية.

وبنو مطماطة فرع آخر من بني فاتن واهم أشقاء بني متغرة وبني لماية. ويوجد في الوقت الحاضر جبلان يحملان اسم المطماطة كلاهما بعيد عن الآخر. الأول جنوبي الجريد التونسي ناحية ورسنيس. ويحدد ابن خلدون موقعهم الأصلي بشكل لا يرقى إليه الشك كان المطماطة في العصور القديمة يقطنون هضاب منداس والآن يعيش من تبقى منهم في ورسنيس.

ومن بني فاتن نذكر أيضا المغيلة وهما فئتان واحدة تسكن وسط المغرب والثانية تقطن السهول الممتدة من مصب شلف حتى مأذونة المدينة التي لا تزال موجودة (في عصر ابن خلدون) ومأذونة اليوم مدينة جميلة تقع في الضهرة شمالي شلف. أما الفئة الثانية فتقيم في المغرب الأقصى (مراكش) في الأراضي التي احتلتها وتقع بين فاس وسفرو مكناس ولا يزال فيها بعض من سلالتهم.

ثم يأتي بنو مديونة وهم كذلك أبناء فاتن وأشقاء المغيلة والمطماطة. وكانوا يقيمون في مقاطعة تلمسان حيث احتلوا الجزء الممتد من الجبل نسميه اليوم جبل بني راشد (جبل أمور اليوم) وحتى جبل ودجه الذي يحمل اسمهم. وهم اليوم بنوسنوس ومنهم أيضا من يقيم في غور تازه بجبل عين مديونة وآخرون يقيمون غربا شمالي فاس.

وأخيرا الكومية وهي أهم قبائل بني فاتن. وهي التي لحقت بعبد المؤمن إلى مراكش لتكون خير معين له وتعتبر مؤسسة الموحدين. "كانت قبيلة الكومية تقيم في الجهة الساحلية من بلاد المغرب الوسطي في نواحي ارشغول وتلمسان" ويضيف ابن خلدون أن احد أفخاذ القبيلة يحمل اسم ندرومه. إن تلمسان ومرفأها ارشغول (جزيرة رشفون الصغيرة عند مصب التفنه) ومدينة ندرومه القائمة حاليا. أدلة كافية لتحديد موطن بني كومية. ولم تنطفئ ذكراهم حتى الآن في التدراس نواحي ندرومة وغور. ويقول وليام مارسيه أن أهل هذه المنطقة لا يزالون يتكلمون لغة عربية قديمة تذكر بعهد الموحدين.

وإليك التوزيع الجغرافي الذي أعطاه ابن خلدون لقبيلة بني فاتن: أنها قبائل متحدرة من فاتن ابن تمزيت ابن دارس ابن مدغيس الأبتر.

ولسنا بالطبع قادرين على فهم لغة ابن خلدون السلالية هذه. غير انه بإمكاننا تحديد المواقع الجغرافية لهذه التسميات. وذلك لإيضاح الأمور. فبنو فاتن قبائل عثر

عليها الفتح العربي وهي في حالة تجمع عبر بلاد واسعة ومتمازجة، وهي أواسط المغرب والسهول المحاذية لسواحل وهران الممتدة عبر غور تازه، والهضاب الوهرانية والعالية، وشطرها المؤدي إلى الصحراء الكبرى.

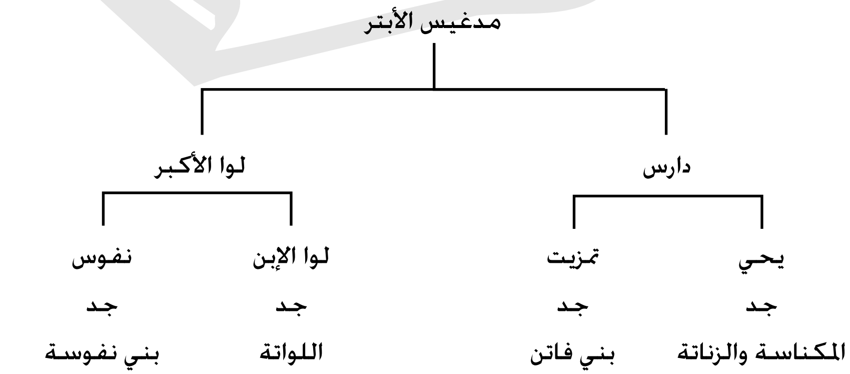
في نفس المنطقة أيضا كان يقيم بنو مكناسه الذين أعطوا اسمهم لمكناس. وكانوا يقطنون كما قال ابن خلدون على ضفاف الملوية ابتداء من منبعه ناحية سجلماسة حتى مصبه. ثم ابتداء من هذه المنطقة وحتى نواحي تازة. وقد أسس بنو مكناسة مدينة قرصيف ومنطقة تازه كما أنشأوا أسرة حاكمة في تسول وهي نقطة يمكن العثور عليها بين قرصيف وتازة.

كما حكمت أسرة مكناسية أخرى مدينة سجلماسة والمنطقة المحيطة بها. لكن هذا الفرع من بني مكناسة لا ينتمون لبني فاتن بل اقرب لبني زناتة.

والزناتة بين جميع قبائل البتر تحتل مكانة خاصة عند ابن خلدون حيث خصص لها الصفحات الطوال في الجزء الثالث من ترجمة سلان. ويقول أن البتر يتكونون من الزناتيين وبعض الأسر الأخرى.

وقد أصبحنا على علم بالتوزيع الجغرافي للزناتيين وهو مماثل لتوزيع البتر بشكل عام. ويشير النسابون العرب مع ذلك إلى قرابة شديدة بين بني فاتن وبني مكناسة الزناتيين من جهة، وبين بني نفوسة وبني لواتة من جهة ثانية. وهذا رسم بياني يوضح القرابة بينهما:

وهذا ما يتفق كل الاتفاق مع التوزيع الجغرافي. فبنو نفوسة وبنو لواتة من القبائل الشرقية المستوطنة وهم طرابلسيون. أما بنو فاتن والزناتيون فاقل صلة بالشرق. واغلب



الظن أنهم مستوطنون أصليون تزاوجوا مع قبائل أخرى. وهم متجمعون بنوع خاص في وسط المغرب ومنطقة الشلف ومنطقة تلمسان وغور تازه والهضاب الوهرانية.

على ضوء ذلك تمكننا الاستعانة بالخريطة لنحدد المواقع. فالبتر هم البربر الذين استوطنوا بين السهول المرتفعة والواطئة، الصحراوية والهضبة الجرداء، الممتدة بلا انقطاع من المنطقة الطرابلسية إلى غور تازه. وهم من البدو الرحل بالطبع. فليس في بلادهم ما يدل على غير ذلك. وهم رعاة للإبل أو معاونون لهؤلاء الرعاة. والبتر هم الزناتة أنفسهم لان القبيلة الواحدة تعرف عدة تسميات. وقد أمحى اسم البتر ليحل اسم الزناتة محله تدريجيا حين قويت شوكة هؤلاء وأصبحوا اشد سيطرة على سائر فروع البتر.

وهكذا يتبين لنا بعد تمحيص دقيق للمراجع العربية كيف ظهرت القبائل الجديدة مع ظهور الجمل.

إن دراسة فروع البتر توضح لنا تفاصيل دقيقة. فالمعاصرون يجدون بعض التمايز بين فئة شرقية استوطنت الصحراء الشرقية وهما قبيلتا النفزاوة ولواته. وفئة غربية أصلية مركزها تلمسان. والفئة الأولى هي التي جاءت بالجمل، لنعلم الفئة الثانية فن استخدامه. هاتان الفئتان هما اللتان كونتا قبيلة الزناتة مع الوقت.

وإذا كانت الكتب قد أغفلت اسم البتر تقريبا فهي لم تغفل جدهم مدغيس الأبتر.

وكلنا يعرف ضريح مدغاس الضخم في شمالي الأوراس وهو شبيه بضريح "النصرانية" في الجزائر وضريح جدار في تاهرت. أنها أضرحة ضخمة تضاهي أهرام مصر. سوى أنها مغربية محضة لان فيها طراز الرجم الليبية. أي عبارة عن كمية من الحجارة تلقى فوق الضريح. وهي تعود لأبناء الأسر الحاكمة قبل الإسلام.

وتعرف النسابون البربر على قبر مدغيس الأبتر بينها. فكلمة مدغاسن تعني قبر مدغيس. ولا حاجة للقول أن هذا الزعم غير صحيح لان مدغيس لم يكن موجودا. وإنما يعود الضريح لأحد الأمراء النوميديين. وقد سمي أحيانا بضريح صفاقس. على أن الأمر ليس واضحا كل الوضوح. فقبر "النصرانية" وقبور تاهرت تعود للأمراء الموريتانيين وليس النوميديين. وإذا كان اسم مدغيس الرجل الوهمي قد اخذ صفاقس، فهل يعني ذلك أن نسابي البربر يشعرون بوجود صلة بين النوميديين والبتر؟ بوسعنا في هذا المجال أن نطرح العديد من التساؤلات. لكنه من المرجح أن هؤلاء البتر حين قدموا من الشرق وضعوا يدهم على مدغاسن لأنهم وجدوه في طريقهم.

ومن المؤكد على كل حال أن اسم مدغاسن هذا المرتبط ارتباطا وثيقا بالضريح، يوضح النص الذي كتبه ابن خلدون. فمن الواضح أن المغرب قد عرف في العصر الوسيط الأول مجموعة من قبائل البتر التي تحدر منها الزناتيون. وهم مجموعة القبائل الرحالة الكبرى.

البرنس

ولنلق الآن ضوءا على فروع البرانس. وهو الفرع الذي لا يوليه ابن خلدون كبير اهتمام، ويكتفي بتخصيص عدة صفحات له. وعدم التفاته لهؤلاء أمر طبيعي، فمغرب ابن خلدون كان يسوده الزناتيون أي البتر. ومع الأسر الزناتية الحاكمة قضى كاتبنا معظم حياته الناشطة.

أما أهم قبائل البرانس فهي كتامة وصنهاجة ومصمودة.

وقبيلة مصمودة هم سكان جبال الأطلس المراكشي الذين ساندوا الموحدين. وسنتحدث فيما بعد عن الكتاميين والصنهاجيين الذين يعتبرون أجداد القبائل الجزائريين. ولنشر هنا إلى أن هناك قبيلة صنهاجية أخرى في مراكش يسميها ابن خلدون صنهاجة العرق الثالث وهي غير صنهاجة الجزائر. ويطلق عليها اسم زناغة وكانت مستوطنة في الناحية الشرقية للأطلس المراكشي شرقي مصموده. وهي التي تشكل اليوم جماعة البرابر في مراكش المقيمين بين غورتازه والصحراء. ولنضف هنا أن الغماريين يقيمون في "الريف" الموازي للمتوسط والغماريون قبيلة مصمودية. فجميع الجبال المراكشية ومناطق القبائل الجزائرية تعتبر موطنا للبرانس.

وهناك قبيلة أخرى من البرانس هي قبيلة اورابة وقد لعبت دورا بارزا في بداية الفتح العربي بقيادة كسيلة احد أبنائها. ولا يضع ابن خلدون حدودا واضحة لها. ويرى ماسكوراي أنها القبيلة التي تقطن سلسلة الأوراس الغربية ويعيش أحفادها حاليا في الوديان العالية وهي منطقة بشكل ملحوظ وتدعى وادي العبدي ووادي العرب. ولعل ماسكوراي قد بالغ في إرجاعهم لهذا الأصل لأنهم يختلفون حتى من حيث اللهجة عن جيرانهم الزناتيين المقيمين في الأوراس الشرقي. ولابد من القول هنا إن قلب الأوراس يتمتع بميزات خاصة لأنه كان في منأى عن غزو الجمالين الرحل وتسرب البتر.

يمكننا -بغية إكمال الائحة-إضافة فرعين صغيرين: بنو عجيسة وهم فرع آخر من البرانس كانوا يقيمون بجوار صنهاجة في الجبال المطلة على مسيلة ومنهم فئة استوطنت جبل القلعة (جبل بني حماد). ولكن لماذا ميزهم النسابون عن الصنهاجيين

والقبائل رغم أنهم عاشوا بجوارهم؟ مرد ذلك إلى أنهم رفضوا التكتل مع الآخرين وانضموا لصفوف العدو. "وحيث أنهم حاربوا مع أبي يزيد (صاحب الحمار). فقد اختار أن يلجأ إليهم ويتحصن في القلعة. بعد ذلك اختار حماد ابن بلكين في أرضهم مكانا بنى فيه مدينة جعلها مقرا له. وهكذا انتزعت الأرض من بني عجيسة فتمردوا عليه فحصدهم بالسيف.

هناك أيضا فرع آخر هم بنو عسدجة وينسبهم البعض للبرانس. وكانوا يقيمون في نواحي وهران. فهم من البتر بالنسبة لمحل إقامتهم. لذلك اعتبرهم عدد من النسابين البربر في عداد القبائل الزناتية. لكنهم خانوا العهد وتحالفوا مع قبيلة كتامة التي أقطعتهم مدينة وهران ثمنا لولائهم. لقد كانوا يكرهون الزناتيين كرها شديدا ولم يخلصوا لهم. ومن المعروف أن وهران كانت مركزا حيويا للاتصال بين الأمويين في اسبانيا وبين الزناتيين حلفائهم الدائمين. وجرى الاستيلاء على وهران وأحرقت المدينة وأبيد عدد كبير من هذه القبيلة.

وليست الهوة سحيقة بين المنطقة الجبلية والمناطق السهلية الكبرى على كل حال فهناك نقاط التقاء بينها. وكانت روح الخيانة والتردد سائدة بين أولئك الناس المقيمين على الحدود. يبدو لي والحالة هذه أن مثال عجيسة وعسدجة يلقي ضوءا على استنادات النسابين. فهم لا يستطيعون أن ينظروا للوقائع التاريخية إلا من زاوية النسب والعرق والتبني. ولا يعنون إلا بالمفاخرة.

من هنا يمكن أن نخلص للوقائع التالية: أن أحفاد البرانس هم الذين استقروا في الجبال. أما أبناء مدغيس فهم سكان السهول الرحل. ذلك أمر لا ريب فيه في إطار بلاد المغرب نفسها.

الملثمون

وفي أعماق الصحراء من ناحية السودان يعيش قوم آخرون من البربر الذين ر ينتمون لتينك الفئتين الانفتي الذكر. وهؤلاء هم الملثمون الذين تحدر منهم الطوارق. وينتمون لقبيلتي اللمته واللمتونه. ويسهب ابن خلدون في الحديث عن القوم "الذين كانوا يضعون على وجوههم اللثام وهو زي يفرقهم عن سائر الأمم. أقام الملثمون في المناطق المجدبة الممتدة وسط الصحراء حيث احتلوا أماكن مجاورة لريف الحبشة (السودان اليوم) وكذلك المنطقة الفاصلة بين بلاد البربر وبلاد الزنوج".

ويعتبر هؤلاء من كبار الجمالين الرحل وهذا ما يميزهم عن غيرهم من سكان المغرب.

وقد اثروا الأماكن البعيدة عن التل والبلدان الخيرة لأنهم كانوا يعيشون على لبن النوق ولحم الإبل.

ولكن هل هم من البتر أم من البرانس؟

ليست الإجابة على هذا السؤال لان هناك فئتين م الملثمين. فالغربيون أبناء لمته ولمتونه أسسوا أسرة المرابطين ويمتون بصلة النسب لكتلة الزناغة في مراكش. كما ذكروا قرابتهم مع صنهاجيي القبائل. وبذلك يكونون من البرانس.

لكن الملثمين الشرقيين ينتمون إلى الهقار ومنهم قبيلة هوارة التي اشتهرت في مطلع الفتح العربي. ومن المؤكد أن بني هوارة قدموا من برقة وطرابلس وكان لهم دور يذكر في تونس والأوراس. فهم إذن من البتر أشقاء بني نفوسة ولواتة.

ويغوص النسابون في سلسلة من الزيجات المعقدة للربط بين هاتين الفئتين بصورة لا يمكن الاعتماد عليها. لكن هناك ملامح أساسية بوسعنا اللجوء إليها.

فجميع الملثمين من شرقيين وغربيين هم أبناء تسكي العرجاء. وتسكي امرأة من البتر متحدرة من مدغيس، وقد اقترنت بواحد من البتر ثم بعدة برانس. لكنها هي الأصل. والملثمون هم أبناء تسكي العرجاء قبل كل شيء. قد يبدو الأمر مستغربا لكن بين ملثمي اليوم دلائل كثيرة تشير لأولوية الأمر.

ولو شئنا أن نغربل ما مر معنا من انساب يمكننا الوصول إلى نتيجة دقيقة وهي أن البربر ينقسمون لثلاث فئات كبيرة متمايزة جغرافيا، أي أنهم ينتمون لثلاث مقاطعات تقطنها ثلاث قبائل مختلفة لكل منها سماتها الخاصة.

كان البتر أبناء مدغيس فيهم زناتة أهم قبائلهم -كانوا محاطين على الخريطة بملثمي الصحراء البعيدة من جهة (وهم المتحدرون من تسكي العرجاء) وبالقبائل الجزائريين والمراكشيين سكان الجبال الذين ينتسبون إلى برنس.

وفي هذا المجال يأتي و.مارسيه بتفسير جديد بما له من طول باع في اللغة العربية.

يرى مارسيه أن التمييز بين البرانس والبتر يعود للقرن الثامن الميلادي على الأقل ويرتكز أساسا على فوارق اللباس التي لاحظها العرب عند البربر في أول عهدهم بهم. فمنهم من كان يرتدي البرنس، فأطلق عليهم اسم البرانس ومنهم من كان يرتدي ثوبا اقصر فسموا بالبتر.

ولكن كيف لنا أن نصنف الملثمين ولباسهم يختلف اختلافا شديدا عن لباس كل من البتر والبرانس؟ مارسيه نفسه يقول أن رأيه محض افتراض.

ولنشر هنا إلى أن أحفادنا البتر هم الذين يرتدون البرنس في أيامنا هذه وهو لباس الفرسان. واصل التفرقة بين البرانس والبتر لا يزال مختبئا في غياهب العصور المظلمة.

الخلاصة

لا يسعنا هنا إلا أن نعترف بمحاذير اللجوء لعلم السلالات كما أوردها ابن خلدون في محاولة استكشاف أصل البربر.

غير أنه ليس بمستطاعنا أن نضرب عرض الحائط بتردد اسم البرانس والبتر كل لحظة فيما أورده المؤرخ العربي الكبير. لاسيما وانه لا يستحيل علينا أن ننقل المفهوم البيولوجي والسلالي إلى صعيد آخر، وآخر هو الصعيد الجغرافي الذي نحسن فهمه.

إن تلكؤنا في هذا المجال هو السبب الأساسي لذلك الغموض الذي يكتنف تاريخ المغرب المسلم.

لقد درج الباحثون على تقسيم تاريخ المغرب إلى قسمين منذ ألفي سنة حتى اليوم. فنحن نتحدث اليوم عن العرب والقبائل. وفي العهد القديم كانوا يتحدثون عن النوميديين والمغاربة. وفي العصر الوسيط ورد اسم البتر والبرانس. وما هي أسماء متباينة لفئات معينة من البدو والحضر تغيرت ألقابها بتغير الظروف.

وسنذكر في فصل لاحق كيف أصبح البتر الزناتيون عربا. وبتنا نعرف كيف أن ظهور الجمل قد احدث ثورة في عصر النوميديين والبتر. وان نحن شئنا إغفال هذه الثورة، والإمساك عن ذكر شخصية قبائل البتر، فلابد لتاريخ المغرب أن يبقى في ظلامه.

وحري بنا أن نذكر أن الاختلاف الحياتي ليس وحيدا بين البتر والبرانس. لان فريقا كبيرا من البتر يعدون غرباء من أبناء الصحراء. ثم إن الفريق الأصيل تأثر كثير بالفريق الطارئ. لكن البرانس -ولاسيما الشرقيين منهم أجداد قبائل الجزائر، حافظوا على اتصالهم الوثيق بقرطاجة في العهدين البوني والروماني. أي أنهم ظلوا على صلة بالحضارة. وكانوا من معتنقي النصرانية عند قدوم المسلمين. وكثيرون من لبتر كانوا يهودا أو وثنيين كما أورد المؤرخون العرب. فكيف لنا أن نفهم الأمور لو تجاوزنا الفوارق العميقة بين هاتين الطائفتين من سكان المغرب؟

واليك هذه الخاصة الأخيرة التي تدل على وجود مغربين متمايزين لكل منهما مجتمعه ونمط حياته.

فهناك فوارق جمة في طراز البناء لدى البتر أو الزناتيين ثم لدى البرانس الذين نطلق عليهم اسم القبائل. الفارق الأول هو أن بيت القبائل له سطح من الآجر، وبيت الزناتة مزود بشرفة. وهو دليل كبير على الفارق بين الاثنين. ذلك أن الشرفة ضرورية في المجتمع الشرقي حيث المرأة محجبة لا تخرج إلى الشارع وليس بالإمكان عزل النساء جنبا إلى جنب إلا بواسطة الشرفاء.

والفارق الآخر الذي أعجب من إغفاله، إنما هو الطابع المدني للوحدات السكنية الخاصة بالزناتيين. فالمجتمع السكني في الصحراء يضم نحو مئة شخص وهو مبني من الطين الصلب على غرار بابل وممفيس، لكن هندسته ماهرة ومعقدة، حيث أن البيوت مكونة من عدة طوابق تصل بينها أدراج رصفت بإحكام. وللبيوت شرفات متقنة لها مزاريب. وفي الشوارع ممرات مسقوفة، ومقاعد للعموم يجلس عليها عابرو السبيل. وفي القرية سوق تتخللها حوانيت التجار والصناع وكذلك المقاهي وأماكن اللهو.

على هذه القرية الزناتية تخيم روح البداوة كما نرى. فبود الراعي الذي يلحق بقطيعه شهورا أن يعود إلى مكان أمين يجد فيه الراحة واللذة. ولا يرى امرأته تخرج من بيتها ليبصر بها الرعيان الآخرون. وغالبا ما يكون البيت ملكا لهذا الراعي النبيل الذي بجانبه السيف دائما. فهو شديد الحرص على شرفه. هكذا نرى ان المجتمعات السكنية في توات أو غرارة أو فجويج أشبه بصورة مصغرة لمدينة تلمسان. مع فارق المستوى والإمكانيات.

أما التجمع السكني عند القبائل فعلى العكس من ذلك تماما حيث يعيش القبلي في القرية حياة مستقلة خشنة. وحتى المدن نفسها كقسنطينية وميديا ومليانة ليست سوى قرى كبيرة.

ويلاحظ السياح أن هذه المدن لا تضاهي من ناحية بنائها وتصاميمها تلمسان عاصمة الزناتيين تلك اللؤلؤة الشرقية.

وهنا تتزاحم في ذهننا مجموعة من الأفكار التي لم يسهب في بحثها احد في حين أنها جديرة بالاهتمام. وخليق بنا أن نتذكر أن البتر والبرانس قد تركوا سلالتين متباينتين لكل منهما ميزاتها الخاصة المستقلة عن الأخرى.

الكتاب الرابع
العصور المظلمة في بلاد المغرب

الفتح العربي
نوميديا القديمة مركز المقاومة

بداية الفتح العربي

إذا كانت بلاد المغرب قد طبعت بطابع قرطاجة الشرقي في طيلة عهد الإمبراطورية الرومانية فان ظهور الجمل ونشوء القبائل البدوية الكبرى قد أديا لخلق مغرب جديد هو مغرب البتر وزناتة إلى جانب المغرب اللاتيني نوعا وهو مغرب جديد هو مغرب البتر وزناتة إلى جانب المغرب اللاتيني نوعا وهو مغرب البرانس. تلك هي وقائع لا يمكن بدونها أن نفهم حقيقة الفتح العربي. وليس من السهل سرد تاريخه حتى بعد تنبهنا لهذه الحقيقة.

لمحة إجمالية

أصبح تاريخ المغرب متشابكا جدا بعد انهيار الحكم البيزنطي. فهل بوسعنا أن نعثر على خطوطه العامة رغم كل شيء؟ يبدو لي أن الأمر ممكن.

إن نتائج الفتح العربي لا تزال تبهرنا بعد مرور اثني عشر قرنا عليها. لقد استعرب المغرب بعمق واعتنق الإسلام بأصالة. وأنها لنتيجة مدهشة لاسيما وانه ما من فتح آخر في التاريخ كان له هذا الأثر البعيد. ولنعد الآن إلى القرن السابع الميلادي عصر الفتح الإسلامي. لقد وقعت ثورة كبرى في ذلك الوقت، واخترقت البلاد ذاك الحاجز الكثيف الذي يفصل بين الشرق والغرب. وإنها لقفزة تعجز الثورة الفرنسية أو الروسية عن مضاهاتها، وإذا انعمنا النظر في التفاصيل وجدنا أن الفتح العربي كان طويلا ومفعما بالحوادث. ذلك لان مقاومة عنيدة قد وقفت في وجهه.

بدأت أولى الحملات العربية على المغرب في عام 641 و642. وقد هزم البطريق جرجير (غريغوار) وجماعته البيزنطية في سبيطلة سنة 647. أسست مدينة القيروان سنة 670. ويعود تاريخ حملة عقبة (التي لم تصل إلى نتائج مستمرة) التي قادت العرب حتى الأطلسي لسنة 683. وبدأت حملة موسى بن نصير الثانية الكبرى سنة 708 حيث اقتفى أثار عقبة. وكانت غزوة اسبانية سنة 711.

استمرت الغزوات إذن سبعين سنة قبل فتح البلاد. وانهزام العرب مرات كثيرة وطردوا من البلاد كليا خلال تلك السنوات. فقد أبيد عقبة وجيشه حتى آخر رجل في بسكره (683). وقد أخلى زهير افريقية سنة 690 بعد إحرازه انتصارا مؤقتا وتراجع نحو مصر وقتل في برقة وهو في طريقه إليها. وهزم حسان سنة 698 بعد أن قدم على رأس جيش جرار جاء ليثأر لأسلافه. كان ذلك في مسكيانه على سفح الأوراس. وكانت الهزيمة مرة إلى حد اضطر فيه العرب للتراجع إلى برقة بغية تنظيم صفوفهم ومحاولة الصمود. ولجأ حسان إلى تحصينات دعيت بقصور حسان.

والقيروان التي كانت مخزنا للسلاح كما يدل اسمها سقطت عدة مرات في أيدي البربر قبل أن يسترجعها العرب.

ويروي المؤرخون العرب مرارة هذه الحرب فيقول ابن أبي يزيد أن البربر قد حنثوا بوعودهم اثنتي عشرة مرة. عادوا فيها لمحاربة العرب. ليس هذا الرقم بالطبع.

ويقول ابن عبد الحكم أقدم المؤرخين العرب أن الخليفة عمر بن الخطاب أجاب على المطالبين بغزو افريقية قائلا:

لا ينبغي أن نسمي هذه البلاد بافريقية، بل هي المفرقة الغادرة ولن اسمح بالاقتراب منها أو الحملة عليها ما دام دمع أجفاني يروي مآقي. قد تكون هذه الكلمات منحولة غير أنها على يأس الرأي العام من الحملات الفاشلة المتوالية.

والمغرب بعيد عن مصر التي تصلح قاعدة للغزو. ويفصله عنها نحو ألفي كيلومتر من الطرقات الصحراوية التي يندر فيها الماء.

ولو تنبهنا لهذا الواقع لوجدنا أن مجهود العرب في فتح المغرب كان عظيما وكذلك كانت مقاومة المغاربة. فلعل هؤلاء باتوا بعد سبعة قرون من السيطرة الرومانية والبيزنطية يرفضون أي نوع من أنواع التعاون مع الأجنبي.

ولم يحقق العرب نصرهم النهائي وفتح اسبانية إلا على يد موسى بن نصير. في تلك الفترة أصبح المغرب محاطا بمركزين من مراكز الإشعاع الإسلامي تونس من جهة وبلاد الأندلس من جهة أخرى، ولم يعد لديه مجال كبير للرفض. غير أن الخلافة الإسلامية لم تبسط سيطرتها إلا على تونس والأندلس حيث استطاع الإسلام أن يستقطب حوله الناس في هاتين المنطقتين الحضاريتين. لكن المغرب بحد ذاته ظل في حالة عصيان مستمر.

ففي سنة 741 تم القضاء على الجيش العربي مرتين في مراكش. كان ذلك في معركة طنجة يوم الشرفاء الذي قتل فيه جميع العرب ثم على شواطئ وادي سبع حيث استشهد القائد العربي كلثوم وهو يتلو آيات من القران.

وفي سنة 757 هزمت قبيلة ورفجومة البربرية جيش الخليفة واستولت على القيروان ونهبتها. وفي سنة 771 حاصر البربر القيروان مرة أخرى وقتل عامل الخليفة عمر في معركة يائسة انقض فيها على الأعداء "كالجمل الهائج". كما كتب حسان للخليفة يقول: يبدو فتح افريقية أمرا مستحيلا فما تكاد تباد قبيلة بربرية حتى تقوم في مكانها قبيلة أخرى.

وابتداء من القرن التاسع انقلبت الأشياء وأصبح المغرب هو المهاجم وأقدمت قبيلة بربرية على طرد العرب من افريقية وتابعت هجومها في الاتجاه المعاكس حتى بلغت مصر وأنشأت فيها حكم الفاطميين.

وتوصلت الخلافة في النهاية لنشر الإسلام في بلاد المغرب لكنها لم تتمكن من إخضاعه لسلطتها بكل معنى الكلمة.

وبعد انهيار السلطة المسيحية وقيام الإسلام في المغرب، بدأت البلاد تعي ذاتها وتكوينها السياسي طيلة القرون الوسطى. غير أنها لم تفلح في ذلك. على الرغم من أن ابن خلدون تحدث عن صفات مميزة عند البربر حيث قال: لقد كان البربر على الدوام شعبا قويا مهيب الجانب شجاعا كثير العدد. انه شعب حقيقي كسائر الشعوب شأن العرب والفرس والإغريق والرومان. ولكن ما الذي حال دون وعي البربر لذاتهم، وحتى أن ذكراهم قد تبددت بعد ابن خلدون كما أمحى اسمهم من البلاد البربرية؟ لقد سبق لنا القول إن هذه هي المعظلة الرئيسية في مجمل تاريخ المغرب. وإذا أمكنت الإجابة على هذا السؤال، فعلينا أن نبحث عنها في العصر الوسيط الأول حيث كان المغرب سيد مصيره.

ولا يستحيل علينا تفسير تلك الحقبة ن التاريخ رغم صعوبتها. وعلينا أن نزيح ظل الغمامة التي أوجدها علماء الأنساب في سردهم لأسماء العائلات بتواريخها الدقيقة. فبإمكاننا على ما أظن أن ننظم هذه الأسماء ونصنفها. ولن يتم ذلك عن طريق التعلق بأسماء الأبطال والتفاصيل المحيطة بحياتهم. وإنما يقتضي الأمر تحديد الرقعة الجغرافية التي أغفلها المؤرخون العرب إغفالا تاما. وهذا مجال رحب للجغرافيا لتشد أزر التاريخ.

وأظن أننا لو لجأنا إليها سنستطيع ولا شك أن نزيح تلك الغمامة وان نشهد وجود مقاطعات عديدة رفعت علم المغرب وقامت بجهود بائسة من اجل ذلك.

موقف افريقية. الصدمة الأولى.

لابد وان يتبادر للذهن أن افريقية هي مهد المقاومة المغربية نظرا لتأثرها بالحضارة البونية والرومانية. وقد صح فيها قول ابن خلدون في الحضارات الشرقية القديمة كبلاد ما بين النهرين وسورية التي حل فيها الفتح الإسلامي فجأة فاعتنقت الإسلام على الفور. فحين طرد المسلمون الجيش الأجنبي لم يبق هناك خوف من المقاومة أو الثورة.

وينطبق الأمر كليا على افريقية بحد ذاتها أو على قرطاجة بالأحرى.

وقد ذكر المؤرخون العرب المعروفون بمبالغاتهم أخبار ابنة البطريق جرجير التي سموها آمنة. وقالوا أنها كانت من نصيب واحد من الأنصار. فوضعها هذا على طريق جمل وسار بها وهو يردد: يا ابنة جرجير ستسيرين مشيا على الأقدام. ففي الحجاز تنتظرك سيدتك حيث ستحملين الماء في القرب.

ولما سمعت هذا الكلام سألت عن معناه وما إن فهمت حتى ألقت بنفسها من على ظهر جملها فكسرت عنقها وماتت.

والواقع انه لا يسهل علينا من المؤرخين العرب أن نميز الحقيقة من الخيال. وقد تكون آمنة غير موجودة على الإطلاق. لكنها على كل حال ترمز لتلك الحقبة الرهيبة التي ترافق جميع الثورات. وتمثل بنوع خاص امرأة ارستقراطية مرفهة في أيدي بدو رحل. لقد كان العرب من الذكاء بحيث أدركوا معنى المأساة. ومن القسوة بحيث أبوا إلا أن يستمتعوا بها. ولا شك أم حوادث أليمة قد وقعت غير أنها ليست كثيرة العدد.

ومن المدهش حقا إلا نعثر على اثر لقرطاجة أو المدن المجاورة لها في تلك الفترة المحمومة من بداية الفتح العربي. فقد هزم الجيش البيزنطي في سبيطلة بقيادة جرجير جنوبي تونس. لكن العرب لم يزحفوا على قرطاجة بل أقاموا بما لهم من خبراء حكومة نظامية تجبي الضرائب. ثم لم يعنوا بقرطاجة إلا مرة واحدة سنة 698 (تقريبا). في نفس الفترة أي بعد نصف قرن من معركة سبيطلة كانت قرطاجة في أيدي البيزنطيين وفيها جيش وأسطول بيزنطيان. ووضع حسان حاكم القيروان الجديد حدا لهذا التهديد وهاجم قرطاجة مرتين في خلال شهور أو أسابيع. وعاد الأسطول البيزنطي للاستيلاء على المدينة بين الفترتين. الأمر الذي مكن السكان من الهجرة حيث قصد بعضهم

إلى صقلية والبعض الآخر اسبانية. ويقول ابن عبد الحكم إنه لم يبق في المدينة سوى القلائل ثم فقراء الروم أما الباقي ففر مع الحاكم. ويضيف البيان أن ما تبقى من السكان استجاب لنداء حسان بإخلاء المدينة بعد تدميرها وتقويض أركانها. وقد جاء الأثير برواية مماثلة: جاب حسان المدينة برجاله فروع السكان الذين استجابوا لطلبه بتهديم المدينة.

واختفت قرطاجة لتأخذ تونس مكانها على الفور. وأمر حسان نفسه بشق قناة تصل بحيرة المدينة بالبحر. فليس بوسع الخليفة الذي ليس له منفذ على البحر أن يبقي على مرفأ قرطاجة المنعزل بحيث يصعب الذود عنه.انه حدث مهم. يعتبر عملا عسكريا صغيرا جرى تنفيذه بسرعة. فمن الواجب أقفال آخر منفذ تستطيع من بيزنطة إرسال إمداداتها. مما يذكرنا بحصار سبيون اميليان لقرطاجة وما تميز به من قوة كفاح وحماسة شعبية لدى البونيين. كما يذكرنا باستروبال التي ألقت بولديها في الهيكل الملتهب ثم قفزت وراءها في اللهب. كانت قرطاجة في ذلك الوقت قلب المغرب النابض. أما في سنة 798 فأصبحت ثانوية ولم تعد هي التي تقف في وجه الفاتحين العرب.

وتطلع الفاتحون إلى القيروان جوهرة الصحراء وهي المدينة الواقعة على الطريق المؤدية إلى مصر وتصلح أن تكون مركزا للهجوم والتراجع. كما أنها تواجه الأوراس. ففي هذه المدينة وليس في غيرها من المدن الشمالية يكمن العدو المهيب الجانب. ذاك العدو الذي لا يمكن القضاء عليه كليا في المرتفعات الجبلية والوديان العالية الممتدة نحو الشمال. تلك هي نوميديا الرومانية والقرطاجية بالضبط.

ومما لا شك فيه أن أقوى صدام وقع في السنوات العشر الأولى للفتح العربي كان حول الأوراس. وظل الوضع كما هو عليه عندما عاد البيزنطيون للاستيلاء على المنطقة. وقد ركز سليمان الخصي قائد البيزنطيين معظم جهوده العسكرية على الأوراس ونوميديا. ولم تتكرر هذه الظاهرة مرة أخرى. ولم يعد احد يأتي على ذكر نوميديا إلا لماما في تاريخ المغرب. ذلك أن قلب الغرب النابض قد تحول إلى مكان آخر.

نوميديا الطبيعية

نوميديا التي أصبحت اليوم بلاد الشاوية متميزة منذ القدم من حيث طبيعة أرضها ومناخها.

أما الأوراس فقلعة جبلية يسهل الدفاع عنها لان عبورها شاق. ويطلق اليوم على المنطقة الممتدة شمالا اسم مرتفعات قسنطينة ولكن الاسم لم يحسن اختياره. وذلك لأنها ليست كالمرتفعات الأخرى الممتدة من هدنة إلى مولوية. وبإمكان كل مسافر

بالقطار بين قسنطينة وبسكرة أن يلاحظ ذلك. فهي سهول عالية تمتد على شكل أفقي امتدادا محدودا متقطعا تتخلله بعض السلاسل المرتفعة أحيانا. فهناك يتداخل السهل والجبل بصورة غير منتظمة ليكونا طبيعة مميزة، تختلف بالطبع عن جبال القبائل.

كما وتتميز المنطقة بمناخها الخاص، وهي معروفة بسهولها ذات الجو الجاف الغنية بالمراعي على نحو مختلف عن المرتفعات الهضبية نفسها. وهي غنية بمصادر المياه، وتجذب التجمعات البشرية المتطلعة لحياة الاستقرار. وهكذا يمكن اعتبارها منطقة متوسطة بين بلاد القبائل والمرتفعات العالية.

وفي العصور القديمة وقبل ظهور الجمل الذي نقل الحياة البدوية للسهوب والصحارى كانت نوميديا بلاد البداوة الأولى.

كما كانت نافذة لموريتانيا تقف منعها في وجه الفتح العربي. ويبدو هذا الأمر واضحا رغم ضآلة المعلومات التاريخية في هذا المجال ورغم صعوبة الحديث بدقة عما جرى في تلك الحقبة.

وليس ذلك بسبب الغموض والإبهام اللذان اكتفا كتابيات المؤرخين العرب عن العلاقات العربية البربرية فحسب، بل لأننا لا نملك معلومات كافية تسمح لنا بغربلة ما أورده هؤلاء عن نوميديا في القرن السابع.

ويعتبر تاريخ نوميديا من أصعب الدراسات حول المغرب لأنها سارت في طريق يصعب تتبعه.

نوميديا في العهدين القرطاجي والروماني

نتتبع الآن مسيرة نوميديا في عصر قرطاجة وروما. كانت في البداية موطن البدو الرحل، الذين لم يعرفوا الإبل والخيام، وكانوا يستعملون في تنقلاتهم بيوتا من القش ذات عجلات. (تدعى مباليا كما سماها القدماء). لقد كان سكانها مجموعة من القبائل الكبيرة المنضوية تحت لواء أمراء شديدي البأس من أمثال مسنيسا وصفاقس وجوغرتا.

وتعرضت نوميديا لتحول كبير في عهد الإمبراطورية الرومانية. وأصبحت البلاد مركزا للزراعات المستقرة. وفيها أحرزت السيطرة الرومانية على نجاحاتها الكبيرة وقامت المدن الكبرى على الهضبة العالية أو في الأودية العالية شمالي الأوراس. كما قامت المدن أيضا على سفوح الجبال ومنها تافيستا ومسكولا وباغاي وتمجاد ولمبيز وتبنه. وهناك كان

مركز الثقل في قوة افريقية العسكرية حيث كانت تتمركز إحدى الفرق التابعة للجيش الروماني الثالث بصورة مستمرة. ولو اتجهنا أكثر نحو لوجدنا مدنا أخرى فوق الهضبة العالية مثل مادورا موطن القديس اغسطينوس وابوليا. لقد أصبحت المنطقة مختلفة كل الاختلاف عن نوميديا التي ألفناها، سوى أن الرومان حافظوا على اسمها بعد اختفاء البدو الرحل. في نفس الفترة لم يستطع الرومان السيطرة على موريتانيا، جبال القبائل حاليا، بصورة كلية. فالآثار الرومانية فيها نادرة. وذلك على الرغم من أراضيها المروية وإمكانياتها الزراعية. ولو تعمقنا في الأمر لما استغربنا هذه الظاهرة. فالفلاح حيثما كان لا يتخلى عن أرضه بسهولة. أما البدوي فليس له جذور ولا يخشى جانبه إلا في الحرب في حين أن حياة النظام والاستقرار والأمن من شأنها أن تقضي عليه تدريجيا.

ويوجد بمحاذاة الصحراء على المرتفعات العالية أراض زراعية لا تخفى على ذكاء الفلاح نظرا لوفرة المطر فيها. غير أنها في نفس الوقت مناطق يتطلع إليها رعيان الماشية الرحل. لذا تعرضت لمصير تقلب بتقلب الأنظمة السياسية. ففي عهد السيرة الرومانية -بعيدا عن الجيش الثالث- كانت نوميديا بلد المحراث والبساتين. بساتين الزيتون بنوع خاص. فقد كانت افريقية الرومان اكبر مصدر للزيت في عهد الإمبراطورية. وقد عثر علماء الآثار على بقايا قرب الزيت الإفريقي موزعة عبر العالم المتوسطي. وأصبحت الملكية الزراعية معتمدة بالدرجة الأولى. فالفلاح الصغير الذي يملك حقله يجد في تنويع إنتاجه ولا ينسى أن يستهلك منه القسط الأوفر لأنه يفكر برفاهيته قبل كل شيء. وقد لفتت الثورات الزراعية في أوروبا أنظار الاقتصاديين لهذه الناحية.

وأضحت نوميديا بلدا يقطنه ارستقراطيون من لاتين وأشبههم يعيشون على استغلال الفلاحين. وكان هناك فارق كبير في مستوى المعيشة بين طبقة الارستقراطيين وطبقة الفلاحين. على انه ليس بالفارق الوحيد. فهناك فارق عرقي أو لغوي بالأحرى. إذ ظلت الطبقة الشعبية محافظة على اللغات القديمة من بونية أو بربرية. وهو أمر لا تصعب ملاحظته لان هذا الموقف الخطر أدى لتفجر الدوناتية في القرن الرابع. أنها ظاهرة مهمة تساعدنا على فهم التطور الذي لحق بنوميديا. لقد كان انفجارا دينيا ليس بحثه من شأننا.

فوراء مظاهر التمجيد الدينية، يوجد شيء انسني ارضي، إلا وهي الكراهية بين الطبقات والأعراق. أنها ثورة الطبقة الشعبية. فقد كان المنتمون إليها يكرهون الأسياد والأغنياء، فإذا شاهدوا سيدا فوق عربته يحيط به العبيد عمدوا لإنزاله واصعدوا العبيد

إلى العربة مكانه وأرغموه على السير على قدميه. ويفاخرون بأنهم دعاة المساواة على الأرض ويدعون العبيد إلى الحرية.

تلك هي الثورة الاجتماعية التي قام بها الشعب ضد الإمبراطورية الرومانية. على أن الدوناتية ليست هي التي قضت على الإمبراطورية وإن ساهمت في زعزعتها. ولسنا هنا بصدد بحث أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية، وجل ما في الأمر أننا تكلمنا على الدوناتية بغية إلقاء الضوء على ارض نوميديا وظروفها الاقتصادية في العهد الروماني.

وكما جرت العادة في المغرب كان من الضروري أن تقوم سلطة أجنبية جديدة لتطرد السلطة الأجنبية التي سبقتها.

وجاء دور الونداليين هذه المرة، لكن افريقية في عهد هؤلاء لم تعرف المؤرخين. والقديس اغسطنيوس مصدر معلوماتنا الوحيد عن الدوناتية مات أثناء حصار الونداليين لهيبون.

وكل ما نعلمه علم اليقين أن تحولا عظيما قد لحق بنوميديا زمن السيطرة الوندالية. فجميع المدن الرومانية أو أكثريتها الساحقة قد دمرت تماما ولم يعثر على أثارها إلا بعد عشر قرنا، وكانت أثارا عظيمة. ولكن لماذا لم تستقر الحياة كما كانت عليه في نوميديا؟ مرد ذلك للصراع بين مفهومين اقتصاديين: المراعي والزراعة. ذلك أن الزراعة قد ضعفت تماما في عهد السيطرة الجديدة وأصبحت المراعي تشكل المورد الاقتصادي الأول. وإذا بنوميديا تتحول -كما نلمح من خلال بروكوب- إلى موطن للقبائل البربرية الكبرى الملتفة حول أمراء أقوياء. نذكر منهم يبداس الذي كان حاكمت للأوراس على ما يبدو، واورتياس الذي حكم هدنة. والاثنان من أسلاف كسيلة والكاهنة. ولكن ما الذي تميزت به القبائل البربرية في ذلك الحين؟ هنا أيضا تكمن الصعوبة.

بلاد الشاوية في الوقت الحاضر

ظهور قبائل الجمالين يشكل ظاهرة اجتماعية جديدة للحياة في نوميديا كما رأينا. ولكننا لا نعثر فيها اليوم على هؤلاء الرعاة.

واسم الشاوية مقرون بالخراف. والخراف والماعز حيوانات عنيت الشاوية فعلا بتربيتها. وإذا كانت هذه المواشي ترعى في السهول شتاء فإنها تنتقل إلى الجبال صيفا بحثا عن الكلأ. وليس الشاوية بدوا بكل ما للكلمة من معنى بل هم اقرب لقاطني الجبال الأوروبيين.

وتتأرجح حياتهم بين السهل والجبل على مسافة محددة. كما يتجلى ذلك في مكان سكنهم. فهم يقيمون في الخيام (الشبيهة بالزناتية والعربي) صيفا، كما أن أهم قراهم التي تشابه القرى الزناتية والعربية لأنها اقرب لمخازن تبقى خاوية شهورا طويلة، ويودع فيها الشاوية متاعهم ومؤونتهم التي يعجزون عن نقلها إلى أعلى الجبل حينما يقصدون إليه. وقراهم شديدة الشبه بقرى القبائل من حيث هندستها، فبيوتها صغيرة متراصة ما كان أهلها ليبقوا عليها لولا أنها أمكنة حصينة يسهل الذود عنها. ولا تعرف هذه المنازل أي طابع مدني. غير أن ما يفرقها عن بيوت القبائل عدم وجود الآجر في سطوحها بل هي ذات سقوف من التراب على غرار البيوت الصحراوية، سقوف مهددة بالسقوط دائما تحت عبء الثلوج لهذا يعني الأهالي بجرفها عند الاقتضاء. ونظام السطوح طراز هندوسي قادم من الجنوب من الشرق بتأثير الزناتة.

لكن أكثر ما تحذره الشاوية سواء في الجنوبي أو الشمال هو البدو جوي والعربي. وعلى ذلك دليل واضح في حفاظها على اللغة البربرية في الوقت الذي انتشرت فيه العربية في أنحاء المغرب. وإذا كان الزناتيون أو العرب قد اثروا كثيرا في تلك البلاد فإنهم لم يستطيعوا طبع الشاوية بطابعهم نظرا لمناعة جبالهم.

وهكذا يكون ابن الشاوية نوميديا أصيلا لا يمكن اعتباره من الرحل،وهو أمر ذو دلالة كبيرة. لان الرحل هم الذين صنعوا تاريخ سائر المغرب وكونوا السلالات والأسر الحاكمة والجيوش المقاتلة. ذلك لم يكن شأن الشاوية أبدا. وليس مرد ذلك لضعف أبنائها عسكريا فلهؤلاء مزايا مشهودة في الحرب، لكن هذه القبيلة لم يستطع أن تجمع شتاتها الموزعة في القرى المقفلة لتكون كتلة محاربة.

ولمراكش أيضا قرويوها وهم قبيلة الزناغة التي لا يزال أبناؤها حتى اليوم يحملون الطابع البربري. وهؤلاء أيضا لم يتمكنوا من تأسيس أسرة حاكمة ذات شأن.

والأوراس في الجزائر من ابعد المناطق تأثرا بالحياة العصرية وهي أشبه ببقعة منعزلة.

وجملة القول أن بلاد الشاوية لم تكن في الواجهة أبدا ما عدا جزءا واحدا منها.

الأوراس في القرن السابع

مجال الافتراض هنا كبير، فالطبقة الشعبية الزراعية المنتمية للفرقة الدينية الدوناتية لم تزل من الوجود. وإذا خفت مطالباتها فلأنها استجيبت غير أنها حافظت على طبيعتها الثورية العنيفة إلى جانب تأثراتها الرومانية والمسيحية. ولعلها فقدت

من عنفوانها دون أن تفقد سمعتها المميزة بعد أن أصبحت مالكة لحقول الزيتون الشاسعة.

وهكذا تحولت هذه الطبقة الشعبية نحو اتجاهات أخرى وبدأت تنتظم في قبائل وتنضوي تحت حكم أمراء أقوياء وليس من المستبعد أم يكون هذا التحول مفاجئا لان الفوضى تقود إلى الديكتاتورية وهذه حقيقة يعرفها الناس منذ أرسطو وكان لنوميديا القديمة جيران شديدو البأس ساهموا في نقل نظامهم إليها سواء عن طريق مباشرة أم غير مباشرة

ولو نظرنا من خلال بروكوب لحملات الجيش البيزنطي في القرن السادس لوجدنا أن نوميديا نوعين من الأعداء سكان الأوراس أي قبيلة يبداس التي تعقبها البيزنطيون حتى أعالي الجبال. هذا من جهة ثم القبائل الصحراوية والطرابلسية في جنوبي تونس وشرقها وهي تحت سلطة أمراء بربر آخرين من أمثال انطلاس وكتزناس وكذلك قبيلة لواتة التي اعتمدت الجمل في الحرب وقصدت بعد هزيمتها إلى الصحراء لتعيد تنظيم صفوفها. وأحرز سليمان القائد البيزنطي نصرا حاسما ضد يبداس وأتباعه الأوراسيين. في حين قتل في معركة خاضها ضد بني لواتة هناك إذن فئتان من البربر كانت تتنازع فيما بينها بتحريض من البيزنطيين. إحداهما فئة الزناتة الجمالين الكبار.

ويمكن تحديد مواقع الزناتيين شرقي الأوراس وجنوبها. لقد بدأ زحف زناتة ببطء ويبدو أنها لن تبلغ في القرنين السادس والسابع ابعد من أعالي الأوراس.

ولو صح هذا الافتراض لامكن اعتبار نوميديا القديمة نقطة خطيرة من المغرب. وليس ذلك لأنها عرفت في عهد السيطرة الرومانية حشدا كبيرا من البشر والثروات. بل لان طلائع الزناتيين قد وصلوا إليها.

ليس هذا سوى محض افتراض على كل حال لكنه يتفق مع التقسيم الاثنوغرافي الذي أتى به ماسكوراي عن الأوراس. وفي الأوراس الشرقي -وهو أكثر انفتاحا على الخارج- يطلق السكان على أنفسهم اسم ولد جنة. وجنة هو الجد الذي تنتسب إليه الزناتة.

أما سكان الأوراس الغربي فهم مختلفون ولا ينتسبون لجنة وليس لهم سوى علاقات بسيطة مع جيرانهم الشرقيين ويعتبر هؤلاء النموذج الأول لسكان الجبال بين الشاوية. وفي موطن هؤلاء نجح مسكوراي في البحث عن الذكريات الرومانية.

ويتفق افتراضنا هذا ورواية ابن خلدون حين يحدثنا عن الاصطدام الكبير بين الفاتحين

العرب وأمراء البربر حول الأوراس. وكل ما ذكرناه يدل -حسب رأي ابن خلدون- أن طائفتين من القبائل كانت تقطنان الأوراس في القرن السابع وهما طائفة الزناتة -البتر من جهة والبرانس من جهة أخرى.

الاصطدام الحاسم

رأينا أن كسيلة والكاهنة كانا طليعة زعماء المقاومة البربرية للفتح العربي. وقد استطاعا السيطرة على بلاد المغرب لسنين طويلة. ويصل بينهما وبين أسلافهما الذين ذكرهم بروكوب وكوريبوس ما ينيف على القرن. ونحن لا نعرف شيئا عن عالم البربر من سنة 550 وحتى عهد كسيلة.

حتى أن كسيلة والكاهنة نفسهما ليس لهما تاريخ واف. فذكراهما ظلت مبهمة في فولكلور الأوراس وتحدث عنهما كتاب العداني لذي نشره فيرو. كما تعقب ماسكوراي آثارهما عبر الأساطير والأشخاص الخياليين ليتسنى له استخراج حقيقتهما. وكان اسماهما معروفين ابعد من الأوراس في السودان وبلاد طوارق افوراس جنوبي تونسي وفي تلك المنطقة بقايا قصر يدعى بقصر كسيلاته. ويظن الطوارق هناك أن كسيلة كان امرأة لان اسمه مقرون باسم الكاهنة.

وكان كسيلة والكاهنة من الوثنيين لذلك لم يعطف علهما المؤرخون المسلمون. لكنهم اتفقوا على سرد اخبرهم فوردت متشابهة إلى حد ما لدى كل من ابن عبد الحكم والنويري وابن خلدون والبيان وابن الأثير.

كسيلة

خلفت الكاهنة كسيلة لكنهما لا ينتميان لقبيلة واحدة. فكسيلة من بني أوربة الذين يرجعهم ابن خلدون إلى البرانس . ويؤكد أنهم ينتمون للبرانس منذ أكثر من ثلاثة وسبعين عاما. وقد سبق لنا أن اشرنا لأهمية التمييز بين البرانس والبتر.

ويقول ابن خلدون أن سكرديد الرومي كان مساعدا لكسيلة وكلاهما اعتنق النصرانية. ويذكر لنا علاقته "بالفرنجة" أي اللاتين. ومن المرجح أن كسيلة وأتباعه حافظوا على علاقتهم بالمسيحية واللاتينيين.

وتاريخ كسيلة مركز في بلاد الأوراس فقد تمكن من قتل سيدي عقبة بجوار بسكره جنوب غربي الأوراس. وفي الشرق بين القيروان والأوراس فقد عرشه وحياته.

ويؤكد مسكوراي أن بلاد الأوراس الغربية كانت على صلة مع بني أوربة وكسيلة، أما ابن خلدون فلا يشدد على وجود هذه القبيلة في الأوراس أو أي مكان آخر فالدقة في هذا المجال كانت تعوزه.

ويبدو من خلال روايته أن كسيلة وبني أوربة كانوا على صلة بالأوراس وبالتل الوهراني وبمنطقة تلمسان وحتى ممر تازة. وقد سبق لأبي المهاجر سلف سيدي عقبة أن سجن كسيلة عند "ينابيع تلمسان". وبعد انتصار العرب طاردوا بني أوربة حتى مولوية فعاش من بقي منهم في فلبيلس.

ليس هذا الأمر جديدا أو مدهشا على كل حال. فقد كان الأمراء النوميديون أمثال صفاقس ومسيناسا وجوغرتا يتنقلون بين الأوراس ومولوية. وقد نزل سيلا في رشقون مرفأ تلمسان حين كان في طريقه لزيارة صفاقس. فالهضاب العالية التي تفصل الأوراس مولوية كانت على الدوام رابطا طبيعيا بينهما.

وجدير بالذكر هنا تلك القبور التي لا تزال آثارها قائمة جنوب غربي تاهرت وهي قبور الجدار، القبيلة البربرية التي عاصرت الاحتلال البيزنطي. ويورد بعض المؤرخين العرب انه قد عثر على كلمات باليونانية للجدار في القرن العاشر تقول: "أنا سليمان السرديقوس. ثار سكان هذه المدينة فأرسلني الملاك إليهم وساعدني الله على قهرهم".

ولا يسهل علينا بالطبع تصديق كتابات كهذه نقلت إلينا من القرن العاشر لاسيما وان المعارك التي قادها سليمان وأوردها بروكوب وقعت في الأوراس. وليس من المستبعد على كل حال أن تكون إحدى الأسر البربرية قد وسعت سيطرتها في الشرق فبلغت الأوراس وحدود افريقية البيزنطية. كما أن الآثار التي بقيت على الجدار قد احتاجت للفن البيزنطي. فهل يصح الاعتقاد بان لكسيلة وبني أوربة صلات بالجدار؟ ليس هذا مستحيلا. غير أنني أعجب من إغفال افتراض كهذا ليس بالطبع مؤكدا.

لكن من المؤكد أن بني أوربة ينتمون للبرانس المتصلين باللاتين والمسيحية. ولعل الانتصار على سيدي عقبة كان انتصارا للبيزنطية أكثر من أي انتصار بربري آخر. لاسيما و؟إنه لفرط أهميته أصبح له صدى كبير في العالم الإسلامي. وقد أعطى المؤرخون العرب عن كسيلة صورة حية.

ألقى عقبة أمير الجيش العربي وعامل الخليفة القبض على كسيلة واقتاده معه في دورته عبر بلاد المغرب وأساء معاملته كثيرا؛ ويروى عن تلك المعاملة أن القائد العربي أمر كسيلة بذبح خروف قدم له هدية فأجاب كسيلة بقوله: أصلح الله الأمير كيف

لي أن اذبحه ولدي الكثير من الأصحاب والأعوان الذين يستطيعون القيام بهذه المهمة. فشتمه عقبة. فانسحب كسيلة غاضبا وذبح الخروف ومر بيديه الداميتين على لحيته. فاقترب منه بعض الرجال العرب وسألوه: ما تفعله أيها البربري؟ فأجاب: هذا مفيد للحية. وسمع شيخ عربي كلامه فقال. ليس هذا من اجل لحيته لكنه تهديد من جانب البربري. قد تكون القصة منحولة. لكنة العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربي من الأمور السارة.

ونفذ كسيلة وعيده هذا سواء كان منحولا أم صحيحا. فقد فاجأ عقبة على سفح الأوراس بجوار بسكره واحة تهودة. وأيقن عقبة انه ميت لا محالة فصاح: إنني تواق للشهادة. وصلى ركعتين وكسر غمد سيفه وامكر فرسانه بالنزول أرضا والمحاربة حتى الموت فحاربوا ولم ينج منهم احد. كان ذلك سنة 63 للهجرة (682-83) وفي تهودة اليوم ترتفع قبة تذكارية يقصدها السياح القادمون من بسكره.

ويقول النويري: وزحف كسيلة على رأس جيش كبير على القيروان فاحتلها واحتل افريقية وأصبح كما وصفه البيان سيد افريقية والمغرب بأسره.

واستمر حكمه طيلة أربع سنوات أو خمس. حتى جاء القائد العربي زهير سنة 67 للهجرة (686-87) ليقود المعركة ضده قرب القيروان. وكانت نزال رهيب مني فيه الطرفان بخسائر جسيمة وانتهت المعركة بمصرع كسيلة. ويؤكد المؤرخون العرب أنها كانت المعركة النهائية لان الجيش العربي تعقب البربر بعيدا. ويصعب علينا تصديق ذلك لان هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون أن العرب اضطروا مرة أخرى للانسحاب من افريقية وان زهير قتل في طرابلس أثناء انسحابه.

الكاهنة

بوفاة كسيلة انتقلت الزعامة لقبيلة أوراسية أخرى هي قبيلة جراوة التي كانت مسيطرة على الأوراس الشرقي. وحافظ المغرب على النوميديين كرؤساء له. حتى أن جراوة اعرق في اوراسيتها من أوربة.

يحدد ابن خلدون مواقع الجراوة في الأوراس. لكن هذه القبيلة ليست من نوع أوربة إذ أنها لا تنتمي للبرانس بل إلى البتر الزناتيين. ويدعو سكان الأوراس الشرقيون أنفسهم حتى اليوم بأبناء جنة أي رديف الزناتة. وبنو جراوة ليسوا كذلك من النصارى كبني أوربة وإنما هم يهود. كما أنهم جمالون رحل ليس لهم صلات بالمغرب اللاتيني وقد أموا البلاد من الخارج وأصبحوا أسيادا لها.

وتتزعم هؤلاء أمراء تدعى الكاهنة. ولزعامة المرأة في المجتمع البربري مدلول مقدس. فهي تعني بالسحر. ويقول ابن خلدون: قبيلة جراوة من البربر اليهود الذين استوطنوا الأوراس واليهم تنتمي الكاهنة. وهي امرأة بارزة عنيت بالخوارق وكان لها شأن كبير.

سنة 69 للهجرة (688-689) قام حسان ابن النعمان الغساني حاكم مصر بمهاجمة الكاهنة وتمركز على الشاطئ نهر مسكيانه شمالي الأوراس. وقادت الكاهنة جيشها لمجابهة المسلمين وقاتلتهم بعناد وحملتهم على التراجع بعد أن قتلت منهم الكثيرين... ولم تضع فرصة في مطاردتهم ونجحت في إقصائهم إلى خارج منطقة قابس وأرغمت قائدهم على اللجوء لمنطقة طرابلس. وهناك استطاع حسان الصمود وراء خطوط محصنة دعيت بقصور حسان. وقضت الكاهنة خمس سنوات في السيطرة على افريقية وفي حكم البربر.

وفي عام 74 (693) شن العرب هجوما عنيفا بقيادة حسان نفسه استطاعوا فيه قهر البربر وقتلت الكاهنة نفسها في مكان يدعى اليوم ببئر الكاهنة.

ويورد المؤرخون العرب تواريخ دقيقة لكنها ليست موحدة. إذ تتضارب رواياتهم حول مصرع الكاهنة فيقول ابن الأثير أنها قتلت سنة 74 أو 79 للهجرة. ويقول البيان أن موتها كان عام 82 أما القيرواني فذكر أنها ماتت سنة 84. ولو سلمنا بان مصرع عقبة كان في عام 63. فيمكن القول أن نوميديا قادت المغرب بنجاح طيلة عشر سنوات على الأقل وعشرين سنة على الأكثر وفي ظروف صعبة للغاية. وكسرت ثلاث مرات شوكة الجيش العربي القوي الزاحف من مصر. وهي نتيجة لا يستهان بها.

ولا يذكر المؤرخون الغرب -بجفافهم المعتاد وعدم اهتمامهم بتحليل الأسباب- عن ذلك الشيء الكثير. غير أنهم أتوا ببعض التفاصيل التي تلقي ضوءا على الوضع.

حين قدم عقبة إلى الأوراس وجد أن الروم وسكان البلاد قد إلتجأوا لمدينتي باغاي ولمبيز المحصنتين. وتمكن من متابعة زحفه بعد مناوشات لم تكن كلها ناجحة.

وفي مسيرته غربا باتجاه تاهرت خاض معركة ضد الروم والبربر ولم يتمكن هؤلاء من مقاومة المسلمين.

وفي طنجة طلب عقبة إلى حليفه الجديد يوليان أن يرشده إلى المكان الذي يستطيع فيه العثور على زعماء الروم والبربر. وحين عودته اقترب عقبة بجيشه الذي تضاءل من تهودة فقرر الروم أن يوقعوا بع فاقفلوا أبواب مدينتهم وأمطروه بوابل من الأسهم

والحجارة في حين كان يدعوهم للإيمان بالله وما إن وصل إلى قلب البلاد حتى استنجد الروم بكسيلة.

تلك تفاصيل أوردها النويري. لكن جميع المؤلفين يجمعون على الربط بين البيزنطيين والملوك النوميديين.

وفي المعركة التي قتل فيها زهير كسيلة "كان عليه أن يواجه جيشا من البربر والروم". "وبعد انتصار المسلمين في المعركة بقي عليهم أن يتعقبوا الروم والبربر وقتل في المعركة خيرة جنود المشركين".

وحين قتل زهير وهو يتراجع في المنطقة الطرابلسية لم يكن البربر هم الذين قتلوه وإنما الروم الذين استعانوا بأسطول منظم. أي البيزنطيين المتعاونين مع البربر. ويقول البيان إن الروم انتهزوا الفرصة حين علموا بتوجه زهير من افريقية نحو برقة.

وكان للكاهنة كما يقول البيان. ولدان واحد بربري والثاني إغريقي. وهو أمر يسهل تفسيره. فقد كان للبيزنطيين حتى ذلك الوقت كتائب مبعثرة في الحصون التي لم يستطع العرب اقتحامها. وظلت وسائل الاتصال حرة بين قرطاجة وبيزنطة. وكانت المدن لا تزال بيزنطية قلبا وقالبا. فعمدت بيزنطة لتمويل البربر وتسليحهم مع إسداء النصيحة لهم. وهكذا صادف العرب في بلاد المغرب شبكة مقاومة تضم اللاتين والبربر من رحل وحضر. ولكي يستطيع حسان مجابهة الموقف احتل قرطاجة لكن النجاح لم يكتب له لان الكاهنة انتصرت عليه واضطرته للانسحاب من افريقية. لقد كان الإغريق والرومان مجرد حلفاء أما إدارة البلاد فكانت في يد الملك النوميدين القائد العسكري الوحيد. لقد حقق كسيلة والكاهن حلم مسيناسا ذلك الحلم الذي تطلع الرومان إليه بعد تدمير قرطاجة البونية. لقد كانا في الواقع ملكين على قرطاجة يقودان الجيش النوميدي وما تبقى من الجيش البيزنطي يؤازرهما سكان المدن. وهذا سبب قوتهما. فلقد تمكنا من تحقيق وحدة المغرب لفترة من الزمن قصيرة.

هناك ظاهرة مشابهة نجدها في تاريخنا الأوربي. فقد كون الفرنجة فرنسا بالتعاون مع رجال الدين الغاليين والرومان استنادا لتأييد البلاد. وهكذا استطاعت فرنسا الصمود في وجه الغزاة الجرمانيين. وقد توصل المغرب لنتيجة مماثلة ولكن نجاحه كان مؤقتا.

عامل الانهيار

يمكننا أن نفهم ما جرى من خلال المؤرخين العرب. واهم ملاحظة أتوا بها هي أن الجراوة كانوا من البتر. ويقول ابن الأثير: إن الكاهنة حين أصبحت سيدة على كل افريقية، أساءت إدارة البلاد وارتكبت الفظائع والمظالم.

وقد كتب احد المبعوثين لحسان يقول له: البرابرة متفرقون الآن فأسرع بالمجئ. وقام حسان بحملته الثانية الناجحة.

ويضيف ابن الأثير أن كثيرا من الروم استعانوا بحسان على الكاهنة ولقيت طلباتهم في نفسه وقعا حسنا.

ويقول ابن خلدون في نفس المعنى: تخلى البربر عن الكاهنة ليقدموا خضوعهم لحسان واستفاد القائد العربي من هذا الموقف وتمكن من إخضاع الفئات الباقية التي ظلت على ولائها للكاهنة.

وبدون أن يدلي المؤرخون باسم المعركة أعطوا عنها العديد من التفاصيل.

عشية المعركة أخبرت الكاهنة ولديها وخالدا العبسي أنها "مقتولة لا محالة، وكأنها ترى رأسها يركض به فارس إلى جهة المشرق. فقال لها خالد وابناها: إذا كان الأمر كذلك فاتركي البلد لحسان وارجعي بنا. فقالت كيف افر وأنا ملكة والملوك لا تفر. فأقلد قومي عارا إلى مدى الدهر".

وفي يوم لمعركة "نزلت الكاهنة بنفسها ثائرة ناثرة شعرها، وقاتلت حتى انهزمت".

ويروي البيان أن الكاهنة خاطبت البربر قائلة بأن العرب "إنما يأتون افريقية طمعا في أشجارها وثمارها، ويقصدون المدن طمعا لما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد من افريقية المزارع والمراعي والحيوانات. فإذا ما قطعنا أشجارها وخربنا مدنها وقراها اعرض العرب عن غزوها". وأرسلت عمالا إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويحرقون الغابات والأحراش، ويهدمون القرى والمدن حتى أتت على كل ما فيها من عمران، وتركتها خرابا يبابا من طرابلس إلى طنجة، وانعدام العمران الإفريقي كله. فاضطر كثير من البربر والروم إلى الجلاء عن افريقية إلى الأندلس وجزائر البحر الأبيض"...

وقد أثار هذا المقطع الكثير من التعليق، فليس من الممكن أن تحدث الكاهنة وحدها كل هذا الخراب في بلاد المغرب. وهناك كلام لابن خلدون يلقي ضوءا على الخلاف القائم بين النوميديين وحلفائهم سكان المدن: يقول المؤرخ العربي "إن البربر لم يكونوا مرتاحين

لتهديم ممتلكاتهم". ويعني بهؤلاء المزارعين وسكان المدن والحضريين. فلم يلق هؤلاء زمن حكم البتر أي اهتمام لمصالحهم. ذلك هو النزاع الأزلي بين البدو والحضر وهو سبب رئيسي لازدواجية الروح المغربية.

والغريب أن الكاهنة قد ألهبت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عاداتهم في الكتابة. ويقول البيان أن الكاهنة أبقت لديها بعد معركة مسكيانه التي انهزم فيها حسان -"خالدا بن يزيد العبسي ليكون لها واسطة عند العرب وكان وسيم الوجه حسن الطلعة، وقد أرادت أن يكون لها محرما لتتمكن من التحدث إليه كابن لها، وهي له كأم، ولم يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع. فقالت له: أريد أن أرضعك لتكون أخا لولدي، فقال لها: كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع؟ فقالت له: أننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه، ثم عمدت إلى سويق من دقيق الشعير فلتته بزيت ثم جعلته على ثدييها ثم أمرت ولديها أن يأكلا مع خالد من ذلك الدقيق الملتوت بالزيت، فقالت لهم: "انتم إخوة من الرضاع".

واستدعت خالدا عشية المعركة الأخيرة التي فقدت فيها عرشها وحياتها وطلبت إليه أن يذهب إلى الجانب الآخر بصحبه ولديها.

وبعد موت الكاهنة تمت الأمور على أحسن ما يرام بين الغالب والمغلوب: يقول ابن خلدون "إن حسانا عين ابن الكاهنة البكر قائدا للجراوة وحاكما للأوراس". أما البيان فيعطي رواية لا تناقض الأولى وان اختلفت عنها بعض الشيء: "وطلب البربر الصلح من حسان فاشترط عليهم أن يقدموا له اثني عشر ألفا من المحاربين يكونون في صفوف الجهاد، فرضوا بذلك، وولى عليهم ابن الكاهنة وأرسلهم إلى المغرب للجهاد يقاتلون الروم ومن لم يسلم من البربر".

وقد أعاد التاريخ نفسه في مراكش وفي هذا القرن بالذات حين حارب مها أو همو وهو زعيم قبيلة جبلية في بلاد زيان، حارب الفرنسيين بضراوة، ولما رأى أن لا أمل له بالنجاح، نسج على غرار الكاهنة، حيث انه لم ينضم شخصيا لصفوف الأعداء لكنه أمر أولاده بالانضمام إليهم وحاربوا في معركة قتل فيها أبوهم. بعد ذلك أصبحوا من اشد الناس ولاء وإخلاصا للجنرال بوميرو، حسان الجديد.

وبالتحليل السيكولوجي لهذه الظاهرة يمكننا أن نفهم الأمر حين نجد البربر لا يعرفون شيئا عن الوطن ولا يعيرون أي انتباه خاص لنوميديا وطنهم الصغير أو لبلاد زيان. على أن البربري مستعد لبذل حياته في سبيل عائلته وجماعته. والسؤال الآن: كيف يمكن

الحفاظ على سلامة هذه الجماعة أو تلك العائلة؟ إن كل ظافر مستعد للاستعانة بأبناء البلاد إن هم ابدوا استعدادا للتعاون معه. فحين قالت الكاهنة لولديها: اذهبا، فبكما سيحافظ البربر على بعض القدرة. كانت تعني بذلك قبيلة جراوة التي تطلعت لإنقاذها عن طريق الخضوع. وإذا كانت هي نفسها عاجزة عن الانضمام لصفوف الأعداء فلا بأس إن أمرت ابنيها بذلك فهذا واجبها المقدس. تماما كما فعل أبناء مها أو همو حين انضموا لصفوف الفرنسيين.

إن هذه الرواية عن الغزو الفرنسي لمراكش تلقى ضوءا على سلوك الكاهنة كما رواه المؤرخون العرب. وما كنا لنصدق ما أتى به هؤلاء لولا أن التاريخ أعاد نفسه في المغرب.

وليس تصرفا كهذا أمرا مستغربا في هذه البلاد. لكننا نستهجنه نحن الذين سرنا منذ ثلاثة آلاف سنة من مفهوم المدينة القديمة إلى مفهوم الوطن. وما تصرف الكاهنة ومهما أو همو سوى رد فعل طبيعي لذهنية سياسية لن تتعد المفهوم القبلي.

وتصرف الكاهنة بربري بشكل عام وبتري بنوع خاص. فقد تبنت ابنا عربيا ليقوم بدور فعال في مأساة أيامها الأخيرة. فهو الذي سلم القائد العربي ابني الكاهنة الأصليين. ونلاحظ في مجمل تاريخ المغرب تجاوبا واضحا بين البرابرة البدو والعرب. فبين الشعبين تشابه في نمط الحياة وطبيعة المشاعر. وهذا ما يجعل فارق اللغة عاجزا عن خلق الانفصال بينهما. وأسطورة الكاهنة مثال حي على ذلك، في الوقت الذي كان فيه الحضريون يقدرون مزايا الخلافة والحكومة النظامية والإدارة والنظام والحفاظ على المكلفين وسائر العناصر اللازمة للحياة المدنية.

وهكذا تم الطلاق بين الأمراء النوميديين ورعاياهم المدنيين. ولم يحاول البدو والحضر في المغرب أن يتعايشوا فيما بينهم قط. وهكذا انتصر الفتح العربي واجتاز حسان العتبة بنجاح. وأصبح بإمكان موسى بن نصير أن يأتي فلا يلاقي سوى بقايا قبائل لا نظام فيها. ولم يقابل بالطبع بخضوع كلي، وكذلك لم يجابه مقاومة ذات بال. فلم لا يمضي بالفتح الإسلامي إلى ما هو ابعد...إلى اسبانية.

ولنلاحظ أن ذلك كان آخر اثر لنوميديا في التاريخ، فلم يعد يعثر عليها في الصف الأول.

ذلك لأنها تحولت تدريجيا فأصبحت بلاد الشاوية. وتبدد ما بقي من ثروات زراعية وفلاحين رومان في القرن السابع. وسادت حياة التنقل بين الجبل والسهل. وتابع الجمالون الرحل الكبار (الزناتة) تقدمهم نحو الغرب ووجدوا في منطقة هدنة والمرتفعات الجبلية

أجواء ملائمة. وما إن استقروا في بلادهم الزناتية تلك حتى سيطروا على الرحل الصغار من قاطني الأوراس وهضبة قسنطينة السهلية، وهكذا تكونت في نفس الإطار الجغرافي بلاد الشاوية هذه التي نتطلع إليها الآن.

2 - الخوارج وتمردهم

فتح اسبانية

بعد حقبة الغزو في عهد كسيلة والكاهنة اختتمت حلقة جديدة في تاريخ الفتح العربي. لقد اخذ العرب بلب افريقية حتى أعماقها. فقد رضي الأفارقة بلا تحفظ بالحكم العربي واللغة العربية والدين الإسلامي.

وإذا كانت القوة لعبت دورها في هذا المجال، فلم تكن في الواقع عامل النجاح الوحيد ذلك أن متحضري افريقية ساروا وراء أحاسيسهم لعميقة حين كانوا بونيين -طيلة ألف سنة- لديهم كل الاستعداد لاعتناق الإسلام. ثم إن هذا المجتمع المنظم قد لمس اليد عجزه عن التفاهم مع البربر جيرانه وأعدائه الطبيعيين لاسيما بعد سيطرة برابرة الشرق القادمين على ظهور جمالهم.

ومنذ ذلك الحين بدأ كل دماغ مفكر وكل محتاج للغة المكتوبة والأدب يميل إلى الإسلام دون تحفظ. تلك ظاهرة مهمة تفسر اعتناق المغرب كله لهذا الدين. ومهما علا شأن البربر من الناحية العسكرية، فلم يكن لهم أي وزن على الصعيد الفكري.

وقفز الفتح العربي في بلاد المغرب قفزه يثير تفسيرها الفضول. فلو كان الفاتح رومانيا أو فرنسيا مثلا لعنى باستتباب الأمن والنظام وتثبيت أقدامه في البلد الجديد. أما الفاتحون العرب فلم يعنوا بذلك. وما إن استتب لهم الأمر في افريقية حتى وثبوا نحو سائر المغرب سالكين الطريق التقليدية في المرتفعات وفي غور تازه، ولا هم سوى أن يسحقوا المقاومة التي يصادفونها في طريقهم وأن يشعروا الناس بقوتهم لتأمين المواصلات لهم. وفجأة عبر الفاتحون العرب مضيق جبل طارق وانقضوا على بلاد الأندلس، مستخدمين تلك القبائل البربرية التي كان من شأنها أن تهددهم من الخلف، ولم يكونوا ليهتموا بتوثيق الصلات معها وإنشاء نظام إداري على الطريقة الغربية.

لقد وجد العرب في اسبانية شبيها لافريقية، ذلك أنها بلاد متحضرة منظمة ومجتمع مستقر حددت فيه اطر الدولة ونظام الجباية فضلا عن توفر أسباب الرفاهية. وكان العرب يميلون لفتح البلدان المستقرة ولهذا استولوا في الشرق على سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر.

وقد تحدثنا آنفا عما ذكره ابن خلدون بشأن الحضارات القديمة في مصر وبلاد الكلدانيين التي غزاها لعرب. ورأينا أن بلادا كهذه معدة سلفا للخضوع وليست منفتحة على الثورة والتمرد. ولم يشأ العرب تنظيم البداوة لأنهم لو فعلوا ذلك فقدت هذه فعاليتها؛ فكيف يفتحون الأندلس لو قضوا على بداوة البربر؟

هكذا استطاع العرب أن يقفزوا من افريقية ليحتلوا الأندلس. ولسنا هنا بصدد الحديث عن الفتح الأندلس. وقد سبق لنا أن قلنا إن الفتح العربي قد صادف استعدادا طيبا، لقبوله لدى جميع البلدان التي تأثرت بقرطاجة وفينيقية من قبلها.

كتب "دوزي" تاريخ الأندلس في العهد العربي، وألقى ضوءا على ظروف استعراب هذه البلاد وكذلك بلاد افريقية.

لم يكن الحاجز بين اسبانية والإسلام بمثل سماكته بين سائر الغرب ودين المسلمين. ومن اسبانية تسربت إلينا بعض الأفكار والمعارف العربية، فاللغة اللاتينية أو الرومانية على الأقل كانت تعاصر العربية. وكان الأندلسي مزدوج اللغة إلى حد ما.

ويقول دوزي أن الأندلسي كان يحتقر الأدب اللاتيني في حين كان شغوفا بالأدب العربي.

قد يبدو الأمر مستغربا بالنسبة إلينا معشر الغربيين الذين أهملنا الأدب العربي باستثناء رواية ألف ليلة وليلة. أما الأندلسي فلم يكن شغوفا بهذه القصة بل بالشعر العربي. وهناك الكثيرون من المستشرقين المعجبين إعجابا شديدا بالمعلقات وسحرها، وما تغنت به من خيل وحب وحسان وخمرة (كان ذلك قبل الإسلام). ذلك ما كان يثير حماسة الأندلسي.

ثم إن اللاتينية كانت ميتة والاسبانية لم تنشأ بعد، في حين كانت العربية في أوج حياتها.

ومهما يكن من أمر فان هناك حقيقة واقعة: لقد باع الأندلسي كل الأدب اللاتيني من اجل القصائد العربية. وهي سلاح ماض يخلب الألباب.

وهكذا كان المغرب في العصر الوسيط الأول محاطا بمركزين حضاريين إسلاميين يبعد واحدهما عن الآخر. وهما القيروان وسائر مدن افريقية القديمة من جهة، وقرطبة وسائر مدن الأندلس من جهة ثانية.

وبين هذين المركزين طوائف من القبائل المشتتة التي لا يمكن أن تستمر على ما هي

عليه. حتى جاءت ثورة الخوارج الخليقة بان ندرسها لما كان لها من اثر عظيم على تطور تاريخ فرنسا.

الخوارج

تحتل معركة بواتين التي قضى فيها شارل مارتيل على الجيش العربي عام 732 مكانا مشرفا في التاريخ الفرنسي بينما يذكرها المؤرخون العرب باقتضاب. فقد ورد في البيان: "استشهد في المعركة حاكم اسبانية عبد الرحمن مع عدد من أتباعه". وأورد ابن الأثير أن "عبد الرحمن قام بحملة جديدة على بلاد الفرنجة استشهد فيها مع أتباعه." فهو حدث لا أهمية له، وهم على حق في ذلك إلى حد ما. ذلك أن الفاتح العربي قد مني بهزائم مشابهة في أماكن أخرى لكنها لم توقف زحفه حيث كان مستعدا لجولة أخرى، لكن جولاته توقفت هذه المرة. يقول كتاب تاريخ فرنسا الذي وضعه لافيس: "إن المنازعات الدينية بعيد معركة بواتييه قد خضت شعوب المغرب التي اعتنقت الإسلام. فانتفضت في عام 740 وأهملت حملات الفتح الجديدة." وحركة التمرد الجديدة التي بلغت أصداؤها بلادنا هي ثورة الخوارج التي احتلت مكانا مرموقا في تاريخ بلاد المغرب.

ومذهب الخوارج هرطقة يسهل تحديد مكانها وتاريخها وظروف نشوئها لكن هذه التفاصيل لا تفيدنا كثيرا.

ولكي نفهم مذهب الخوارج ينبغي إلا نعزله عن غيره لا بل يجب أن نقربه من الثورات الأخرى التي عرفها المغرب حيث نجد وراء الهيجان الديني انتفاضة للمشاعر الطبقية والعرقية. والخارجية أشبه بهرطقة مسيحية هي الدوناتية. وقد ولدت في عصر كان فيه كل شيء مطبوعا بالطابع الديني. وقد شدد ماسكوراي على وجود الشبه بين الدوناتية والخارجية.

فلهذين المذهبين من الناحية اللاهوتية نقاط شبه عديدة.

فما الذي كان في أساس الدوناتية؟ هل هو اختلاف في العقيدة؟ كلا بالطبع وحقيقة الأمر أن صراعا نشأ بين طبقتين من رجال الدين تشكك واحدتهما بشرعية الأخرى. فقد رفض أتباع "دونات"، أسقف المناطق السوداء في نوميديا، الاعتراف بشرعية انتخاب صقليان أسقفا على قرطاجة.

ويعتبر دونات أن صقليان انتخب من قبل جماعة من الكهنة سلمت الكتب والأواني المقدسة للسلطات الإمبراطورية في عهد اضطهاد ديقلوسيان. هذا هو السبب

الأساسي، ولم تثر أية مشكلة عقائدية. أنها صدام بين أشخاص. الدوناتيون يرفضون الاعتراف بسلطة كهنة دون المستوى. وانطلاقا من هذه المسألة البسيطة قامت الحرب الدينية التي هزت نوميديا في القرن الرابع. فالدوناتية ليست هرطقة إذن وإنما هي حركة انشقاق.

والمذهب الخارجي شبيه للدوناتية. ففي سنة 656 نشب خلاف على الخلافة بين علي صهر النبي وبين منافسه معاوية. وقد خدع علي وقتئذ بقبول التحكيم بينه وبين خصمه فتخلى عنه نحو اثني عشر ألفا من جنوده. هؤلاء هم الخوارج. وهنا أيضا نلاحظ الخلاف بين الأشخاص، الصراع بين الأساقفة. ومنذ 656 رفض الخوارج الاعتراف بشرعية حكم معاوية وخلفائه وانقطعوا عن الاهتمام بسلالة علي. وأصبح لهم- كما يقولون- خلفاء خاصون بهم هم أئمة الخوارج.

وهكذا نلاحظ أن حركات الهرطقة كبدعة اريوس والزندقة مختلفة كل الاختلاف. فالهراطقة المسيحيون جادلوا في ألوهية المسيح وناسوته وفي وحدة المطلق وثنويته. ولا حاجة بنا للقول أن بين المذهبين البروتستنتي والكاثوليكي فوارق عميقة في العقيدة.

وقد عرف الإسلام بدوره في الشرق هرطقات حقيقية جادلت في جوهر العقيدة. أما في المغرب فلا. سواء في المغرب المسيحي أم في المغرب المسلم. وجميع الخلافات التي وقعت لم يكن للاهوت شأن فيها. ففي المغرب فقر في الأفكار أو إهمال لها إلى جانب تعلق شديد بالأشخاص. وفيه أيضا روح التشدد والتمسك بالحزبية، وكذلك التطرف والإصرار على حصر المطلق في أمور فرعية بسيطة وذلك بعناد كلي لا يقبل أي تنازل أو اخذ ورد. وهي ظاهرة عرفت عند الدوناتية كما عرفت عند الخوارج.

وبوسعنا أن نطلع على مدى التعصب الديني الدوناتيين في مبدأ الانتحار الجماعي المعروف لديهم. "فهم يقتلون أنفسهم بسهولة لا تصدق، حتى يبلغوا الشهادة ويصعدوا إلى السماء كما يظنون. غير أنهم يخشون مغبة قتل النفس أحيانا فيرغمون أول قادم على ضربهم ليبلغوا بذلك الشهادة دون الوقوع في خطيئة الانتحار. والويل للمسافر الذي يرفض الأقدام على قتلهم. فسيكون مصيره الهلاك لا محالة"

والخوارج متعطشون بدورهم للاستشهاد لكنهم لا يذهبون إلى حد الانتحار. بل يكتفون بشن المعارك الشديدة من اجل عقيدتهم. لكن التضحية بالنفس سهلة جدا لديهم. ويقول المتطرفون منهم (الصفرية) بأعمال مخيفة.

ونرى عند الخوارج المعتدلين (الإباضية) هذا الميل لشظف العيش والرغبة المطلقة في نكران الذات كليا أمام الله.

فماسكوري سكوراي على حق إذن في ذكر الشبه بين الخوارج والدوناتية. لا بل إن الخارجية هي الدوناتية عينها منقولة من الإطار المسيحي إلى الإطار الإسلامي. على أن الظروف الزمنية لا تغير في جور ظاهرة واحدة عند الجماعتين هي طريقة الإحساس بالذات الإلهية.

ولا حاجة بنا كما أظن لمعرفة المزيد عن الخوارج من الناحية الدينية. لاسيما وان الناحية الدينية لا تهمنا بقدر ما نولي انتباهنا للناحية الإنسانية والمشاعر العلمانية التي تبدو لنا واضحة فور إزاحة الستار الديني.

وقد سبقت لنا محاولة استخلاص المضمون السياسي والاجتماعي للدوناتية. فليس صعبا أن نفعل الشيء نفسه بالنسبة للمذهب الخارجي.

يحدد ابن خلدون بما له من بعد نظر الأسباب العميقة لانتفاضة الخوارج فيقول:"انتشر مذهب الخوارج بسرعة في أنحاء البلاد وقد أصبح لدى المنشقين سلاحا ماضيا للهجوم على السلطة". ويعني بالسلطة، سلطة الخلافة بالطبع ممثلة بشخص الأمير الحاكم. "وجند المغامرون الخوارج أنصارهم من البربر المنتمين للطبقة الشعبية".

أنها ثورة بربرية ديمقراطية ذات محتوى سياسي واجتماعي، هكذا كانت الدوناتية تقريبا. لأنها ثورة الجماهير الشعبية. غير أن هذه الجماهير ليست عينها بين الخوارج والدوناتيين عدة قرون. على أن مبدأ التقشف وحرمان الذات من العناصر التي تجمع بين هاتين الطائفتين. ولا شك أن وراء هذا أطماعه خفية لا تهدأ.

وإنها أيضا انتفاضة البربري الأصيل ضد الدخلاء، وليس الدخيل هذه المرة حكم اللاتين وإنما حكم الخلافة القادم من المشرق.

يبقى أن نحدد أصول هؤلاء الثوار الخوارج إذ لا تكفي نسبتهم إلى البربر بشكل عام لجلاء الأمور.

الخوارج من زناتة

أين كان مركز الثورة، وأين القبيلة أو مجموعة القبائل التي رفعت رايتها فوق نوميديا بعد سقوط كسيلة والكاهنة؟ يبدو لي أن الإجابة على هذا السؤال أمر ممكن.

المؤرخون العرب كعادتهم أوجزوا القول وكانت كتاباتهم جافة. غير أنهم متفقون حول الوقائع، الأمر الذي يمكننا من الوصول إلى نتيجة.

اندلعت الثورة في طنجة خلف الجيش العربي الذي فتح اسبانية. واتسع نطاق المعارك بعد ذلك على طول الخط الذي يصل بين القيروان وطنجة. ووقعت معركة كبرى "معركة النبلاء" على نهر شلف. ثم وقعت معركة كبرى ثانية قتل فيها كلثوم بمنطقة السبع. وفي الثالثة ثأر العرب لنفسهم في القرن بجوار القيروان سنة 742. أما الواقعة الحربية الرابعة فنشبت ناحية الشرق حين استولى الخوارج على طرابلس. وحصل رد عربي عنيف بقيادة عبد الرحمن بن حبيب. على أن الأحداث البارزة وقعت كلها حول طرابلس وتونس وتلمسان بين 743 و752. ومن 757 إلى 758 كانت القيروان فريسة الحريق، فقد استولى عليها الخوارج من بني ورفجومة ثم استولى عليها خوارج آخر. وكان رد الفعل العربي بقيادة محمد بن الأشعث الذي انتصر في سرت بالمنطقة الطرابلسية واسترجاع مدينة القيروان. لكن حملته فشلت في تلمسان، التي أصبحت لوقت ما مركزا لنشاط أبي قرة اليفرني (765). بعدها استولى الخوارج على طرابلس، وحاصروا القيروان. ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار تبنه في منطقة هدنة حيث حوصر الحاكم العربي عمرو بن حفص وقتا طويلا (770) قبل أن يلقى مصرعه تحت أسوار القيروان. ووقع الرد العربي تحت حكم يزيد غربي القيروان في المنطقة المحيطة بالأوراس في الزاب بتبنه وسكا فنيريا. وكانت نتيجته معاهدة سلام (من 771 إلى 788). وفي عام 801 ظهر اغلب الحاكم العربي الجديد ليؤسس أسرة الاغالبة وفي عهده عرف المغرب نحو مئة سنة من الهدوء النسبي.

لقد ملأت ثورة الخوارج الجزء الأخير من القرن الثامن الميلادي. ولم نتطرق في السطور السابقة لسرد حوادث تلك الفوضى العارمة وإنما سعينا لتحديد مواقع الحروب.

كان ذلك في طنجة وسبع ومنطقة تلمسان وشلف وهدنة وجنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية، أي في مختلف السهول والمرتفعات التي تكون بلاد زناتة. لقد كانت هذه البلاد مسرحا لثورات الخوارج ابتداء من طرابلس حتى غور تازة.

ونلاحظ الطابع الزناتي أيضا حين نستعرض الفئات المتنازعة. ولا شك أن عناصر مختلفة قد شاركت في تلك الهزات العنيفة، بعضها مراكشية في بدايتها أثناء الانفجار الأول الذي وقع في طنجة. ويذكر البيان قبيلة برغواطة ويورد ابن خلدون أن احد زعماء هذه القبيلة "احتل مركزا قياديا في جيش ميسرة". ويصنف البيان قبيلة

برغواطة في عداد الخوارج. لكن هؤلاء معروفون حق المعرفة. فقد تركوا دين الإسلام وأسسوا في بلاد الشاوية إمبراطورية ترتكز على دين جديد غير الدين الإسلامي. وكان لهم منحى خاص.

ولا يغربن عن البال أن من الخوارج عناصر شرقية وعربية. واهم حدث في تلك الحقبة وقع سنة 750 حين انهارت خلافة الأمويين في الشرق وقامت خلافة العباسيين في مكانها. وكان لقلاقل الشرق أثرها على بلاد المغرب. فقد حصل نزاع بين الحكام العرب وتحالف بعضهم مع البربر. ومن الخطأ الكلي أن ننسى الصلة التي تجمع بين مشاكل المغرب ومشاكل المشرق. فقد استفاد الخوارج من الخضة التي عرفها الحكم العربي بتغيير السلالة الحاكمة ولم يمنعهم ذلك دون المضي قدما وراء أغراضهم التي لا يصح أن نسميها قومية وإنما نقول أنهم أطاعوا غريزة العرق.

وشهدت منطقة القيروان من حين لآخر تدخل الصنهاجيين والكتاميين أي البرانس.

واستولى الصنهاجيون لفترة ما على بجة الواقعة في تونس حاليا.

وقد أشار ابن خلدون لوجود ألفين من الخوارج الصنهاجيين في عداد ثلاثة عشر جيشا اشتركت في حصار تبنة. وهو عدد ضئيل قياسا على تقدير ابن خلدون حين تورط بإعطاء الأرقام في نفس الصفحة وقال أن عدد المحاربين قد بلغ 350,000 رجل بينهم 35,000 فارس. بعد ذلك لجأ احد زعماء الخوارج ولم يكن صنهاجيا أو كتاميا لجأ إلى كتامة حيث حوصر طيلة ثمانية أشهر. وواضح أن كتامة وصنهاجة قد اشتركتا في حركة التمرد حول منطقة الجبال.

وقد دعي ميسرة أول محرض على العصيان في طنجة بميسرة المضغري.

وقبيلة مضغرة من البتر حسب اعتبار ابن خلدون الذي حدد موقعها في ممر تازة "بالمنطقة الفاصلة بين فاس وتلمسان" وقال أنها تحالفت مع الكومية المستوطنة في وهران وبنو مضغرة هؤلاء الذين انتصروا على كلثوم في معركة سبع الكبرى سنة 741. "كانت رؤوسهم كلها محلوقة وكانوا يطلقون صيحات كتلك التي يطلقها الخوارج في الحرب. وتراجعت مقدمة كلثوم أمام هجومهم الجارف وفقد للقائد حياته ومعركته في ذلك اليوم".

في صفحة 238 من الترجمة الفرنسية لكتاب ابن خلدون بضع المؤلف قبيلة مضغرة وحلفاءها تحت قيادة مسيرة لكنه يناقض نفسه صفحة 217 كما يخالفه

المؤرخون الآخرون. لقد حل خالد بن حميد محل ميسرة على رأس جيش الخوارج. وهو الذي ربح معركة سبع على الأرجح وكذلك معركة شلف التي وقعت قبلها وهي التي دعيت بمعركة النبلاء لان جميع الأبطال والشجعات والفرسان العرب قد ماتوا فيها. ويلقب ابن خلدون خالدا بن حميد بالزناتي.

وحول القيروان قادت قبيلة هوارة عصيان الخوارج. والقبيلة كما ذكرنا من البدو المقيمين جنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية. وهي التي انتصر عليها حنظلة القائد العربي على أبواب القيروان في معركة القرن سنة 742. ثم عادت للاستيلاء على طرابلس وقتلت حاكمها. ومنذ سنة 757 تولت قبيلة ورفجومة وبعض فروع قبيلة نفزاوة قيادة عصيان الخوارج. وقد سبق لنا أن قلنا ما يجب قوله عن ورفجومة ونفزاوة اللتين تقطنان شرقي الأوراس وجنوبه وهما من البتر.

وفي سنة 765 ظهرت قبيلة بني يفرن في طليعة الخوارج. وهم من الزناتيين الذين يساندهم البربر من قبيلة مغيلة بمنطقة تلمسان. وقد اختاروا أبا قرة اليفرني رئيسا عليهم. بل هو أبو قرة المغيلي وقد نصبوه خليفة.

وقد سبق أن أتينا على ذكر المغيلة ولا يهم إذا كان أبو قرة من بني يفرن أو من بني مغيلة، إذ كانوا يقيمون بجوار بعضهم في منطقة تلمسان كما روى ابن خلدون. ويرجح أن قاعدتهم كانت منطقة شلف الواطئة ومدينة مأذونة الصغيرة ليس بعيدا عن مضغرة التي نشأ فيها الخوارج. ويشير ابن خلدون إلى الصلة الوثيقة بين هؤلاء: حل أبو قرة في مكان خالد بن حميد كرئيس على زناتة. وخال هذا هو الذي اخذ مكان ميسرة. وهكذا نرى أن معركة الزعامة لديهم وقعت في غور تازة ومنطقة وهران وعلى المرتفعات التلمسانية:

"عند حصار تبنة رأى أمير الجيش العربي عمرو بن حفص انه مطوق من كل صوب. فعمد لبث التفرقة بين المحاصرين. وبما أن بني يفرن الزناتيين كانوا اشد القبائل البربرية بأسا سواء م حيث العدد أو الشجاعة في الحرب. فقد اشترى حياد رئيسهم أبي قرة بأربعين ألف درهم. وكافأ نجل أبي قرة بأربعة آلاف لأنه نجح في إجراء المفاوضات. عندها تراجع بنو يفرن عن تبنه وانفك حصار القائد العربي".

وبديهي أن "أواسط المغرب" كما يسميها ابن خلدون التي تضم مم تازه ووهران والهضاب الوهرانية العليا كانت أكثر عددا واشد بأسا من المواطن الصحراوية المنعزلة

في جنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية حيث قبائل نفزاوة وورفجومة وهوارة. وتعتبر تلمسان قلب الخوارج النابض وهي أيضا بلاد زناتة.

ويمكننا القول بما لا يقبل الشك أن الثورة الخارجية كانت ثورة زناتية، فيما دخلت بلاد زناتة لأول مرة مسرح التاريخ. وهنا ظهر اعرق الزناتيين على حد قول ابن خلدون. وبعد سقوط نوميديا كانت بلاد زناتة أول من رفع راية المغرب المنكسة.

مذهب الخوارج مذهب ضد المجتمع

تتفق ثورة الخوارج ببعض ملامحها وطبيعة الزناتيين. أي طبيعة البدوي المعروفة.

فهو لا يستطيعون الخضوع لسلطة موحدة. مثال ذلك أن ميسرة قتل على يد جنوده. وكان له خلفاء من أمثال خالد وأبي قرة. غير أن أحدا لم يكن ينظر نظرة جدية لهؤلاء الخلفاء. فأبو قرة لم يتردد يوم حصار تبنه في بيع قضيته مقابل 40,000درهم.

وينقسم خوارج المغرب إلى فرقتين: الصفرية والإباضية. ويمثل الصفرية التطرف. والإباضية الاعتدال. وهم أشبه بالبلاشفة والمناشفة تباعد بينهم كراهية عميقة الجذور. لقد هاجم صفريو نفزاوة وورفجومة مدينة القيروان بوحشية لا نظير لها. وأثار الأمر حفيظة إباضيي زناتة وهوارة فسارعوا إلى طرابلس وحاربوا الصفريين واسترجعوا منهم القيروان.

ولعل المذهب الخارجي قد انبثق عن فئة من الساخطين ذات طبيعة ديمقراطية وديماغوجية. لكنها طريقة في التعبير لا تلائم هؤلاء.

في المدن مثلا كان معظم المنتمين للمذهب الخارجي من الطبقة الشعبية الدنيا. حتى أن ميسرة كما وصفه ابن الأثير كان سقاء في طنجة وهو يمثل المذهب المتطرف لانتمائه للصفرية. ويمكننا القول أن وضاعة أصله وعدم خبرته وانعزاله السياسي كانت وراء ولايته القصيرة. ويقول ابن خلدون: "لقد تعرض لغضب البربر فمات تحت أيديهم". أنها الردة السريعة وهي مألوفة لدى الطبقات الشعبية. ويبدو أن جماهير المدن لم تكن أكثر من خميرة ورصيد للمذهب الخارجي.

والمذهب الخارجي هذه الملحمة العسكرية اعتمدت ولا شك البدو الزناتيين وهم جنود بالولادة يأتمرون بأمر رئيس واحد. فلابد لرجل كابي قرة مثلا إلا وان يكون أميرا. غير أن هؤلاء البدو سواء كانوا في السهوب أو الصحارى يدفعون ثمن حيويتهم ونشاطهم

غالبا، حيث يعيشون قاسية بائسة. لقد كانوا ثائرين على تلك الحياة الرغيدة التي يتنعم بها الفاتحون العرب شأنهم في ذلك شأن الجماهير الشعبية، أي أنهم بقول أدق كانوا يكرهون الحضرة. ولم يكن انتصارهم سوى انفجار مدمر لها.

ويذكر البيان أن الصفرية كانت تستبيح جميع النساء كما تستبيح إراقة الدماء وقد اقتسم الصفريون افريقية اقتسامهم لنسائها وثرواتها.

ويشدد جميع المؤرخين على الفظائع التي ارتكبت يوم استولت قبيلة ورفجومة على القيروان. ويقول ابن الأثير إن بني ورفجومة ارتكبوا جميع الفظائع حيث سجنوا النساء والأطفال وربطوا سائمتهم داخل المسجد الجامع وأوقعوا فيه أضرارا عديدة. كما شاهد الناس بعض أفراد القبيلة وهم يقتادون امرأة إلى داخل الجامع رغما عنها. وكانت تلك فضيحة كبرى قوبلت بالسخط من الجميع، وقد حمل المؤرخون أصداء غضب الناس حتى أن الحادث هز مشاعر الخوارج الإباضيين المعتدلين.

وقد زحف إباضيو طرابلس من زناتة وهوارة لمحاربة بني ورفجومة وانتزاع بقايا القيروان منهم. على أن تدخل هؤلاء لم يكن بدافع إنساني محض إذ ليس من المستبعد أن يكونوا قد شعروا بالحسد من إخوانهم في المذهب وأرادوا أن يظفروا لأنفسهم ببعض الفائدة.

وكان لهذا الهمجية الخارجية أثار عملية ملحوظة. إذ يحدثنا ابن الأثير كيف أن العلماء ساروا في شوارع القيروان يحثون الناس على الجهاد المقدس ضد الخوارج منددين بأعمالهم الوحشية كاسترقاق النساء والأطفال وتقتيل الرجال.

عندها هب الناس لقتالهم تشجعهم نساؤهم على ذلك، هبوا رجلا واحدا لقتال الخوارج. لقد كان الخوف من المصير المحتوم حافزا قويا لهؤلاء الحضريين كي يقاتلوهم. وحتى الجماهير الشعبية في المدن التي تؤيد الخوارج باتت تنفر منهم لفرط همجيتهم.

لقد عرض بنو ورفجومة سكان القيروان لجميع صنوف التعذيب والهوان، حتى أن الذين ساعدوهم ندموا على ما فعلوه. وهكذا تظهر حقيقة التنافر الواضح بين البدو والحضر منذ عهد الكاهنة وعهد مسيناسا وكذلك في عهد الخوارج، فسكان المدن متشبثون بحياة النظام والاستقرار على عكس البدو دعاة التهديم المطلق.

لقد فشل الخوارج في افريقية على الرغم من النجاح الكبير الذي حققوه، فبعد معركتي شلف وسبع الظافرتين انهزم هؤلاء في معركة القرن. ويشدد المؤرخون على أهمية هذه المعركة وعلى التنبؤات التي سبقت وقوعها وفداحة الخسائر التي حصلت

فيها. لقد أراد الأمير حنظلة أن يحصي الأموات فعجز عن ذلك، فأمر برمي عود من الطيب على كل جثة ثم جمعت العيدان فبلغ عددها مئة وثمانين ألفا. ويردد جميع المؤرخين مع حكيم مصري هو غيث بن سعد قوله: "بعد معركة بدر (وهي المعركة التي انتصر فيها النبي على القرشيين وأرسى دعائم الإسلام) وددت لو استطعت حضور معركة القرن".

وظلت افريقية مهددة في السنوات الطويلة التي تلت معركة القرن، غير أن العرب أعادوها في النهاية لسلطتهم من ناحية الشرق. وقد أقدم الأمير العربي يزيد بين 773 و778 على تقتيل بني ورفجومة بشكل مريع، حتى أن اسمها اختفى من التاريخ وأصبحت فلولها من الضعف بحيث راحت تنضم لصفوف قبائل أخرى.

واستتب الأمر للأغلب الذي عينه هرون الرشيد حاكما على افريقية، وقد عمل هذا على إشاعة العدل في البلاد. واستطاع أن يحقق لنفسه سلطانا مطلقا لم يلق معارضة أو كراهية. وأصبح ملكه إرثا لبنيه من بعده وبدأت أجيال هذه الأسرة تتوالى على الحكم واحدا بعد الآخر، طيلة القرن التاسع.

لقد كانت هذه المدن الإفريقية القديمة معدة منذ قرطاجة للحكم المنظم لو قيض لها مثل هذا الحكم.

ولم يأت الخوارج في افريقية إلا بالخراب، لهذا فشل مذهبهم وساعد على استتباب الأمر لصالح الفاتحين العرب. أما في ما تبقى من المغرب، في تلمسان وتاهرت ومراكش فتختلف الحال. ذلك أن الخوارج تركوا فيها أثارا دائمة رغم طبيعة الهدم التي عرفوا بها.

3 - فاس مملكة انبثقت عن الخوارج

تعد مملكة فاس أبقى أثار الخوارج وقد حكمها الأدارسة.

بعد أن فرغ ابن خلدون من كلامه عن منجزات ميسرة والانتصارين اللذين حققهما الخوارج في شلف وسبع اضاف: اثر هذه الأحداث ظهر إدريس مؤسس الأسرة الإدريسية في بلاد المغرب. كان ذلك سنة 788 بالضبط على حد قول ابن خلدون. ثم أن ابن خلدون نفسه يحدد ظهور الأسرة عام 786. في حين يراه النويري في سنة 788.

فالصلة مع الخوارج واضحة وكذلك مع سقوط الأمويين في الشرق وحلول العباسيين مكانهم.

ويشدد المؤرخون العرب على رفعة أصل إدريس ويقولون انه متحدر من النبي محمد من علي وفاطمة. كما يشددون على مناهضته للعباسيين وهي مناهضة لم تحظ بنتيجة، وكذلك على حياته كلاجئ ومساعدة المصريين له على اللجوء للمغرب ليكون في مأمن من عدوه العباسي. وكلها تفاصيل لا تهمنا كثيرا، وجل ما في الأمر أن هذا المشرقي الذي طوحت به ثورة الشرق ولا شك شخصية دينية مرموقة خليقة بالاحترام. ولم يذكر المؤرخون انه كان بطلا في الحرب كما لم يقم بأي فتوحات ولم يخض معركة واحدة.

ولم يعمر طويلا بعد اعتلائه العرش إذ توفي سنة 792 بعد حكم دام أربع سنوات، وحصل بعد ذلك أمر غريب، فإدريس لم يترك ذرية غير انه ترك امرأة حاملا أو قيل انه تركها. وانتظر الناس ولادة الطفل وكان ذكرا، ويمكن الظن أن لو لم يكن كذلك لامكن استبداله. واعتبر الطفل بعد ولادته بأيام خليفة محتملا لوالده. ولقب بإدريس الثاني بعد أن اثبت قدرته على العيش. والمؤرخون العرب يجمعون على هذه القصة. ويقولون أن إدريس الجديد قد حظي بالبركة. ويقول بعضهم أن إدريس الأول مات مسموما لكن الرواية ليست ثابتة. والمهم أن الفترة الفاصلة بين حكم الأول وحكم لثاني لم يسدها القلاقل والحروب، ويرى النويري أن الاغالبة في تونس لم يشأوا علنا مناهضة سليل الرسول. فما من احد في المشرق أو المغرب إلا ويمكن الاحترام لهذا السلالة. والسؤال الآن: ما اسم القبيلة التي لجأت لبركة الأدارسة لتنشئ حكما مستقلا.

تولى إدريس الأول الحكم في ظروف خاصة إذ لا نعرف اسم القبيلة التي ساندته

للوصول إلى السلطة، بينما نعلم أن كل ملك مغربي لابد وان يستند إلى قبيلة واحدة، القبيلة التي ينتمي إليها. شأن كسيلة وقبيلة أوربة، والكاهنة وجراوة والفاطميين وكتامة والأمراء الصنهاجيين وصنهاجة إلى ما هنالك من أسماء لا تحصى. ويرى ابن خلدون أن إدريس الأول تحالف مع بني زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزه ومكناسه وغماره وسائر القبائل البربرية التي تقطن المغرب. ولو راجعنا كتاب ابن خلدون في مكان آخر وكذلك سائر المؤرخين لوجدنا انه اغفل عنصرا مهما إلا وهي قبيلة أوربة، ثم قبيلة متغرة التي تعرضت للوهن لكنها حافظت على استمرارها، ثم مغيلة القاطنة منطقة شلف الواطنة ومأذونة وكانت من اشد أعوان الأدارسة.

ثم نذكر حلفاء انضموا إليه في وقت متأخر أمثال بني يفرن ومغراوة تلمسان. لقد انضوت كتلة الزناتيين من طنجة إلى تلمسان وحتى شلف تحت اسم إدريس. ولكن ما هي النواة الأساسية التي قام عليها حكمه؟

نشأ حكم الأدارسة في وليلي بإجماع كل المؤرخين. ويروي ابن خلدون أن إدريس ومولاه رشيد وصلا إلى وليلي سنة 788. وفيها نودي به ملكا وقد جعل منها عاصمة له، وفيها أيضا خلفه ولده إدريس الثاني وفي وليلي اليوم لا يزال ضريح إدريس الأول محاطا بالتبجيل والاحترام.

وليلي هي فلبيلوس القطاع المراكشي من تمجاد وجميلة الخ...وهي مدينة رومانية تعتبر بعد طنجة العاصمة الثانية لموريتانيا الطنجية.

وفي "روض القرطاس" يرد اسم طنجة: سار إدريس الأول ومولاه حتى بلغا مدينة طنجة وكانت وقتئذ عاصمة مراكش وأم مدنها وأجمل هذه المدن واعرفها تاريخا... ومكث إدريس ورشيد في طنجة بعض الوقت لكنهما لم يألفا جوها فتابعا السير حتى وصلا إلى وليلي عاصمة جبال زرعون. وكانت المدينة محاطة بأسوار جميلة ذات هندسة قديمة...ونزل إدريس بضيافة وليلي.

وهكذا بحث إدريس عمن يؤازره في المدن الرومانية الواقعة في موريتانيا الطنجية واختار منها فلبيلس بعد تجربة. فأي معنى يمكننا إعطاؤه لذلك؟

لا يستطيع المؤرخون العرب إفادتنا فغي هذا المجال، لأنهم أسدلوا الستار على المرحلة التي سبقت الإسلام. وإذا كان ثمة من صلة بين المرحلتين فلا مجال لإيجادها واضحة لدى هؤلاء، وعلينا أن نقرأ بين السطور كما هي عادتنا في مثل هذه الظروف.

يربط المؤرخون في بداية عهد إدريس -بين وليلي وقبيلة أوربة البربرية. ويروي ابن خلدون أن إدريس لما بلغ وليلي احتمى عند إسحاق بن محمد بن حميد أمير قبيلة أوربة، أما إدريس الثاني فقد أوكل لمؤيديه من بني أوربة ارفع المناصب في مملكته.

ويتفق كتاب روض القرطاس في ذلك مع ابن خلدون حيث يقول "كان قد مضى على وجود إدريس ستة أشهر في وليلي حين جمع زعيم المدينة عبد المجيد إخوانه وقبيلة أوربة لمبايعة إدريس سلطانا". "وكانت قبيلة أوربة أول من حيى الملك الجديد وأوكل إليه القيادة والإشراف على أمور العبادة والحرب والمال". وانضمت بعد ذلك سائر القبائل والقبائل الصغيرة التي ذكرها روض القرطاس.

ومن نافلة القول إن أوربة هي أوربة نفسها، أي القبيلة الأوراسية الشهيرة التي قتلت سيدي عقبة بناء لأوامر كسيلة. وقد سحق العرب هذه القبيلة بعد هزيمة كسيلة ومصرعه. يقول ابن خلدون: قصد بنو أوربة بعد هزيمتهم إلى المغرب الأقصى وما أن بلغوا هذه البلاد حتى أقاموا في وليلي وهي مدينة تقع على سفح جبل زرعون.

أما عن أصل أوربة فيقول ابن خلدون أنهم من البرانس المتميزين عن جيرانهم الأوراسيين الشرقيين أتباع الكاهنة الذين هم من البتر الزناتيين. يعني ذلك أنهم على صلة بالمستوطنين الصحراويين ذوي الطابع الطرابلسي. وكان بنو عربة يقطنون الوديان العالية المقفلة أي وادي الأبيض ووادي العبدي. ولا يزل أبناؤهم يعيشون في تلك المنطقة بخلاف ما يرى ابن خلدون من أنهم غادروها. وبنو عربة هم الذين اختارهم ماسكوراي ليقتفي بواسطتهم أثار روما. ذلك أنهم من سلالة الدوناتيين وهم نوميديون سابقون تأثروا كثيرا بعصور السيطرة الرومانية. وما لجوؤهم إلى فلبيلس بعد أن هاموا على وجوههم في بلاد المغرب سوى دليل على استعدادهم للتزواج مع هذه المدينة الرومانية القديمة.

وهكذا نرى أن وراء بركة إدريس أكثر الشعوب الطنجية تمدنا. ومن الطبيعي أن تكون فلبيلس مركزا لهم بعد قرن من الزمان كانت فيه طنجة منطلقا للفتح العربي المتجه نحو اسبانية.

من البديهي أن الأندلس في الشمال كانت مركزا لإشعاع الحضارة القديمة على مضيق جبل طارق، وهو مركز قديم جدا لا يعود تاريخه إلى المدن القرطاجية والفينيقية وحسب وإنما يتعداها ليشمل ترتسوس التي سبقتها. لقد كانت هذه مركزا حضاريا في موريتانيا الطنجية قبل أن تعطيها روما اسمها هذا بوقت طويل. ومهما يكن من أمر

التنقيب عن الآثار في فلبيلس فان حكام المناطق فيها كانوا يحملون نفس الاسم الذي حمله حكام سائر المدن الرومانية. لقد كان الكونت جوليان على حد رواية ابن خلدون سيد الجزيرة. ثم إن مضيق جبل طارق لم يصبح حدودا إلا منذ عهد إيزابيلا الكاثوليكية وبودبيل وقبل ذلك كان صلة وصل. ولم تكن موريتانيا الطنجية سوى ملحق للحضارة الأندلسية. وفيها حضارة مدينة قديمة عرفت ظروفا مشابهة لافريقية الطرف الثاني للمغرب. كما أن موقف السكان بقي على حاله. وهو موقف نستشفه من كلام المؤرخين العرب على جوليان (بوليان).

يقول دي سلان: لا يمكننا أن نشك بصحة وجود هذا القائد المعروف جدا. ويعرب دي سلان بهذا الصيغة عن افتقار مبطن للجحود والجاحدين. وهو تعبير يدلنا على الطريقة التي نقرأ بها -عن الغربيين- مؤلفات المؤرخين العرب.

ومن الخطأ الجسيم أن نعير انتباها كبيرا لشخصية الكونت جوليان. فلو صح وجوده وهذا مرجح، فلابد وان يكون قائدا كسائر القواد. وخليق بنا أن نتحدث عن ردات فعل موريتانيا النجية عند بدء الفتح العربي.

يروي ابن الأثير انه بعد وصول عقبة إلى طنجة "جاءه يوليان مرحبا وقدم له الهدايا الثمينة واعتراف بسلطته. وسأله عن البربر فأجابه: أن الله وحده يعرف عددهم وأنهم يقيمون في سوس وأنهم لم يتنصروا، وان قوتهم عظيمة. وزحف عقبة على سوس حيث صادف مصاعب كبيرة ومني ببعض الفشل مما لا يسمح لنا بالقول بأن منطقة طنجة قد حنثت بعهدها. وهذا أمر طبيعي. ذلك أن في المنطقة مجموعة صغيرة من سكان المدن المتحضرين المنعزلين بعيدا لم يسلموا من الاحتكاك بأعداد ضخمة من البربر الفوضويين. وما عدوهم الحقيقي إلا هؤلاء البربر. وهم على استعداد للتضحية بالغالي لدفع خطرهم.

كان جيش القوط وقتئذ متمركزا شمالي المضيق، على أن منطقة طنجة أثرت الحماية العربية على الحماية الجرمانية. ويروي لنا النويري كيف أن يوليان قد اصطحب الجيش العربي الذي قاده طارق وموسى بن نصير بعد ثلاثين سنة وأرشده إلى نقاط الضعف في البلاد ووفر لهم المعلومات عنها.

وموجز القول إن المدنيين بحاجة لحكومة منظمة ذات أجهزة عسكرية وإدارية. وهذا ما جاء به الولاة العرب. ولم يكن أهل طنجة ليغفلوا ذلك. فجرى فيها ما جرى في سائر المدن الإفريقية.

ولم تصادف منطقة طنجة صعوبات تذكر مع الفاتح العربي. ولم تشك من شيء في عهده. وقد ظلت المدن على حالها حتى جاء الخوارج ليطرحوا مشكلة الأمن والنظام من جديد. كان عليهم أن يجدوا ملجأ لهم. فعثروا على ضالتهم في حكم الأدارسة.

مدينة فاس

تعتبر فاس أهم المعالم المدينة التي تركها الأدارسة. ذلك أن هذه الأسرة هي التي أنشأتها وخلقتها خلقا عظيما. ويختصر تأسيس فاس مجمل نشاط الأدارسة. وهو نشاط كاف لتخليدهم.

فما من أسرة مالكة أخرى في المغرب أحرزت نجاحا مماثلا.

وقد قام الأدارسة ببناء فاس حالما سنحت لهم لفرصة لذلك.

ولم تبن المدينة في حكم إدريس الأول وكانت ولايته قصيرة جدا. ولم يفكر احد ببناء المشاريع الضخمة في حداثة إدريس الثاني ومنذ 807 بدأ إدريس بناء المدينة...وفي العام التالي جعلها مقرا.

سنة 807 كان إدريس فتى في الخامسة عشرة. لكن رغبة الطنجيين كانت حافزا له.

"لم تعد مدينة وليلي تتسع للجيوش المتزايدة العدد ولسائر رعايا المملكة. فبحث إدريس عن مكان يقيم فيه عاصمة جديدة". كما قال ابن خلدون. ويجب إلا ننسى أن فاس كانت وريثة فلبيلس المباشر. بل أن هذه الأخيرة انتقلت إلى فاس. ولكن ما سبب ذلك وهل تفسير ابن خلدون هو الجواب الشافي؟.

آثار فلبيلس معروفة. وفيها متسع لزيادة حجمها. غير أن الشرقيين لا يرون رأينا في هندسة المدن حيث يفضلون بناء مدينة جديدة على ترميم القديمة أو توسيعها. فمن السهل عليهم أن ينقلوا كتلة بشرية من مكان لآخر. إذ ليسوا متمسكين بالأرض تمسكنا نحن. وافريقية خير مثال على ذلك حيث تخلى العرب عن مدينة قرطاجة وبنوا القيروان في مكان آخر. على عكس الرومان الذين أعادوا بناء قرطاجة في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه زمن البونيين. بعد ذلك بعدة قرون انتقلت عاصمة افريقية إلى تونس. ويلاحظ ابن خلدون بثاقب نظرة أن مدن المغرب مرتبطة بأسر المغرب. فالسلطان هو الذي يختار المكان المناسب لإقامة عاصمة ملكه. لهذا لم تعمر المدن المغربية معظم الأحيان بعد بنائها. وليس هذا شأن فاس التي عاشت بعد الأدارسة ولا تزال قائمة حتى اليوم.

ليس من المستغرب إذن أن يتنادى حاكم وأعوانه لبناء مدينة جديدة، ولكن الغريب حقا أن يتمكن هؤلاء من أبناء مدينة كفاس ظلت عاصمة لمراكش طيلة ألف عام. ولنحاول الآن استقصاء الأسباب الكامنة وراء نجاح المدينة:

يجمع المؤرخون على القول أن اختيار مكانها جاء نتيجة بحث دقيق. وفي "روض القرطاس" أخبار عن طريقة هذا الاختيار. في سنة 805 ذهب إدريس الثاني وبعض ضباطه للبحث عن مكان، وكان وقتئذ في الثانية عشرة من عمره. ووقع اختيارهم على منطقة في جبل واليخ، حيث بدأت أعمال البناء". وفي ذات ليلة هبت رياح عاتية هدمت كل شيء واقتلعت نباتات المدينة وأشجارها وقذفتها في نهر سبع".

وفي العام التالي عاود إدريس البحث وفكر ببناء المدينة على ضفة النهر في مكان يدعى خوالن غير انه فكر بان فيضان النهر سيؤثر على عاصمته.

ثم إن قضية جلب المياه كانت مهمة بالنسبة إليهم. وهي قضية لابد منها في بناء المدن. ولم يكن مدنيو فلبيلوس لينسوا الأمر وهم وراء إدريس. واهتدوا إلى حل ممتاز حيث وقع اختيارهم على مكان غني بالمياه هو المكان الذي تقع عليه فاس حاليا.

ويمتد وادي فاس في تعرجات تتخللها المستنقعات ولا خوف من فيضانه وبنيت المدينة على شكل صدفة تحيط بها الأسوار وبيوتها مرصوفة فوق بعضها على المنحنيات. ولكل بيت قناة ماء صغيرة أشبه بجول يترقرق منه الماء العذب المنساب من بيت لآخر. والمياه من الوفرة بحيث تكفي للاستهلاك المنزلي ولري الحدائق وإقامة النوافير الجميلة. والأمر لا يكلف أكثر من العناية بتلك القناة الأزلية، حيث يتولى كل رب منزل العناية بالجزء الخاص به دون اللجوء إلى سلطات رسمية.

وجدير بالذكر هنا أن طرقة الهندسة الغربية في البناء تعتمد إيصال الماء من أمكنة بعيدة بواسطة أنابيب اصطناعية لهذا يمكن لحجم المدينة أن يتعاظم ويمكن البحث دائما عن ينابيع جديدة لإيصالها للإحياء الجديدة. ذلك كان طراز فلبيلس وقد بدأ سكانها بالرحيل عنها منذ بداية الحكم العربي. ذلك أن المدينة ذات الطابع الغربي تحتاج للمزيد من الصيانة وتدخل السلطات للحفاظ على سلامة اقنية المياه وسائر الأمور الحياتية. أما فاس فينابيعها في داخلها كما رأينا ولا تحتاج لهذا التنظيم.

أنها المدينة الشرقية النموذجية ووادي فاس لا يحتاج لأية عناية أو حراسة، حيث لا يستطيع البربر أو المتمردون تحويل نقطة ماء عن مسارها. والمدينة مركز قائم بذاته لا يحتاج الآخرين وهم يحتاجونه. وفيه ازدهرت حركة التجارة والصناعة.

وفاس نموذج فريد من نوعه بين المدن المغربية. وقسنطينة بدورها مدينة باستمرارها الطويل لحسن اختيار موقعها، لكنها اقرب إلى قلعة محصورة لا يمكنها أن تتسع.

أما فاس فقد نجحت نجاحا مذهلا. فهل هي وليدة تفكير هذا السلطان اليافع أم أن هناك دماغا مفكرا وراءه؟ لعل الحس المدني لسكان فلبيلس وتجاربهم السابقة كانت وراء هذا أما فاس فقد نجحت نجاحا مذهلا. فهل هي وليدة تفكير هذا السلطان اليافع أم أن هناك دماغا مفكرا وراءه؟ لعل الحس المدني لسكان فلبيلس وتجاربهم السابقة كانت وراء هذا الاختيار الناجح.

ثم أن سكان المدن قد آثروا التجمع في مدينة واحدة قوية كي لا يظلوا معرضين دائما لمد وجزر القبائل العربية والبربرية التي كانت تغزوهم بين الحين والآخر.

ولم تكن أية قبيلة بربرية لتحمل ولاء خاصا للأدارسة بما فيها قبيلة أوربة. ويقول ابن خلدون "إن إدريس أمر بقتل زعيم أوربة بعد أن اكتشف تآمره مع الاغالبة". ويضيف في الفقرة نفسها: "كان إدريس يشك دائما بولاء البربر.. وقد عين وزيرا عربيا يلقب بالملجوم بسبب آثار جرح في انفه، كما استعان بنحو خمسمائة من أفراد القبائل العربية ليبقوا دائما في خدمته بعيدا عن البربر. وقد ساهم هؤلاء جديا في ترسيخ حكمه".

ومما لا شك فيه أن الأدارسة استطاعوا رغم ذلك أن يستقطبوا العديد من القبائل البربرية، وقد تجاوز هذا التأييد الحدود الجزائرية الحالية وذلك لأسباب معروفة.

جميع الكتب المدرسية تذكر بحق أن العرب فرغوا من دفع البربر لاعتناق الإسلام بعد أن أشركوهم في الحملة على اسبانية. وقد أفسح الأدارسة للبربر المسلمين مجال غزو المناطق غير المسلمة ومنها إحدى المناطق المراكشية جنوبي أبي رقرق.

تلك كانت من أولى اهتمامات هذه الأسرة. فإدريس الأول الذي لم يستمر حكمه أكثر من ثلاث سنوات (788-791) زحف على جماعات البربر في تلك المنطقة وكانوا وثنيين ويهودا ونصارى واستولى على تمينة (بلاد الشاوية حاليا) ومدينة سلة (الرباط عند مصب نهر أبي رقرق) وتدله (الواقعة في أم الرابية) وأرغم السكان على اعتناق الإسلام.

وسار إدريس الثاني على خطى أبيه بعد أن بلغ أشده وبنى مدينة فاس. يقول ابن خلدون: "في سنة 812 (كان إدريس الثاني في الواحدة والعشرين) زحف على مواطن بني مصمودة وأخضعهم بعد أن احتل مدنهم" ويقيم بنو مصمودة في منطقة الأطلس العليا جنوبي مراكش الحالية.

أنها سياسة معقولة جدا. فالحدود الجبلية تمتد على طول نهر أبي رقرق. وقد حدثنا بلين في التاريخ القديم عن تلك المناطق المنعزلة التي كانت مرتعا للفيلة المتوحشة وعصابات السلب الخطرة.

ولم يعن الرومان باقتحام معقل البربر هذا في الجنوب المراكشي وتبدأ سيطرتهم من فلبيلس وفاس.

ولم يفكر الأدارسة بالحرب في غير تلك المنطقة. ففي ناحية تلمسان استطاع إدريس الأول أن يخضع المدينة بدون مقاومة وكان ذلك سنة 789. " ما أن استولى على تلمسان حتى وضع إدريس فيها أساس المسجد الكبير وبنى محرابا نقش عليه اسمه. ولا تزال الكتابة في المحراب حتى الآن". وحين وفاة إدريس الثاني سنة 828 كانت تلمسان لا تزال تابعة للإمبراطورية. غير أن خضوعها الإرادي جاء نتيجة العروض المغرية التي قدمها حاكم فاس للبربر المسلمين.

وهكذا لعبت منطقة طنجة تحت حكم الإدريس دورا مشابها لدور غالبة في بلاد الفرنجة. حيث استطاعت مقاطعة رومانية أن تحقق فتحا لم يستطع تحقيقه الإمبراطورية بأسرها. تلك كانت جرمانية في الغرب وكذلك جنوبي مراكش. وهو أمر ذو دلالة كبيرة. فسيطرة الأدارسة جنوبي الحدود الجبلية خلقت إمكانيات جديدة إذ فتحت أبواب الشمال للمرابطين ثم للموحدين. وهكذا بدأ التاريخ المراكشي كحقبة مستقلة عن تاريخ المغرب. وقد امتدت دولة الموحدين نحو الجنوب باتجاه غور تازه إلى حين. لكنها ظاهرة شاذة. والقاعدة العامة أن مراكش الموحدين تماما كمراكش المرابطين ومراكش سائر العصور تطلعت جميعا نحو اسبانية وراحت مراكش هذه تتطور وكأنها منعزلة عن سائر المغرب لاسيما بعد تأسيس فاس.

إن ظهور المملكة الإدريسية على علاقة بظهور الخوارج لكنها علاقة رد فعل خاص. يقول ابن خلدون:"وحين انس إدريس الثاني من نفسه القوة قضى على الخوارج في جميع دوله." وخليق بنا هنا أن نذكر ما يمثله حكم إدريس: لقد التف حوله مدنيون متعطشون للنظام والأمن. وتقودهم نخبة من الموسرين المتعلمين الذين هالتهم فظائع الخوارج. وقد ساعدوا الأدارسة على بناء فاس هربا من هؤلاء. وفي هذه النقطة البعيدة من بلاد المغرب نشأت عن الخوارج رغم إرادتهم حكومة نظامية ذات طابع مدني.

4 - ممالك الخوارج
مملكة تاهرت

ممالك الخوارج

تختلف الحال في شرقي تلمسان عنها في جنوبها. حيث نشأت ممالك خارجية بكل معنى الكلمة.

سجلماسة

إحدى هذه الممالك قامت في سجلماسة بتفيلالت. ولا نعرف عنها إلا ما أورده ابن خلدون.

بنيت هذه المدينة عام 757 ف خضم أزمة الخوارج وقد لعبت دورا عظيما. وينتمي مؤسسوها لقبيلة مكناسة التي قرن اسمها بمكناس. ومن المعروف أن هناك طريقا طبيعية مهمة هي طريق السلطان تصل تفيلالت بمنطقة فاس ومكناس. ويرى ابن خلدون أن قبيلة مكناس من البتر الصحراويين. ومن الطبيعي أن يعتنق هؤلاء المذهب الخارجي لمساندة ميسرة. وقد شكلوا في البداية الفئة المتطرفة. فئة الصفرية. وقد انتخبوا الأمير عيسى أول رئيس عليهم ثم قتلوا بشكل فظيع. وهذا دليل على تطرفهم.

وأصبحت سجلماسة عاصمة نحو نهاية القرن الثامن وذلك زمن حكم أبي منصور اليسع واستتب الأمر لهذه الأسرة الجديدة فأخضعت لها الواحات الصحراوية وفرضت عليها الجزية. ومات أبو منصور سنة 823 لكن دولته عاشت طويلا من بعده.

أنها دولة الصحراء والنخيل, وحري بنا أن نذكر هنا أن أشجار النخيل في وادي غير وفي غرارة لم تكن موجودة في عهد الرومان. فقد ظهر النخيل في المغرب مع ظهور الجمل أي في عهد البتر وزناتة بعيد الفتح العربي.

ومن الطبيعي أن تنشأ عن غزو البتر الزناتيين مملكة النخيل في بلاد البربر الجديدة. وتعتبر أشجار تفيلالت ودراع من أجمل واهم ما في المنطقة من نخيل فهي معدة لتكون مسرحا لنشاط كبير. غير أنها مناطق مجهولة منا الآن ولم يبق من آثار سلجماسة شيء يذكر. وما من شيء سوى الذاكرة يدل على وجود مملكة خارجية فيها.

ويروي لنا ابن خلدون أن أبا منصور قد زوج ابنه وابنة عبد الرحمن ابن رستم سيد تاهرت. الأمر الذي أشاع جوا من الألفة مع مملكة خارجية أخرى هي تاهرت.

مملكة تاهرت

وراء مملكة تاهرت شخصية مشرقية مرموقة, كما هي حال المملكة الإدريسية والأسرة الفاطمية. انه عبد الرحمن ابن رستم و يرجع أصله إلى رستم الشهير الذي قاد الجيش الفارسي معركة القادسية وهو فارسي من أحفاد كسرى. ولا غرابة أن شاهدناه على رأس فئة من الهراطقة في الوقت الذي ازداد فيه النفوذ الفارسي زمن العباسيين. وتاريخ الرجل واضح: فقد ظهر في المغرب مع قبيلتي زناتة وهوارة الطرابلسيتين وهما من الخوارج المعتدلين (الإباضيين) الذين انتزعوا القيروان من قبيلة ورفجومة بقيادة أبي الخطاب. وأصبح رستم حاكما للقيروان على مذهب الإباضية اثر طرد ورفجومة منها. وقد اضطر للفرار بعد عودة القوات العربية ظافرة بقيادة ابن الأشعث. فر إلى تاهرت في أواسط المغرب... حيث استقر فيها وبنى مدينة تاهرت الجديدة كان ذلك سنة 761. ومنذ ذلك الحين نشأت مملكة تاهرت واشترك ابن رستم سلطان تاهرت في حصار تبنة بجيش قوامه ستة آلاف من الإباضيين. وهو في عداد أولئك الذين باعهم أبو قرة تحت أسوار تبنة بأربعين ألف درهم. فاضطر للانسحاب مع من بقي من جيشه. ولم يفكر العرب باللحاق به, وسرعان ما رضخ القادة العرب للأمر الواقع. في سنة 787 طلب ابن رستم حاكم تاهرت المصالحة مع حاكم القيروان وكان له ما أراد. ولم يقع ما يعكر المعاهدة من جهة الاغالبة حكام افريقية إلا في عهد الوهاب خليفة ابن رستم. "في سنة 811 قام في طرابلس على رأس جيش من قبيلة هوارة بمحاصرة الأمير الاغلبي في الوقت الذي كان فيه عرش الاغالبة شاغرا في القيروان. وانتهى النزاع بين الطرفين بتوقيع معاهدة واشترى الاغالبة السلام من عبد الوهاب بعد تخلوا لصالح أتباعه من البربر عن مجمل البلاد المفتوحة... وانسحب عند الوهاب".

أما من ناحية الأدارسة فقد حصل نزاع بين الرستميين وزناتة تلمسان (مغراوة وبنو يفرن) التكتلين مع سائر البربر الموالين لفاس. وقد حاول هؤلاء إرغام الرستميين على الخضوع للأدارسة فرافض هؤلاء بعناد ولم ينهزموا إلا في عام 908 أمام الجيش الفاطمي.

وهكذا تتضح ملامح هذه المملكة الرستمية التي عاشت قرنا ونصف القرن من الزمان واستطاعت أن تعاصر مملكة الأدارسة في فاس ومملكة الاغالبة في القيروان. ويجمع المؤرخون العرب على تأييد ما أورده ابن خلدون بشأنها. ولدينا تاريخ خاص عن الرستميين لأبي زكريا.

اكتشف ماسكوراي هذه المخطوطة ونشر ترجمتها سنة 1878. لكنه لم ينشر النص الأصلي. ولم يعثر عليه بين مخطوطات ماسكوراي بعد موته. وقد وعدنا الأستاذ زموغرزفسكي بنشرها في المستقبل. ولعله من المستهجن حقا أن نطاع على مخطوطة عربية بنصها الفرنسي فقط. ولو أخذنا الأمر على علاقته لاستطعنا أن نعثر عند ماسكوراي على تعليقات وحواشي توضح تاريخ الرستميين.

تمتد سلطة هؤلاء بعيدا نحو الشرق حتى مشارف طرابلس. ويتردد ذكر طرابلس في رواية أبي زكريا تردد اسم تاهرت.

دعا الرستميون حين شعروا بالتهديد سكان جبل نفوسة لمساعدتهم. وفي مجال حصار طرابلس هذا يسهب أبو زكريا في الحديث. أما ابن خلدون فلا يتطرق للأمر إلا لماما -يذكر أبو زكريا أن الإمام الرستمي كان ينصب الحكام وبعد الاجتماعات ويرئسها ومكث في جبل نفوسة سحابة سبع سنوات. ويوم حصار طرابلس "جميع كل من ذخل في طاعته بجوار طرابلس وجبل نفوسة والجبال المحيطة". ويضاف إلى ذلك جزيرة جربة. وقد سيطر الرستميون على جميع البلاد الطرابلسية المفتوحة على شاطئ البحر, ما عدا المدن التي ظلت على ولائها للاغالبة. ويذكر أبو زكريا كيف أن الإباضيين كانوا مسيطرين على الاتصالات الأرضية بين الاغالبة ومصر. ويأتي بقصة أغفلها ابن خلدون وذكرها النويري بإيجاز وهي أن إبراهيم الأغلب أراد أن يذهب بجيشه من القيروان إلى طرابلس. وكان ذلك نحو 865 أو 896. وأرسل لبني نفوسة يطلب إليهم السماح له بالمرور من ناحية الشاطئ عبر شريط ضيق يتسع له ولرجاله. ورفض بنو نفوسة تلبية رغبته. وانتهى الأمر إلى معركة قضى فيها عليهم وبدأ حكم الرستميين بالانهيار ولم يعمر بعد المعركة سوى عدة سنوات. ذلك أن هذه المنطقة الطرابلسية كانت إلى جانب تاهرت خير معين لهم.

وهناك نقطة أخرى مهمة هي منطقة اورغلا. فحين أرغم يعقوب آخر الرستميين على مغادرة تاهرت فر قاصدا اورغلا فبلغها بسهولة واستقبل على الرحب والسعة. وجرى له فيها استقبال عظيم, كان ذلك سنة 909. وكانت اورغلا ملجأ لآخر الإباضيين بعد انهيار مملكتهم. يقول أبو زكريا إن شيخ الإباضية كان يمضي الشتاء في وادي غير (اورغلا واحته الجنوبية) ثم يعود ناحية الصحراء قاصدا بني مصاب. ولم تعد اورغلا صالحة للسكن مع الوقت فانتقل الناس إلى الزاب حيث تجمع كل من بقي من إباضية الجزائر. وهناك عثر ماسكوراي على مخطوطة أبي زكريا.

ويقول ماسكوراي بحق: ما من واحة بين قابس وفجويج وسجلماسة إلا وهي مدينة بتطورها للخوارج، صفريين كانوا أم إباضيين الخ... لقد كانوا سادة الصحراء.

فهم صحراويون بكل معنى الكلمة إذ علينا أن نلاحظ أن تاهرت وسرسو الملحقة بها تابعتان للصحراء.

وليس في تاهرت اليوم سوى آثار رومانية. ويفترض غيزل أن الرومان قد أنشأوا فيها مراكز عسكرية على الحدود ثم منطقة سكنية للمدينة، ولم يجد في الآثار الباقية ما يؤيد فكرته. وكان لتاهرت أهمية كبرى في عهد السيطرة البيزنطية. ويشير غيزل نفسه إلى بقايا أسوار تعود إلى عهد قديم (عهد سيطرة الأمراء البربر قبل الرستميين).

ومن الناحية الأثرية البحتة هناك آثار الجدار جنوبي تاهرت في المينا العليا. وهي عبارة عن أضرحة شبيهة بتلك الموجودة في مدغاسن "وبقبر المسيحية" ولبكنها تعود لوقت متأخر عنها. وقد عثر فيها على كتابة إغريقية. كما استخدم في بنائها أدوات تعود لعصر سابق لها كبقايا هندسة مسيحية وكتابات منقوشة..ويستنتج غيزل أنها عاصرت العهد البيزنطي وينسبها إلى أهالي تاهرت.

وتاهرت في العهد البيزنطي كانت في نفس المكان الذي تقع فيه اليوم. وعاصمة الرستميين (تاهرت الجديدة) تبعد خمسة أميال غربي تاهرت القديمة. وإذا كان رستم قد أطلق على مدينته لقب الجديدة فهذا ما يؤكد أن المدينة القديمة ماثلة في الأذهان.

كانت مصادرنا حول هذه الأسرة البربرية مقتصرة على الآثار التي تركتها لو لم يرد ذكرها عند ابن خلدون: عندما قام عقبة بحملته الأولى على المغرب لم يصادف مقاومة تذكر إلا في موضعين، احد الأوراس حيث قتل لدى عودته وواحد في تاهرت. "وقد تحدى في تاهرت الأمراء البربر ومؤيديهم الفرنجة". وغيزل محق في اعتباره أن هؤلاء الأمراء البربر ينتمون لأبناء تاهرت.

وعلينا إلا نحصر كثيرا تاريخ هذه الأسرة الغامضة. وقد سبق لنا القول أن كسيلة ينتمي إليها. وتمكننا الإشارة أيضا إلى أن تاهرت كانت مركزا سياسيا هاما في الفترة التي رافقت ظهور الجمالين الرحل القادمين من الشرق والذين كان لهم شأن كبير في زعرعة أركان نوميديا.

تقع تاهرت على ارتفاع 1100 متر عن سطح البحر على سفح جبل التل التي يبلغ ارتفاعها 1200 مترا. ولا يقل ارتفاع المناطق المحيطة بها عن ألف متر. وشتاء تاهرت يمتاز

ببرودته وضبابيته ورطوبته وثلوجه. أي على عكس الصحراء تماما وهذا ما يجعلها قبلة أنظار الصحراويين: ولهذا تغنى بها هؤلاء وانشدوها ارق الأشعار كما ذكر ماسكوراي:"يروي أن عربيا قصد إلى تاهرت ثم ذهب بعدها إلى بلاد الزنوج ونظر إلى الشمس وخاطبها قائلا: أراك اليوم مزهوة، لكنهك كنت صغيرة جدا في تاهرت.

وهكذا تعتبر تاهرت والمنطقة المحيطة بها مركزا للاصطياف يقصده سكان الصحراء مع قطعانهم هربا من الحر الشديد.

وتاهرت اليوم إحدى مدن التل وتقع بجوارها بلاد سرسو الزراعية. ويقصدها البدو الصحراويون قادمين من أقصى الجنوب الشرقي من لربا في الاغواط. بعد أن يقضوا الشتاء في وادي الجدي بمنطقة تقع على شبكة طرق طبيعية تؤدي إلى الزاب من ناحية والى وادي غير من ناحية أخرى. وينتقل بنو لربا إلى تاهرت عن طريق شلاله. وهناك طريق أخرى من الجنوب التونسي ووادي غير تؤدي مباشرة إلى تاهرت عبر غور الزاب (بسكره) وهدنة. وعلى طول المنطقة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي عبر الجزائر تمتد المراعي التي كانت تابعة لدولة الرسميين.

وتدل الطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة أن تاهرت، مملكة للبدو الأقحاح.

وقد اختفى الإباضيون كفرقة دينية في تاهرت اختفاء تاما. في حين استمروا على شكل جماعات صغيرة في جبل نفوسه والزاب أي في المناطق الصحراوية. وليس الأمر وليد صدفة لان قوة الدولة الرستمية كانت في الصحراء.

ويكفي أن نذكر أسماء القبائل التي أنشأتها وساندتها. وكلها من البتر، الشرقيين في معظمهم ممن لهم ارتباط بجنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية. وهناك يحدد أبو زكريا مواقعهم وخاصة في جوار طرابلس. ومنهم قبيلة زواغة التي استوطنت جزيرة جربة. ويذكر ابن خلدون أن جماعات من قبائل لواتة وهوارة وزواغة كانت تقيم في سرسو على أبواب تاهرت وهي من اشد مؤيدي الرستميين. وأراضي تاهرت نفسها تعود إلى ملكيتها لقبيلة لماية الإباضية الشهيرة كجارتها مطماطة. ويقول ابن خلدون: "إن بني لماية كانوا بدوا يجوبون المواقع الإفريقية والمغربية غير أنهم عاشوا في ذلك الجزء من المغرب الذي يجاور الصحراء". كما ينسبهم لبني فاتن على غرار مطماطة. أي ينتمون لفئة استقرت في أواسط المغرب. على أننا بتنا نعرف بان معظم هذه الفئة -مثل قبائل تلمسان وشلف الواطئ- اجتذبتها فاس وأسيادها الأدارسة. فهل يحق لنا الاعتقاد أن بني يفرن -المنتسبين إلى زليطن أي المنحدرين من النوميديين المصاولة- لا يمتون بصلة

للبدو والطرابلسيين. ذلك من شأنه أن يتجاوز القرائن الايجابية القليلة التي نملكها.

على أن هذا القبائل الرستمية من البدو الرحل على كل حال. ويورد أبو زكريا مقابلة جرت بين فئة من لواتة وبين الخليفة عمر بن الخطاب بواسطة المترجم. سألهم عمر: "هل لكم مدن تعيشون فيها؟" فأجابوا: لا. وهل لديكم حصون تذودون فيها عن ممتلكاتهم؟ فأجابوا: لا. وهل لديكم أسواق تقومون فيها بالبيع والشراء؟ فأجابوا: لا. عندها أجهش عمر بالبكاء، لأنه تذكر إحدى نبوءات النبي حين قال: إن شعبا من الغرب سيخلف العرب ليس له مدن يسكنها ولا أمكنة محصنة يأوي إليها ولا أسواق يتاجر فيها. أنها أنشودة البدو يتناقلها الرستميون.

ويقول ابن خلدون إن الصفريين وحدهم قد وضعوا بتصرف الرستميين نحو ثلاثين ألف رجل كلهم بدو يعيشون تحت الخيام.

ويساعدنا أبو زكرياء على رسم صورة على الإباضية: شعره ذو ضفائر، يحمل مهندا مستقيما طويلا له حد أن قاطعان يختلف عن السيف واليطقان. كما يحمل خنجرا مربوطا بذارعه. وأظن أم ماسكوراي على حق في مقارنته مع ابن الطوارق حاليا. ويذكر لنا أن المرأة الإباضية مثقفة، مما يزيد في وضوح الشبه. ذاك أن المرأة عند الطوارق تحتل في علمها وثقافتها مكانة تختلف عن مكانة المرأة في بلاد المغرب. لقد عني ماسكوراي بالطوارق عناية كبيرة. وليس مستبعدا على كل حال أن يكون هؤلاء البدو الخوارج قد تركوا بعض ميزاتهم لطوارق الهقار وهم من تبقى من قبيلة هوارة.

ولنشر هنا إلى أن الخنجر المربوط باليد وجد في عهد كوريبوس وليس قبله. فلم يذكره المؤرخون ولم يظهر رسمه في الآثار القديمة. فهل يعني ذلك أن سلاح الطوارق هذا قد ظهر في العصر البيزنطي مع قبائل الجمالين الكبار. هنا أيضا ينبغي لنا إلا نتجاوز النصوص.

وأخيرا هناك حقيقة ملموسة هي أن مملكة الرستميين لم تتجاوز حدود الأراضي الوعرة والصحراء. وتاهرت هي رأس الطريق الطويلة الممتدة عبر التل المتجهة نحو البحر من ناحية المينا وهضبة منداس وشلف الواطئ.

ومن المؤكد أن برابرة شلف الواطئ بما فيهم أهل مأذونة كانوا من مساندي الأدارسة. ولم يكن لهؤلاء منافذ مفيدة على البحر فالناحية الطرابلسية كانت تحت حكم الأغالبة. ولم تغير مملكة الأغالبة هذه ملامحها منذ القرن التاسع. حيث كانت موطن

المناخ الجاف والعزلة الكبيرة والمراعي المجدبة. ويمكننا الاستعانة بما ذكره أبو زكريا لتتضح لنا ميزات هذا الإباضي في طباعه العميقة.

لا يسعنا هنا أن نجاري ماسكوراي، تاريخ أبي زكريا وضع في الزاب بعد المملكة الرستمية وليس في عهدها. وأهل الزاب الحاليون من سلالة الرستميين لكن ملامحهم تغيرت خلال ألف سنة. إذ تعرضوا لهذا التحول الذي يعرفه المجتمع الشرقي. وعلى غرار الأرمن واليهود أصبح الزابيون بعد انهيار الإمبراطورية نوعا من قبيلة المتلاحمة الفخورة بأصلها رغم البعد بين أفرادها. والعامل الديني يفعل فعله في هذا المجال كما ازداد أثره مع الزمن. وتاريخ أبي زكريا شاهد على ذلك، فهو ليس الوثيقة التاريخية وإنما هو مجموعة من المتفرقات التي تروي ماضي الرستميين من وجهة نظر المثقفين من أهل الزاب. وهذا لا يفقد تاريخ أبي زكريا قيمته، ولكن ينبغي أن نقرأه بكثير من التمعن. ويقول الكتاب مثلا أن الجماهير الشعبية الموالية للرستميين لم تكن تحسن سوى البربرية ولم تكن قادرة على متابعة الجدل الديني بالعربية. وكانت على استعداد لقبول جميع القضايا اللاهوتية إذا ما اتفقت ومصالحها وأهواءها. وما يهمنا هنا أن نستخلص الطبيعة المتأصلة في الرجل البربري.

من المؤكد أن البربري والبدوي من ذوي الطباع الدينية، فالسلطان الرستمي كان إماما قبل كل شيء يدعي السلطة الروحية على العالم كله. كما أن نظام الوراثة في الدولة الرستمية كان ينتقل من الأب إلى الابن ولكن ليس بطريقة عادية إذ انه كان من الواجب في كل مرة أن يجري استفتاء شعبي لمبايعة الحاكم الجديد. ومن الغريب حقا أن سلالة الرستميين لم تتصدع رغم القلاقل الموجودة على الرغم من أن الإمام معرض للعزل في كل وقت إن هو خالف الشريعة الدينية. وقد أتت حركات العصيان شكل الانشقاق الديني. غير أن هذه الانشقاقات، رغم كثرتها لم تكن خطيرة في عهد الرستميين. غير أن طبيعة الحكم في دولة الرستميين لم تكن مختلفة عن حكم الخلافة في بغداد فالخليفة بدورها زعيم روحي.

يقول أبو زكريا: كانت خيول الإباضيين من ممتلكاتهم الخاصة فالخزينة العامة ليست تحت تصرفهم الشخصي، وهم يكسبون خبزهم بعرق جبينهم فليس هناك إذن جيش نظامي أو إدارة مركزية.

"كتب بنو نفوسة للإمام يخبرونه بنبأ موت حاكمهم طالبين اختيار خلف له. فأجابهم أن عليهم اختيار أصلح من فيهم لرعاية شؤون المسلمين، ثم إرسال اسمه للإمام".

ويشير مقطع أورده أبو زكريا انه لم يكن للإمام حرس خاص. فالقاضي الرستمي يتعرض للإهانة من المتقاطعين إن لم يوجد شخص في المحكمة يتبرع للدفاع عنه.

ولا يصعب علينا تفسير هذه الظاهرة طالما أن دولة الرستميين قامت في المناطق الوعرة ولم يكن لها ميزانية عامة. ومن الطبيعي أن ينمو شعور التقشف في جو كهذا الجو.

ويخبرنا أبو زكريا كيف أن أبا زكريا كان يبني بيده يعاونه عبده. وقد استقبل السفراء الشرقيين وكان فوق الجدار فنزل إلى الأرض وغسل يديه في الجرن وسلم عليهم ودعاهم إلى عصيدة أعدها بنفسه.

كما يخبرنا كيف أن الرستمي كان يستعمل عمامته كفتيل للمصباح حتى مطلع الفجر في الليلة التي يعكف فيها على المطالعة. كما كان الحاكم الرستمي يرفض الهدايا التي تقدم إليه من المشارقة. لأنه يفكر بمصيره في الحياة الأخرى.

كما يحدثنا أبو زكريا عن زيارة قام بها الإمام الرستمي إلى رجل من الإباضية اسمه المهدي. فوجد بيته خاويا من كل شيء يستطيع بواسطته أن يقي الإمام من البرد وكان متفرغا للعبادة كل التفرغ. ثم زار منزل احد أبناء عم المهدي وكان من الموسرين وقد أثث منزله بأحسن أنواع الرياش والسجاد. فقال الإمام:

يا مهدي، إن الجنة من نصيبك.

وقد فرض الإباضيون عقوبات صارمة على أهل الشر: فالزاني يرجم والسارق تقطع يده.

ويسود القانون نفسه ارض المعركة فلا سلب ولا قتل دون مبرر. وهذا يجعل الإباضية مختلفة كل الاختلاف عن الصفرية.

وقد تحدث ماسكوراي عن الشبه بين الإباضية والوهابية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أواسط شبه الجزيرة. وكتب عنها بلغريف كتابا موفقا. ذاك أن الوضع الجغرافي متشابه فهنا وهناك نجد بدوا بعيدين عن البحر يعيشون على قحط الصحراء. فالبدوي الذي لا يسيطر على مدينة من المدن هو اشد الناس فقرا. وهو ميال للعزلة والتقشف وشديد الشغف بالفضيلة. ذاك انه يحول بؤسه لتطرف ديني.

وهناك عنصر ضروري آخر هو عنصر الاستقرار. ومغرب الرستميين كان هادئا إذا ما

قيس بالتاريخ الصاخب الذي عرفته تلك البلاد.

ولم يكن الأدارسة في الغرب والأغالبة في الشرق ليعنوا بالرستميين. ذاك أن الأدارسة وجهوا قوتهم التوسعية نحو الجنوب المراكشي وصب الأغالبة انتباههم على صقلية. وقد ذكر ابن خلدون والنويري لماما بعض الإيضاحات عن موقف الأغالبة كلما كانوا يدون لمهاجمة البدو.

وقد قام أول الأغالبة حين كان حاكما على تبنة وفي عهد أبي قرة بمحاولة للاستيلاء على تلمسان ثم على طنجة لكن الجيش تخلى عنه واضطر للتراجع. وإبراهيم بن الأغلب وهو واحد من أواخر ملوك هذه السلالة غزا طرابلس سنة 894 على رأس جيش أراد أن يبلغ به مصر. ويقول النويري إن أكثر من نصف جيشه تخلى عنه عائدا إلى افريقية. فاضطر بدوره للتراجع.

ويبدو أن فظائع الخوارج قد جعلت الناس يملون القتال طيلة القرن التاسع. وقد عاشت زناتة في ظل الرستميين حياة تأمل وتصوف وسط الصحراء. وانتصر الإباضية معتدلو الخوارج. غير أن البدوي الذي يشعر بالحرمان في أعماقه لابد وان يتحول من الاعتدال إلى التطرف. وسرعان ما قامت دولة المتطرفين.

5 - نشأة الخلافة الفاطمية وقبائل كتامة

الفاطميون

بوسعنا الآن إلقاء ضوء على تاريخ الخوارج. لقد كان تاريخا حافلا بالأحداث وضع حدا لحكم الخلفاء في المغرب. فلم يعد عامل الخليفة الشرقي هو الذي يعين الحاكم ويعزله كيف شاء. وليس بمقدور الجيوش الشرقية لن تعبر افريقية انطلاقا من مصر. وصحيح أن معركة القرن أنقذت الإسلام في المغرب لكن معركتي شلف وسبع قد كسرت الطوق الذي لم يلتئم مرة أخرى. ولابد لهذه المعارك الثلاث أن تستحوذ على انتباهنا نظرا لارتباطها بمعركة بواتييه.

ومصدر هذا التحول في الشرق عند العباسيين المحبين لفارس والذين خلفوا الأمويين.

ثم إن الخوارج جعلوا المغرب يستعيد نفسه. ولم يعد يحمل من الفاتح العربي غير دينه أي حضارته. ولم يعرف فاتحا آخر قبل مجيء الأتراك. أنها حقبة فريدة من نوعها في تاريخ غزوات طويلة الأمد. حقبة تسنى فيها للمغرب أن يستعيد نفسه وتكوينه ويشكل عناصر الوطن.

واتخذت البلاد على الفور شكلا مميزا طبيعيا. وتبلور كلا العنصرين البشريين اللذين يكونانه. فالمدن القديمة المطبوعة بطابع الحضارة البونية والرومانية انقسمت إلى مملكتين قامتا على طرفي البلاد: مملكة الأدارسة في فاس ومملكة الأغالبة في القيروان. وبينهما كان البدو في ظل الرستميين يعيشون في عزلة لا يؤثرون في جيرانهم ولا يؤثر جيرانهم عليهم. والفارق كبير بين فريق البدو وفريق الحضر. وقد سادهما نوع من الاستقرار الذي دام قرنا كاملا. ولكنه كان استقرارا متقلقلا. فالحياة السياسية في بلد حضارته شرقية لابد وان ترتكز على تعاون البدو والحضر. ولا يمكن لهاتين الفئتين أن تعيشا متباعدتين إلى الأبد. ومن الطبيعي أن تنجذب احدهما نحو الأخرى ليحدث الانفجار قبل أن يتحقق الانصهار. وينبغي لنا أن نعثر على فترة الانصهار هذه. فتلك المعضلة الأولى.

حدث خلل في التوازن نحو سنة 900 في الفترة التي بدأت فيها ملحمة الفاطميين.

واهم حدث ميز العصر الوسيط الأول هو قيام دولة الفاطميين في المغرب. فقد خلق هذا الحدث تحولا كبيرا في العالم الإسلامي بأسره. كان أثره أعظم من أي اثر آخر قبله وبعده.

المهدي عبيد الله.

لابن خلدون رواية خاصة عن ظهور الفاطميين تتفق ورواية ارنست مرسييه. ففي البداية تفسير لنشأة هؤلاء وكيف أنهم متحدرون من فاطمة بنت النبي وزوجة علي. وهم أحفاد المهدي عبيد الله مؤسس الأسرة في مراحل اغترابه في شبه الجزيرة ومصر وطرابلس ثم في المغرب. ولطالما سعى الخلفاء العباسيون لقتل هذا الرجل.

وبينا المهدي مختبئ، عثر احد دعاته كما يسميهم المؤرخون العرب على موقع مناسب في إحدى نواحي المغرب. اسم الداعية عبد الله. والمكان المناسب في الأرض التي تملكها كتامة.

وتاريخ المهدي الهارب وداعيته الأمن مفعمة بالطرافة والمبالغة. وقع المهدي أثناء هربه في الأسر عند ملك صغير في إحدى الواحات النائية التي لا علاقة لها بالأمر: كان ذلك في تفيلالت عند قبيلة سجلماسة. واستطاع الداعي أبو عبد الله على رأس فرقة من كتامة أن يقتحم المكان الذي سجن فيه المهدي ويقسم يمين الولاء له ويصعده على ظهر الحصان. ثم يمشي أمامه ودموع الفرح تنهمر من عينيه وهو يهتف: هذا مولانا، هذا مولانا.

وخلاصة الرواية أن قبيلة كتامة تبنت قائدا قادما من الشرق. والغريب أن قصصا مماثلة قد حدثت في المغرب مرتين أو أكثر كما رأينا.

فهذا إدريس سليل علي وفاطمة أيضا يأتي المغرب لاجئا، ثم يصبح ملكا على القبائل البربرية في وليلي، ويؤسس أسرة الأدارسة وأول مملكة في فاس.

وهذا رستم الفارسي، شرقي آخر متحدر من كسرى يؤسس بين زناتة أسرة الرستميين، أي مملكة الخوارج الإباضيين في تاهرت التي يتحدر منها أهل الزاب الحاليون.

فالقصة تتردد دائما على هذا النحو في المغرب: نبيل من المشرق طريد تجتمع حوله قبائل المغرب. ونجاح الغريب يتفق مع القول المأثور: لا كرامة لنبي في وطنه. ولاسيما وان المغرب موطن خصب لاستقبال الأنبياء، ذلك انه طيلة ألفي عام سار في ركاب قواد من

الخارج. وإذا كان المغرب قد قاوم الإسلام فانه لم يبد في ذلك شخصية مميزة. وراح يبحث عن زعمائه وراياته في بلاد ما بين النهرين.

على انه لا الرايات ولا شخصيات الزعماء هي التي تهمنا في هذا المجال.

ومن المبالغة الشك في صحة وجود المهدي عبيد الله وداعيته عبد الله. فهناك مغامرون من هذا النوع حملوا هذا الاسم أو أن الأحداث حملتهم إلى ذلك. ومن المؤكد على كل حال أنهم جاؤوا المغرب بمذهب إسلامي جديد هو المذهب الشيعي. ولابد لنا أن نتطرق قليلا إليه.

المذهب الشيعي

للمذهب الشيعي نقطة التقاء مع المذهب الخارجي من حيث أساسه وطابعه اللاهوتي. فحين قتل علي بن أبي طالب على يد احد الخوارج رفض الكثيرون من أتباعه الاعتراف بمعاوية كخليفة شرعي وظلوا على ولائهم لأبناء علي. فالمذهب الشيعي تماما كالمذهب الخارجي والدوناتي لم يكن في البداية سوى حركة منشقة ونتيجة اصطدام بين أشخاص وحرب بين رجال دين. وهي حركة انشقاق شرقية يرجع عهدها للفترة الأولى التي رافقت ظهور الإسلام. غير أن هذا المذهب لم يحافظ على طابعه في الشرق، بل أصبح الراية التي انضوى تحتها الفرس ليعبروا بطريقة تختلف نوعا عن الطريقة السامية في مجال الفلسفة والإيمان بالله. أما في المغرب فلم يكن للمذهب الشيعي أي طابع عقائدي خاص.

ويختلف هذا المذهب اختلافا ظاهرا عن المذهب الخوارج. فلا يعرف بهذا التقشف الشديد وذاك التطرف الديماغوجي اللذين يتسم بهما الخوارج. بل هو على العكس من ذلك مذهب تسامح ومصاحبة. وقد نسب لشيعة المغرب بعض الانحلال في العادات. لهذا لم يضرب هؤلاء لهم جذورا عميقة في هذه البلاد.

على انه ليس بمقدورنا اعتماد اعتبارات كهذه، لان البربر الذين بلغوا السلطة في عهد الفاطميين ليسوا بعد الآن من زناتة وإنما ينتمون للفئات المناوئة لها. وقد لزوم لهذه الفئات مذهب ديني جديد في الوقت الذي كانت المذهبية الدينية تقرر الأمور السياسية. الأمر الذي يسر ظهور المذهب الشيعي. على أن أي مذهب آخر كان قادرا على أن يلعب الدور نفسه.

ولا تعنينا على كل حال شخصية عبيد الله أو ميزة المذهب الشيعي. وقبيلة كتامة هي التي أعطت حركة الفاطميين الطاقة اللازمة لها إذا صح هذا التعبير الصناعي.

موطن كتامة

لم تظهر قبيلة كتامة في التاريخ العربي منفصلة عن قبيلة أخرى صنهاجة. وقد ذكر المؤرخون هاتين القبيلتين معا في أكثر من مكان. ويذكر ابن خلدون وراءهما بني زواودة المقيمين بين باجة ودالس على مرتفعات شاهقة ومليئة بالغابات بحيث لا يستطيع المسافر إليها أن يهتدي لطريقه. وكان بنو زواودة حلفاء لقبيلة كتامة منذ قيام الدولة الفاطمية.

وكتامة وصنهاجة والزواودة كانت نقيم في منطقة القبائل المعروفة اليوم. وهي موريتانيا الرومان. وهي منطقة طبيعية حملت لواء استقلال المغرب. وقد آن الأوان لتظهر موريتانيا، القبائل على المسرح. فهي التي احتلت المكان الأول عدة قرون وحاولت إثبات وجودها وودود المغرب.

ومكان كتامة معروف في المجموعة الموريتانية. وقد عدد ابن خلدون مدنها سطيف وميلا وقسنطينة وكولو وجلجي. كما أرجعها لجدها كتام ثم وصل إلى ايتاو التي تضم جميلة وجميلة اسم قبيلة وقد أعطي لخرائب كيكولم. ويذكر بطليموس هذا الاسم باليونانية. وهناك كتابة منقوشة باللاتينية بفدولاس بين ميلا وجلجي تسميها اوكلماني. وحدود هذه القبيلة واضحة، حيث تقع في الطرف الشرقي لبلاد القبائل الصغرى بين سطيف وجلجلي وبين بابور وقسنطينة. تلك هي النقطة التي نشأت فيها الدولة الفاطمية وهو أمر يثير العجب. وليس لهذه البلاد ميزات خاصة سوى أنها جبال كسائر جبال القبائل ولكن ما يفرقها عن غيرها أنها تقع عند الطرف لشرقي لموريتانيا وقد كانت لأمد طويل على اتصال مباشر بموطن الثقافة القرطاجية والرومانية. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية كان الوادي الكبير الحد الفاصل بين نوميديا وموريتانيا أي جبال كتامة التابعة السهول بون (عنابة) وهو مركز حضاري قديم. وكانت سرتا أي قسنطينة حاليا وهي أقدم مدن الجزائر تقع في تلك المنطقة المتصلة بجبال كتامة.

وهي المنطقة المعرضة أكثر من غيرها لإشعاع الحضارة القرطاجية. وقد جرى تنظيم البلاد إداريا في وقت متأخر على أساس أنها موريتانيا سطيف. ذلك أن اثر البونيين واللاتين فيها قد جعلها مختلفة عن نوميديا وعن موريتانيا نفسها. وكانت المدن اللاتينية تحيط بها من كل صوب ومنها سرتا وسطيف وميلا وكوكولم. الخ... إلى جانب المدن

الساحلية التي كانت مرافئ فينيقية وقرطاجية مثل كولو وجلجي. كما كانت على اتصال من جهة الجبال مع مغاربة منطقة القبائل الصغرى وهم أشباه القبائل حاليا وقد كان بروكوب يعجب من بربريتهم: "وكانوا يعيشون في أكواخ ضيقة في الصيف والشتاء. ويفترشون الأرض، أما أغنياؤهم فينامون على الجلود. ولباسهم عبارة عن مئزر بشع ومعطف قديم... ولا يملكون الخبز أو النبيذ أو أي شيء لذيذ... ويأكلون الحبوب غير مطهية كالحيوانات..". ويمكننا في أيامنا هذه أن نعثر في مخلاة رجل القبائل على بعض حفنات الدقيق يلتهمها نيئة طيلة النهار ويمضغها بأضراسه القوية ولا يتناول شيئا غيرها.

هذا التداخل بين الوحشية والحضارة هو الذي يجعل البربر مهيبي الجانب. أنهم جماعات بشرية ولها قدرة الحيوان على المقاومة وتحت نصرفها إنتاج حضارات قديمة في نفس الوقت. أنها سنة التاريخ. فالفرنجة مثلا لم يكونوا غير ذلك. أن حواشي البلاد القديمة المنهكة امتن من داخلها. وفي تلك الحواشي تتكون دول جديدة سبق أن شارفت على الزوال.

لقد حاول المغرب إعادة بناء نفسه على أطراف افريقية، وفي نوميديا أولا ثم في بلاد كتامة.

وقد كان تاريخ كتامة بمثابة حقبة رائعة ومخيبة للآمال في آن معا.

وصل أبو عبد الله الداعية نحو سنة 890 ميلادية. أنها بداية الحركة بعد مضي قرنين على دخول الإسلام بلاد المغرب. فمنذ قرنين والعرب يحكمون سعيدا كل افريقية. النقطة الوحيدة التي شعروا فيها وكأنهم في ديارهم. وكان يتولى شؤون افريقية حكام يختارهم الخلفاء إلى أن جاء وقت استطاع ابن الأغلب احد هؤلاء الحكام أن يقيم حكمه بنفسه ويؤسس دولة الأغالبة دون خوف أو وجل. لكنها سلالة عربية محضة. وكان الأغالبة في ذلك الوقت قد ركزوا حكمهم بعد استيلائهم على صقلية، لكن حكمهم بدأ يهرم بعد أن مضى عليه أكثر من مئة عام وهي فترة طويلة بالنسبة للأسرة الحاكمة عند المسلمين. فابن خلدون يحدد عمر هذه الأسرة بثلاثة أجيال. وقد تصرف آخر الأغالبة كالمجانين الدمويين.

وكانت بلاد كتامة تابعة لدولة الأغالبة وتقع عند طرفها. وقام بنو كتامة بثورتهم ضد هؤلاء.

اكدجان

يقول ابن خلدون أن مدينة اكدجان تقع في أراضي بني سقيان وهم فرع من قبيلة جميلة. وفي اكدجان اندلعت الشرارة الأولى في المغرب أولا ثم في العالم الإسلامي بأسره. أنها معقل التمرد. واسم جميلة كاف لتوضيح الأمور لأنه مرتبط بآثار كوكلم. وينبغي أن تقع اكدجان في تلك المنطقة ولكن في أي مكان بالضبط؟ ونبحث في أطلس الآثار الذي وضعه غيزل. كما نسمع فيرو يؤكد انه تعرف على اكدجان.

ويرى ج.مارسيه أنها بجوار قرية شفرول. وفيها نقطة تدعى بالعربية ضربة الكلب وكلمة اكدجان تعني الكلاب. وليس في المنطقة خرائب ظاهرة غير أن السكان يذكرون اسم اكدجان. هذا كل ما بقي من أثار المنطقة التي انطلق منها الفتح الفاطمي !

ودور اكدجان الواقعة في المكان الذي ذكرناه يبدو واضحا. ففي العصور الحديثة لم يستطع الأتراك الولوج لمنطقة القبائل الصغرى إلا بعد أحداث خراب كبير. وهناك محاولة لعثمان في الوادي الكبير تسقط فيرو أخبارها. كما سمع هذه الطرفة عن جبلي القبائل: وهي أن احد الرجال تخاصم مع جاره على قضية فطلب من احد الأشخاص المقيمين مجددا في المنطقة أن يسرد له قائمة من الشهود تثبت حقه فرفض هذا الأخير. بعد ذلك بأيام عاد القبلي إليه مالئا كلتا يديه وقال له: انظر. في يدي هذه خمسة دراهم ادفعها ثمنا للورقة التي طلبتها وفي يدي الأخرى خمس رصاصات سأضعها في بندقيتي وبنادق أبنائي لنطلقها عليك إن لم تلب ما طلبناه". في صبيحة اليوم لتالي غادر الرجل الغريب المكان إلى منطقة اقل همجية.

ورجال القبائل هؤلاء يشابهون بوحشيتهم أولئك البدو الرحل. حتى أن السلاطين والوجهاء. لم يستطيعوا فرض سلطتهم عليهم.

يقول فيرو أن السلاح الوحيد الذي كان يستخدمه الأتراك ضدهم إلقاء القبض على رجال القبائل العاملين في قسنطينة والاحتفاظ بهم كرهائن ردا على الإساءات التي يقوم بها إخوانهم في الجبال وكثيرا ما كانوا يحكمون عليهم بالإعدام.

وكانت العلاقات بين السلاطين الأغالبة وبلاد كتامة على هذا النحو.

في الفترة من الفترات الحرجة قصد أبو عبد الله الشيعي إلى اكدجان ليحتمي فيها. وزحف القائد الأغلبي لإخضاعه. لكنه صادف صعوبات جمة كلما توغل في بلاد كتامة واضطر في النهاية للانسحاب.

وقد أدرك المؤرخون العرب أن هؤلاء القبائل بعيدو المنال. ويقول ابن خلدون: "ما من شيء تغير في مواقف كتامة منذ دخول الإسلام وحتى عهد الأغالبة. فلم تكن هذه القبيلة تشعر بالخوف نظرا لكثرة عددها". ويؤكد هذا الرأي ابن الرقيق في تاريخه.

وانه لأمر يثير العجب عجز الحكام العرب والأتراك عن إخضاع أبناء القبائل. على أن اكدجان لا تحتاج لبحث طويل. ففي قلب منطقة القبائل الصغرى كانت المعقل الذي لا يمكن اقتحامه.

سقوط الأغالبة

كان وصول أبي عبد الله كما أورد ابن خلدون في سنة 893. وفي سنة 902 تورط احد القادة الأغالبة بمهاجمة المناطق الجبلية بغية الوصول إلى اكدجان. ثم بدأ بنو كتامة الهجوم وقد وقع على عدة مراحل. ففي ابريل 909 استولى جيش كتامة على القيروان بدون قتال وفر منها آخر الأغالبة وسك فيها أبو عبد الله أول النقود الفاطمية. بعد ذلك بأشهر أي في ديسمبر وصل المهدي نفسه القيروان حيث جيء به من سجلماسة وأصبح أول سلطان فاطمي. وكان أول عمل أقدم عليه أبو عبيد الله المهدي قتل أبي عبد الله الذي مهد له طريق الحكم. وقد خاطبه قتلته قائلين: ها إن الذي دعوتنا بالخضوع له يأمرنا بقتلك.

لكن المهدي لم يستطع التملص من نفوذ كتامة التي جعلته سلطانا ولا يمكنه بدونها أن يفعل شيئا. وقد كافأ زعماء كتامة بتقديم خدمات كبيرة لهم كما وزع عليهم مبالغ من المال وعددا من الجواري الجميلات. وأوكل إليهم مراكز قيادية مهمة.

وهكذا وقعت افريقية التي عرفت نظام الدولة في عهد الأغالبة وقعت في يد الفاطميين مع المنطقتين الملحقتين بها وهما طرابلس وصقلية. "وانتظمت مكاتب الحكومة وأمر نظام الجباية بدقة وعين الحكام في جميع المدن يساعدهم الموظفون". وبين عشية وضحاه أصبح الفاطميون أسياد كل شيء وذلك بفضل كتامة التي لولاها لم يتحقق شيء.

المهدية

وكان من نتائج الانتصار بناء مدينة جديدة هي المهدية. لقد قصد المهدي بنفسه المنطقة الساحلية لاختيار عاصمته بعد أن زار تونس وقرطاجة. ووصل إلى شبه جزيرة لها شكل يد متصلة بقبضة فاختارها موقعا لمدينته الجديدة. وبدأ العمال البناء في

يونيه 916. واعدت في الهضبة ترسانة تتسع لمائة سفينة حربية كما حفرت المستودعات والمخازن. وارتفعت البيوت والقصور. وانتهى العمل بين 918 و919. وبعد أن أنهى المهدي مهمته هتف: الآن صرت مطمئنا على مصير الفاطميين.

هذا ما أورده المؤرخون العرب. ومن المألوف كما رأينا أن يعمد كل حاكم جديد لبناء عاصمة جديدة. لكن هناك أسباب تكمن وراء الاختيار.

فالقيروان كانت عاصمة الأغالبة، كما كانت عاصمة القواد العرب. وتقع وسط السهل في حين كان بالإمكان جعلها في المرتفعات على مسافة قريبة. غير أن البدو بطبيعتهم يفضلون السهول. فلم تكن المدينة إذن قلعة محصنة وإنما مخزنا ومسجدا. ثم إنه جرى الاستيلاء عليها مرات عديدة طيلة حياتها التي استمرت قرنين ونصف القرن. فمن الطبيعي أن لا يرغب القبائل الجبليون بالإقامة فيها.

وفي السنوات الأخيرة التي مرت على عهد الأغالبة أي نحو 890،وقعت حركة تمرد في تونس وضواحيها عند بدء حركة الفاطميين. وإثر حركة العصيان هذه أمر السلطان إبراهيم بن الأغلب -بعد أن قمعها بشدة- أن تبنى له في تونس قصور تصلح مكانا لإقامته. سرعان ما انتقل إليها بصحبة القواد والعلماء. وقد فكر آخر الأغالبة جديا ببناء عاصمة جديدة.

وقد رأينا كيف أن عبد الله المهدي قد زار تونس وقرطاجة خلال بحثه عن العاصمة الجديدة. ولا بد لاسم قرطاجة وتونس أن يتردد دائما في مجال بناء المدن الجديدة. لكن الفاطميين حين هجروا القيروان لم يتجهوا إلى تونس، إذ لا تستطيع أية سلطة تعتمد القبائل الجبليين إلا أن تتجنب هذه المدينة الحضرية والصناعية.

وهكذا فرضت فكرة بناء المهدية نفسها. وتم ذلك على الساحل التونسي في منطقة لا نظير لها في سائر المغرب. فخليج سرت فريد من نوعه، لان البحر هناك مليء بالجزر ومياهه غير عميقة وهي ذات طبيعة جغرافية مميزة. وهكذا أصبح المغربي ساكن البر دائما من سكان السواحل. وعاشت هناك فئة من الناس تصح تسميتها بالبرمائية تعيش على الزيتون وصيد السمك. أنها النقطة الوحيدة التي ظل فيها الشعب البوني عاشقا للبحر. وفي منطقة ليست بعيدة عن شاطئ المهدية جرى انتشال مركب روماني غرق منذ ألفي عام وكان محملا بأحلى التماثيل البرونزية الإغريقية التي تزن الآن متحف العلوي. ويدل العثور عليها أنها واقعة في مكان يؤمه الغطاسون وصيادون الإسفنج.

لقد أثبتت مدينة المهدية جدارتها حيث أشرفت على البحر دون أن تفقد البر. ولاسيما وان الأغالبة أسياد صقلية قد تركوا للفاطميين أسطولا بحريا. وهكذا كان اختيار موقع المدينة موفقا جدا.

وكان على المهدية على كل حال أن تخوض التجارب. ففي سنة 945 حاصرها أبو يزيد صاحب الحمار. كان ذلك في فترة عظيمة الحرج في تاريخ الفاطميين. حيث اضطر هؤلاء للانحسار وتجمعوا في المهدية نفسها.

ويروي المؤرخون عن عبيد الله المهدي انه ما أن ارتفعت أسوار المهدية حتى وقف لمهدي على احدها وأطلق سهما باتجاه الغرب وأشار إلى المكان الذي وقع فيه وقال: "هذا هو المكان الذي يستطيع صاحب الحمار بلوغه".

ويقول "البيان" إن صاحب الحمار قد تقدم كثيرا حتى بلغ أبواب المدينة. فشاهده احد جنود المشاة فأسرع راكضا إلى السلطان. فوجده يعبث بسمكة داخل إناء. فخاطبه قائلا: أراك تلعب وراكب الحمار طرق برمحه باب مدينتك؟ فأجاب السلطان: -هل أنت متأكد من ذلك؟ فقال: طبعا ! فقال الأمير: لن يرجع سالما لان ساعته قد أتت. هذا ما قرأناه في كتبنا. ثم أمر بمهاجمته على الفور.

ولما تحقق النصر النهائي على يد السلطان المنصور، انس هذا من نفسه القوة وقرر العودة إلى القيروان أو بالأحرى إلى أحد أحيائها وأطلق عليه اسم المنصورية وتضررت المهدية كثيرا من هذا التدبير لان معظم أحيائها أصبحت خاوية كما قال البيان لكنها حافظت على وجودها وأصبحت بمثابة مرفأ للقيروان وقد عززها موقعها الحصين والسمعة التي اكتسبتها بعد الحصار.

وفي العاشر من يونيه سنة 973 استولى الخليفة الفاطمي على مصر وقرر الاستقرار فيها بعد أن هجر المغرب نهائيا. وبين 918 و973 كانت المهدية والمنصورية من أهم العواصم التي عرفتها افريقية أو تونس الفاطمية. حيث أصبحتا مركزين للخلافة وليس للسلطنة فقط.

معنى انتصار الكتاميين

لأول مرة نرى قبيلة بربرية تأخذ الحكم من العرب، لا في المغرب وحسب بل في المشرق أيضا. أنها ثورة عارمة من صنع الكتاميين أولا. وذلك بإجماع المؤرخين.

فقد أشار ابن خلدون إلى الدور الكبير الذي لعبه الكتاميون وقال: "إن ثورتهم قد

قضت نهائيا على الدولة العربية في افريقية، وأوصلتهم إلى سدة الحكم. وقد حذا برابرة المغرب حذو جيرانهم، وبدأ نفوذ العرب يتقلص في افريقية والمغرب وانتقل الحكم إلى البربر".

والكتاميون هم الذين اقفلوا نهائيا حركة الفتح العربي وقبلوا التيار رأسا على عقب. وذلك هو مدلول انتصار الفاطميين.

والكتاميون هم الذين صنعوا الثورة التي قادها عبيد الله وخلفاؤه. وعلينا أن ندرك أن هؤلاء كانوا وراء تخلص المغرب من فاتحيه الأجانب. وذلك حدث فريد في تاريخ المغرب. فالأول مرة منذ ألفي عام استطاع أبناء البلاد طرد الدخلاء بأنفسهم.

على أن هؤلاء الكتاميين يحملون قناعا أجنبيا. فلو ولجنا إلى باطن الأمور لوجدنا أن الخضة التي عرفها المغرب بدأت في زاوية صغيرة ببلاد القبائل واقعة في رقعة مثلثة بين سطيف وجلجلة وقسنطينة. زاوية نسيها العالم على الأرجح لكن هذا المثلث الصغير ما زال يحمل أثارها. وبوسعنا لو زرنا المكان أن نحدد موقع لهزة تحديدا حقيقيا.

زوال القبيلة

يقول ابن خلدون في القرن الرابع عشر أن اسم كتامة زال من الوجود. وقد علل أسباب هذا الزوال:

"حين أنشأ بنو كتامة جولتهم في الغرب انتقلوا إلى الشرق حيث استولوا على الإسكندرية ومصر وسورية. وبعد أسسوا مدينة القاهرة قص

ها خليفتهم الرابع المعز وأقام فيها مع ذويه. وأصبحت دولة الكتاميين ذات بأس فغرق هؤلاء في حياة البذخ والترف وكان قسم منهم قد بقي في موطنهم الأصلي... ومن أهم القبائل الكتامية قبيلة سدويقش. ويقطن السهول الواقعة بين قسنطينة وباجه.. وهي تنكر أصلها الكتامي دفعا لعار الانتماء إلى المذهبية الشيعية في حين أنها تنتسب لكتامة فعلا: وهذا ما يؤكده مؤرخو قبيلة صنهاجة. كما أن الموقع الإفريقي الذي تسكنه قبيلة سدويقش يشهد بذلك".

ويؤكد فيرو نظرية ابن خلدون هذه. ويلاحظ أن اسم كتامة قد اختفى منذ وقت طويل لأنه أصبح مرادفا للشتيمة حيث يعني: "المتاجر بالأعراض والجاحد والذليل".

ومن الطبيعي أن ينكر جميع سكان البلاد انتسابهم لهذا القبيلة. على انه ليس من المستغرب احتفاء الكثير من القبائل. فهي قاعدة معروفة في تاريخ لمغرب. إذ اختفت

قبيلة بني كومية وهم مؤسسو دولة الموحدين. كما اختفت قبيلة صنهاجة الصحراوية مؤسسة أسرة المرابطين. ويعود إنشاء الدولة لقبيلة واحدة، لان القبيلة هي الخلية التي تكون جسم الجهاز السياسي وهي الجزء الحيوي الوحيد. وليس شرف إنشاء الدولة طويل الأمد لان القبيلة نستنزف نفسها في الحرب من جهة وفي ملذات السلطة من جهة أخرى. تلك هي قاعدة ما برحت تتردد منذ القدم في بلاد المغرب. واليك مثالا خاصا على ذلك في قبيلة كتامة.

إن ما اختفى منها هو اسمها وذكراها وتقاليدها وشخصيتها الجماعية لكن العنصر البشري لا يتبدد بسهولة. وبالإمكان العثور على بقايا القبيلة ضمن حدودها الجغرافية الأولى.

يقول فيرو: لا يعثر في بلاد القبائل الشرقية -كما في الغربية- "على تلك القرى الكبيرة المكتظة بالسكان. والبيوت المبنية بناء محكما بلونها الأبيض وسطوحها المسقوفة بالآجر والتي تشير إلى بحبوحة في العيش. ففي المنحنى الشرقي ابتداء من بابور وحتى ادوج بجوار بون (عنابه) لا نرى سوى أكواخ متواضعة يعيش فيها البشر والحيوان معا". ويقول دوتيه أن أبناء هذه المنطقة هم اشد الجزائريين بدائية. ومنطقة القبائل الصغرى شرقي بابور هي موطن قبيلة كتامة بالضبط.

ويشكل هذا الموقع تعاكسا اقتصاديا مع باقي بلاد القبائل، ولما هو عليه من تأخر.

يضاف إلى ذلك -كما يقول فيرو- انه ابتداء من بابور باتجاه الشرق "تتغير اللغة أيضا. فلغة القبائل لا يفهمها و لا يتكلمها احد. أما اللغة الشائعة فهي اللغة العربية التي تتخللها بعض التعابير الدخيلة التي تحتاج بعض الوقت لفهمها. وقد أجرى فيرو دراسة صغيرة عن هذه اللغة المحلية وأورد بعض النصوص كشواهد.

هذا وأجزاء المغرب التي تتحدث بالعربية، لم تتعرف على لغة الضاد في وقت واحد. ففي تونس وسهل عنابه كما أسلفنا تلاحم بين العربية والبونية. وعلى كل حال فان اللغة العربية قد دخلت إلى المدن الرومانية البونية في عهد الخلفاء. وليس من المعقول أن تكتفي المدينة بلهجة محلية إذ يلزمها لغة فعلية. وعلى المرتفعات الجزائرية العالية نلاحظ أن استعمال اللغة العربية جاء متأخرا. ويفيد ابن خلدون بأن ظهورها لا يتجاوز في قدمه القرن الرابع عشر أو الخامس عشر. أما في جبال بلاد القبائل الصغرى فيختلف الحال والتاريخ. فمن الواضح أن الكتاميين كانوا يتكلمون البربرية في الأصل. وقد سبق لنا القول أن معقل الداعي في منحدرات بابور الكلسية كان يحمل اسم اكدجان هذا

المكان. ثم إن وادي قسنطينة الذي نسميه الرمل واسمه الكامل وادي الرمل كان يدعى بالبربرية سوف جمار أي وادي الرمل أيضا. ومن الصعب أن نغفل الصلة بين الدور التاريخي الذي لعبه الكتاميون وبين حلول لعربية محل البربرية. وتختلف اللهجة العربية في بلاد القبائل الصغرى عن سائر اللهجات العربية الأخرى في بلاد المغرب لأنها جاءت بخلاف هذه الأخيرة في القرنين العاشر والحادي عشر.

وهكذا تبقى آثار الفاطميين في حدودها الجغرافية الدقيقة. فقد ظلت هذه الحدود بين بلدان القبائل الأخرى أكثرها تأخرا وأشدها استعرابا. وليست هذه النتائج متناقضة على كل حال، إذ لا يلزمنا خيال واسع لإدراك تفاصيل القضية.

لنفكر بالحظ العريض أي أصاب هذه القبيلة الضئيلة العدد. فأكثر أبنائها تواضعا استطاع أن ينال نصيبه بعد أن عمل في المجال العسكري أو الإداري في المدن الإفريقية الكبرى وحتى في مدن الشرق البعيدة. ولهذا رأوا لزاما عليهم أن يدرسوا اللغة العربية من اجل تحمل مسؤولياتهم الجديدة، وكانوا في نفس الوقت ناجحين في الحياة يخجلون من لغتهم فتخلوا عنها وكأنها عيب. وبعد أن عاد من عاد منهم إلى بلاد القبائل لم يستطيعوا التعرف على أنفسهم. لقد جلبوا إلى هذه البلاد تعفن المدن الكبيرة وتزعزع الروح التي هزها الانتقال المفاجئ. تلك هي أشياء بسيطة لا تتمشى مع التقاليد القديمة والاعتقادات الراسخة، والرضوخ العفوي للأمر الواقع، وكلها ظروف مؤاتية لازدهار المناطق الريفية البسيطة.

6- مملكة قبائل صنهاجة

قبيلة صنهاجة

من الواضح أن عبيد الله المهدي "الإمام الغائب الرابع" كان شرقيا كداعية أبي عبيد الله "الشيعي". والشرقيون هم روح هذه الحركة المغامرة التي عرفها المغرب وليس بنو كتامة سوى أدوات لها. وكان اهتمام عبيد الله منصبا على سورية وبلاد ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب ومصر ولم يفكر في أي شيء آخر. وفي هذه البلدان ظل قلب دعاته أيضا.

يقول ابن خلدون أن البيعة تمت في مكة بين لداعي أبي عبد الله وبين أشخاص من بني كتامة.

فقد دخل المهدي القيروان بعد مغادرته السجن سنة 909. وفي عام 911 قضى على داعيته أبي عبد الله. وفي عام 913 أرسل حملته الأولى إلى مصر برا وبحرا. واحتل أسطول مؤلف من مئتي سفينة مدينة الإسكندرية، وبلغ الجيش البري بقيادة أبي القاسم ابن المهدي، الفيوم. ولم يفكر المهدي ببناء المهدية قبل سنة 916، وكان أسفا على عدم تمكنه من قطع صلاته بالمغرب نهائيا. ثم إن اختيار عاصمة ساحلية من شأنه أن يعزز مشاريع الفتوحات الشرقية.

على أن الأسرة الفاطمية كانت -كاسرة حاكمة- مصرية. ولم يكن باستطاعة قبيلة صغيرة من المغرب تجهل العربية تقريبا أن تقدم أكثر من السيوف. على أن عظمة بني كتامة هؤلاء كانت كالشباب، لمعت ثم انطفأت بسرعة.

ولم يتحقق حلم المهدي بفتح مصر قبل يوليو 969 في اليوم الذي دخلت فيه القوات الفاطمية (أي الكتامية) مدينة القاهرة القديمة. وسقطت دمشق عام 970. بعدها مباشرة قصد المعز حفيد عبيد الله إلى مصر مع أقاربه وأعوانه بعد أن قرر مغادرة القيروان. وتم الاستيلاء النهائي على القاهرة الجديدة في 10 يونيه 973.

وأصبح المغرب بالنسبة للفاطميين مرة أخرى بلاد بعيدة بربرية. إذ كانت هذه البلاد منطلقا ليس إلا، وهكذا لم تدم سلطة الكتاميين أكثر من خمسين سنة.

لكن العمل الذي دشنوه استمر من بعدهم. فقد وضعوا راية المغرب أن صح القول، أو حظ المغرب في السيطرة على زمام أمره وتوجيه مصيره، وضعوها في يد القبائل الجزائرية، وقد حافظ هؤلاء طويلا على هذا المصير.

وخلفت كتامة على الفور قبيلة أخرى مجاورة وقريبة هي قبيلة صنهاجة. ولم ينته احد إلى أن الصنهاجيين من القبائل، لان أحدا كذلك لم يشر لأصل الكتاميين القبلي، على أن القضية معقدة جدا بالنسبة لصنهاجة.

فصنهاجة أو الزناغة (فالتسمية هي نفسها) قبيلة كبيرة مشهورة جدا وأبناؤها موزعين في مختلف أنحاء المغرب فقبائل البربرية المراكشية تنتمي إلى زناغة كما يقول ابن خلدون. لكن زناغة الصحراء هي قبيلة المهمة فقد ورد ذكرها في كتاب بطليموس وهي التي أعطت اسمها لبلاد السنغال. فالصنهاجة الملثمون هم الذين كانوا وراء المرابطين في بناء مراكش وغزو اسبانيا وإقامة الإمبراطورية. ويبدو أن صنهاجيي بلاد القبائل يعون الصلة التي توحد بينهم حق الوعي. وقد أورد ابن خلدون أن أميرة من المرابطين قد رجت احد صنهاجيي القبائل طالبة إليه المساعدة باسم القرابة بين موطني صنهاجة.

وقد لقي رجاؤها استجابة في نفس المنتصر. على أن كل ذلك وقائع تزيد في تشوش الصورة لأول وهلة.

لكن من السذاجة تجزئة القبائل البربرية في المغرب. فبنوا أوربة الأورابيون الذين ساروا وراء كسيلة هم أنفسهم الذين التفوا حول إدريس في فلبيلس.

وفي بلاد القبائل نفسها هناك قبيلة تدعى غشتولة، يعتبرها بعضهم نفس "الجتولا" الذين يعتبرون من الصحراويين. إن هذه التجزئة بين القبائل دون ذكر موطنها الجغرافي هي التي تجعل تاريخ المغرب صعبا علينا نحن الغربيين.

ومن واجبنا إن شئنا تفهم الأمور أن ننظر للحدود الجغرافية مغفلين تشابك الأنساب التي أوردها المؤرخون العرب، هذا رغم تخوفنا من الوقوع في الخطأ.

لم يذكر المؤرخون العرب الكتاميين مرة إلا وذكروا الصنهاجيين إلى جانبهم، معتبرين أنهم يرجعون لأصل واحد فهم جميعا من الحمريين. ولو صح شيء من هذه الأسطورة، لكان من الواجب ربطه بذكرى الاحتكاك الطويل مع افريقية البونية، وافريقية الرومانية الملحقة بالعناصر البونية.

ويطلق ابن خلدون على صنهاجة بلاد القبائل، لقب صنهاجة العرق الأول، أي اعرق الصنهاجيين. لكنه يحدد المكان الذي عاشوا فيه بين مسيلة والجزائر مرورا بتتري وميديا. وهي المنطقة التي كان يسلك فيها الناس طريقهم بين موريتانيا سطيف وموريتانيا القيصرية، طريق تقوم على جانبيها الجاليات كما أن خاضعة لتأثير الحضارات القديمة. وهناك تقع اوزيا (أومال) ورابيدي ولمبديا (ميديا) الخ...وتكثر فيها الآثار الرومانية النادرة عادة في منطقة القبائل.

في تلك الحدود اندثر اسم صنهاجة، كما اندثرت اللغة البربرية ولم يبق سوى فئة بربرية قليلة تقيم بين بليدا وميديا. وهذا شيء طبيعي بالنسبة للبربر الذين لا يحافظون طويلا على شرف تأسيسهم الممالك. على أن ابن خلدون يعدد القبائل الصنهاجية الفرعية ومنها ما هو مرتبط ببقعة من الأرض. فهناك بنو اونغة مثلا، ينطبق عليهم اسم المنخفض الواقع شمالي جبل شقشط والمنصورة ويدعى منخفض اونغة وتشرف عليه "الجرجرة" وهرم للا خديجة المثير. وهناك أيضا بنو مزرانه، ونحن نعلم بأن الجزائر كانت تدعى في السابق جزاير بني مزرانة، حتى أن قبائل جرجرة يدعونها مزرانه حتى اليوم بلغتهم المحلية. واسم "الدية" أعمق دلالة وهي قبيلة صنهاجية، اسمها مرادف لميديا. وهذا تفصيل بسيط يوضح العلاقة بين صنهاجة وعصر ما قبل الإسلام.

ويورد ابن خلدون في موضع آخر: إن ارض الزواوة تفصل بين موطن كتامة وموطن صنهاجة. ونحن نعلم بأن قبائل جرجرة تسمي نفسها بالزواوة. ويعتبر ابن خلدون أن لزواوة فرع بني كتامة ويسخر من النسابين الذين لا يفرقون بينهم وبين زواغة القبيلة الصحراوية. ويستند ابن خلدون على القرب الجغرافي بين زواوة وكتامة، وإجماعهما على تأييد عبيد الله.

كما يشدد على صلة الموالاة التي تجمع بين زواوة وصنهاجة وكتامة أيضا: "احتل هذا الشعب -تحت حكم الصنهاجيين- مرتبة مميزة سواء في زمن الحرب أو في فترات السلم. ذلك انه ظل مواليا لقبيلة كتامة منذ بداية عهد الدولة الفاطمية. حين أقام الصنهاجيون في باجة على ارض زواوة استطاعوا إخضاع هذه القبيلة، وظلت القبيلة على ولائها لهم إلا في مجال جباية الضرائب. فقد كانوا يتمردون عليها لأنهم مطمئنون لقدرتهم على الفرار إلى جبالهم الآمنة." ودفع الضرائب كما لاحظه ابن خلدون دليل الخضوع.

ويقول المؤرخ العربي إن هؤلاء الصنهاجة من الخضر المستقرين على العكس من أبناء

عمهم المرابطين وهم من البدو. "وكانوا مقيمين في البقعة الفاصلة بين أواسط المغرب وافريقية". في حين أن بني مسوفه ولمتونة "كانوا مقيمين في لخيام وسط الصحراء". ولنلاحظ هذا التعبير: "بين أواسط المغرب افريقية" فأواسط المغرب تعني موريتانيا القيصرية. وافريقية تعني مقاطعة افريقية.

وهكذا نلاحظ أن بلاد صنهاجة تقع على طريق تقطع بلاد الحضر.

ويعطي ابن خلدون عن بني لمتونة المرابطين الحكم لتالي " إن الشعب الذي أسس دولة في كل من اسبانية وافريقية... قد زال من الوجود. فقد استنفد حب السيطرة قواه وانصراف إلى الملذات والغزوات البعيدة حتى أبيد في نهاية. أما أولئك الذين ظلوا في الصحراء، فما من شيء غير في نظام حياتهم، وقد حافظوا على وجودهم حتى اليوم".

وهذا حكم نستطيع إطلاقه على جميع كتلة بلاد القبائل مع تغيير الأسماء. قد اختفت القبائل التي أسست دولة كتامة وصنهاجة من الوجود. لكن الذين يغادرون جبالهم حافظوا على بقائهم فيها ولا يزالون محافظين على أسمائهم القديمة. قد ذكر ابن خلدون بني يني وبني غشتولة وبني فراوسن وبني اراطن من سكان بلاد القبائل. ويذكر المؤرخ العربي أن جبال بني اراطن "موقع يسهل الفرار فيها والذود عنها. وهذا ما أجرى عليه المارشال راندون اختبارا.

جميع هؤلاء اعترفوا بسلطة السلطان الصنهاجي، بمن فيهم بنو اراطن. وقد رد اسمهم مع "القبائل الخاضعة" كما ذكر ابن خلدون الذي عايش القضية حيث كان وزيرا في باجه. في ذلك الوقت كان أسلاف القبائل الحاليين من الحلفاء المخلصين من البداية حتى لنهاية". لقد كانت هناك كتلة من القبائل أصبحت كتامة وصنهاجة لبعدها رائدة لها. هذه حقيقة لا تقبل الشك، كما يسهل لمينافور التسليم بها أن نعرف تاريخ صنهاجة.

لم يسهب المؤرخون العرب بمن فيهم ابن خلدون في ذكر تاريخ هذه القبيلة. سيما وان ابن خلدون عاش بعد نشأة الدولة الفاطمية بأربعة قرون، ولم يعد لمغرب القرن الرابع عشر وحتى لمغرب الثالث عشر صلة بالقرن العاشر والحادي عشر.

وتركز اهتمام المؤرخين حول قضايا عصرهم. على انه كان لصنهاجة مؤرخوهم المعاصرون لهم. ومنهم ابن شداد الذي كان واسع الاطلاع لأنه -كما قيل- ينتمي للعائلة المالكة.

وقد فقدت مؤلفاته كما فقدت مؤلفات غيره ممن عملوا بوحي الأسرة الصنهاجية. لكنها وصلت إلى أيدي المؤرخين الذين جاؤوا بعدهم أمثال ابن خلدون والبيان وابن الأثير والنويري. وقد استقوا منها المعلومات، ولا شك أن ما أتوا به نقلا عنها يعتمد شواهد عاصرت الأحداث.

اسم مؤسس الأسرة زيري بن مناد. وهو اسم عظيم جدا بل لعله أعظم الأسماء في تاريخ البربر في العصر الوسيط.

وطبيعي أننا لن نستطيع العودة إلى أصله، لكننا نعتمد نتيجة أعماله فهو أول بربري أصيل استطاع أن يؤسس مملكة.

ولا شك انه صادف مصاعب عديدة نظرا لانتمائه لأصل متواضع وقد دعاه ابن الأثير بزيري الحميري، وكان بالفعل يحمل هذا الاسم، لكن اسما كهذا يدل على صعوبة نسبته لأصل عربي. قبله كان كسيلة والكاهنة، لكنهما لم يتركا سوى ذكرى المقاومة التي لم تجد نفعا. أما زيري فقد أسس مملكة قوية قامت بأعمال عظيمة، وهي في رأيي أهم الممالك البربرية.

وقد شعر المحدثون بأهميته أو أنهم تأثروا بشخصيته. وترى عنه أسطورة نقلها ابن خلدون باقتضاب. وتروي حول ولادته نبوءات وعجائب كثيرة، وطفولته شبيهة بطفولة هرقل. لكن الأجيال اللاحقة لم تلهج باسمه، فهو اقل شهرة من كسيلة والكاهنة، إذا تغاضينا عن ذكر مسيناسا وجوغرتا. ذاك أن اسمه غاب في خضم تاريخ المغرب المبهم. والمجد له ظروفه الخاصة.

يبدو زيري وكأنه يد الفاطميين اليمنى أي مساعد الكتاميين الأول. ويقول النويري نقلا عن ابن شداد أن علاقة وطيدة كانت تربط زيري بالخليفة الفاطمي.

وقد لعب دورا مهما في جميع مراحل الفتح الفاطمي في المغرب. ففي حصار المهدية هب زيري لمساعدة المدينة المحاصرة، حيث أمدها بالمؤن وساعد على فك اخطر حصار ضرب حولها. وقد ظهر زيري حين حوصر أبو يزيد صاحب الحمار في قلعة كيانه وجرح أبا يزيد وجرح وحين فكر الحاكم الفاطمي بإرسال جيش إلى فاس كان زيري على رأس الحملة وقدم خدمات جلى. وظل حتى وفاته مخلصا لمن هو مولاهم.

كما حصل أن الحاكم الفاطمي اختار حين فكر بغزو مصر بلكين ابن زيري ليكون نائبا له. "بحث الخليفة بين كبار ضباط الدولة عن رجل مخلص جديد بان يوكل إليه حكم

المغرب. فوقع اختياره على بلكين ابن زيري. لقد دافع هذا القائد -الذي عملت عائلته في خدمة الفاطميين- عن قضية الشيعة وذاد عن دولتهم". وهكذا تمكن بنو زيري من تولي الحكم في المغرب تحت راية الفاطميين. لكن النزاع نشب بينهما فيما بعد. واشتد بازدياد هؤلاء اندماجا بمصر ازدياد أولئك اندماجا بالمغرب. أما في البداية فقد انتقل الحكم بصورة طبيعية من الكتاميين إلى الصنهاجيين. لأنهم جميعا دافعوا عن قضية واحدة، قضية القبائل.

العواصم –آشير

هناك شك يخيم على موقع اكدجان معقل كتامة الأول. لكن عواصم الصنهاجيين معروفة وهي ثلاثة: آشير وبجايه. واليك معلومات عن كل منها:

أقدم هذه المدن آشير. وكانت تقع شرقي بوغاري. وبالإمكان تحديدها بالضبط على أطلس غيزل الأثري. كما تنبغي الاستعانة بعمل الكابتن "روديه" وبمقال جورج مارسيه. والنتائج التي يخلصون إليها واضحة. فبقايا آشير موجودة في الجبل الأخضر. وكان يدعى تتري في عهد ابن خلدون.

لكن هذا الاسم لم يعد يدل على نقطة بالذات وإنما يشتمل على ولاية تتري في عهد الأتراك وعاصمتها ميديا. والأخضر أعلى نقطة في سلسلة الجبال تلك. إذ يزيد ارتفاعها على 1400 متر وتتخللها المنحدرات الصخرية والسفوح الحادة. وتعتبر موقعا جغرافيا ممتازا على حد قول الكابتن روديه. وهناك ثلاث مناطق أثرية بين بانيه وعين بوسيف على خريطة قياسها 200,000/1. وابعد هذه المناطق إلى الغرب منزه بنت السلطان وتقع بجوار عين بوسيف ولم تكن سوى قلعة قريبة منها. أما الموقعان الأثريان الآخران اشير وبانيه فيبدو أن كمدينتين منفصلتين لكن إحياءهما متصلة بعضها ببعض. ولعل بانيه أهم هذه التجمعات البشرية وأحدثها. إذ يسهل التعرف على آثار المسجد فيها.

وإذا كنا لا نعرف المزيد عنها فمرد ذلك للإهمال. ومن غرائب المفارقات أن تذهب عاصمة بني زيري ضحية النسيان كما جرى لهم أنفسهم.

فزيري هو الذي بنى آشير. وإليك ما أورده في ذلك النويري عن شداد :"بعد أن اختبر زيري المكان قال لأصحابه. هذا الموقع هو المناسب للإقامة. وقرر أن يبني فيه مدينة آشير". (كان ذلك سنة 324 للهجرة الموافق لسنة 935 من التاريخ المسيحي). ويذكر ابن شداد: "أن المكان لم بكن مأهولا في ذلك الوقت. واستقدم زيري من المسيلة وحمزة وهدنة عددا

كبيرا من النجارين والبنائين وطلب إلى الخليفة أن يرسل إليها مهندسا لا نظير له في افريقية. وبدأ المهندس العمل وفرغ من بناء المدينة". لم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يجد لها سكانا. "وقصد زيري إلى تبنة والمسيلة وحمزة لينقل منها أهم مواطنيها إلى اشير. وهكذا تمكن من توطين الناس في عاصمته الجديدة بعد أن جعل منها قلعة حصينة... وسرعان ما اكتسبت أهمية كبرى حين أصبحت مركزا لتجمع الفقهاء ولعلماء والتجار".

ليست هذه الصورة الساذجة بعيدة عن الحقيقة فكثيرا ما كان الأمير ينشئ مدينته من العدم حيث يأمر ببناء بيوتها ثم يملأها بالسكان. ويحرص على استقدام الحضريين إليها من المدن الأخرى. ويعرف ابن خلدون أن بناء المدن إنما هو نتيجة لقيام الأسرة بحيث أن الأولى تزول بزوال الثانية.

ولكن لا يذهبن بنا الظن إلى أن آشير لم تراع فيها أي من المقتضيات الجغرافية. إذ كانت تقع في آخر نقطة جنوبية غربية من كتلة القبائل. فهي نهاية الطريق التي تبدأ من الساحل وهذا من أهم المميزات الجغرافية. ويوجد اليوم خط حديدي يصل الجزائر بميديا وبوغاري في نفس المنطقة. ويشير المؤرخون بإيجاز إلى أن زيري قد سار لوضع يده "على تلك الطريق المهمة". ويضيف ابن خلدون :"بعد ذلك بوقت قصير سمح زيري لابنه بلكين ببناء ثلاث مدن. إحداها على شاطئ البحر وتدعى جزاير بني مزرانة (الجزائر) والثانية على الضفة الشرقية لنهر شلف وتدعى مليانة. والثالثة تدعى لمديا باسم القبيلة الصنهاجية (وهي ميديا). وقد نال بلكين من أبيه حق إدارة هذه المدن الثلاث التي تعد اكبر مدن وسط المغرب". ولا شك أنها ملحقات لمدينة آشير. على العكس مما حدث بعد ذلك في عهد الأتراك حين أصبحت ولاية تتري ملحقة بولاية الجزائر. على أن هذا الخط لم يعرف مدينتين اثنتين اشير والجزائر فقط وإنما ثلاث مدن. والثالثة أقدمها وكانت تدعى "القيصرية" وفيها من ناحية الجزائر قبر ملكي عظيم هو "قبر المسيحية". وليس من قبيل الصدف أن تتوالى المدن على هذا النحو في منطقة واحدة.

ذلك أنها تقوم على خط مهم يقطع التل إلى قسمين متنوعين بكل معنى الكلمة. فمن الغرب تل السهول شبه الساحلية التي تتوالى حتى وهران. ثم السهول الوعرة. ومن الشرق سلسلة الجبال المتراصة الغنية في الاحراج ببلاد القبائل. ولا يسعني إلا أن اذكر بما قلته سابقا. فالمكان مناسب جدا ليكون موقعا لعاصمة الجزائر.

وليس بناء كآشير من الأمور الاعتباطية المصطنعة. لان الأمير الذي بناها كان يعرف ما يريد وقد اختار المكان المناسب. ولو أن التاريخ اتجه في مسار آخر لكانت آشير اليوم عاصمة المغرب. ولأخذت مكان الجزائر.

قلعة بني حماد

تعتبر قلعة بني حماد عاصمة ثانية ابني زيري. فحماد هو ابن بلكين وحفيد زيري، لكنه كان الولد الثاني وليس البكر. ومنه تفرعت أهم بطون بني حماد. قال ابن خلدون:

"سنة 398 للهجرة (1007 مسيحية) بنى بني حماد مدينة القلعة" ويروي لنا طريقة بنائها على نفس الصورة الآنفة الذكر. "نقل إلى القلعة سكان مسيلة وحمزة بعد أن دمر المدينتين. وفي حوالي نهاية القرن الرابع للهجرة (أي بعد سنتين أو ثلاث سنوات) فرغ من بناء المدينة وجلب السكان إليها كما أحاطها بالأسوار بعد أن بنى فيها عدة مساجد ومحطات للقوافل فضلا عن مباني عامة أخرى".

المشهد يتكرر دائما. الأمير يبني مدينته كما يبني الغني داره.

وقد رافقت القلعة مصير بني حماد من أوله لآخره. واحتلت مكانة مرموقة لم تكن آشير نفسها لتحتلها. وقد لفتت آثارها انتباه المؤرخين ووضع الجنرال بيلييه عنها صورة بيانية.

ولم تكن ثمة صعوبة في تحديد مكانها الذي تشير مئذنة المسجد ومنار القصر. كما عثر بيلييه على ذكريات المدينة عند سكان الأصليين.

قامت مدينة القلعة على أنقاض قلعة قديمة بنيت فوق لصخور ولها تاريخ حافل مذ هاجمها أبو يزيد صاحب الحمار وردته بعد حصار مرير. انه موقع حصين كان يدعى منحدر كيانا في ذلك الوقت ويسمى اليوم جبل مديد. ويمكن العثور على المكان الضبط في خريطة غيزل. والمديد امتداد للأخضر الذي بنيت عليه آشير. وكلاهما يشكلان آخر المنحدرات الصخرية لمنطقة التل بمحاذاة الهضاب العليا أو "شرفات الجنوب" كما كان فرومنتان يسمى بوغاري.

والقلعة على غرار آشير تقع عند الطرف الجنوبي لطريق طبيعية تقطع التل من البحر حتى المرتفعات. وعلى هذه الطريق وبمحاذاتها يقع وادي قصب وسهل مجنة وبمر بيبان ووادي الصمام. وتقع بجاية عند طرفها الآخر. وهنا اكتفى بذكر ما تكلمت عنه بإسهاب في ما سبق.

وقد عثر بيلييه من السكان الأصليين على بعض المعلومات التي تفيد عن صلة القلعة في أواخر أيامها ببني مقرانة وكانوا أصحاب مجنة يحمون بمر بيبان من قلعة بني عباس. وهؤلاء سلاطين صغار من القبائل يذكرها مؤرخو القرون الوسطى باسم

سلاطين العباس. وقد ظلوا حتى ثورة 1871 بمثابة آخر بقايا الأسرة الارستقراطية وسط بلاد القبائل الديمقراطية. وهم على صلة بطريق القلعة-بجاية.

وأهمية هذه الطريق مذكورة في تاريخ أسرة بني حماد. ففي سنة 1067 أي بعد ثلاثة أرباع القرن على قيام القلعة. نقل السلطان الحمادي الحاكم (الناصر) عاصمته من القلعة إلى بجاية. إذ أصبح موقع القلعة متقدما جدا. فانكفأ الحماديون باتجاه معقلهم ببلاد القبائل. وهكذا ظهرت بعد آشير والقلعة آخر عاصمة لدولة الصنهاجيين. ألا وهي بجاية.

بجاية

إنها مدينة عريقة في قدمها ولعلها تعود لعصر البونيين. وكانت مستعمرة رومانية باسم سلدا. ولم تزل هذه المدينة من الوجود أبدا. لكن عظمتها كانت في فور وغور. وقد تحولت عدة مرات لقرية صغيرة لا حول لها ولا طول. وكانت على هذه الحال حين وقع اختيار الناصر. وسلطان بني حماد. عليها.

ويتحدث ابن خلدون عن تأسيس بجاية كما لو أن ليس لها أي تاريخ فيقول: "سنة 460 (167 ميلادية) استولى الناصر على جبل بجاية وهو موقع تسكنه قبيلة بربرية بنفس الاسم.. وكانت من الصنهاجيين. وحين اخذ الناصر المكان أقام فيه مدينة تدعى الناصرية. لكن الجميع يطلقون عليها اسم بجاية على اسم القبيلة." مرة أخرى تتكرر عملية بناء المدن. فلم يأت ابن خلدون على ذكر سلدا لان مدينة الحماديين قد اكتسبت مجدا عظيما من شأنه أن يمحو تواضع القديم.

ولا يفيدنا الأثريون عنها الكثير ويخصص لها بيليه بعض الصفحات في نهاية كتابه عن القلعة. ويفهم منها أن بجاية على عكس القلعة قد حافظت على وجودها. فالحياة هي التي تسبب الهدم. فهذا القصر الحمادي أو ذاك إذا بقي منه شيء فلا بد وان يكون مطمورا. لكن بيليه استطاع أن يعيد أسوار مدينة الحماديين إلى الأذهان. والمدينة التي تقع داخلها يزيد حجمها على ثلاثة أضعاف بجاية الجديدة أو سلدا الرومانية. ويقول ليون الإفريقي الذي عرف بجاية زمن تقهقرها أنها كانت تحتوي على 24 ألف موقد أي 100 ألف نسمة.

وصحيح أن بيليه يرى في هذا الرقم مبالغة. لكن أقوال المؤرخين لا تنضب عن عظمة القصور الحمادية في بجاية وعن "قصر الجوهر" بنوع خاص. ولدينا وصف مسهب لهذا

القصر وكذلك رسم ملون له. ومن المرجح أن هاتين الوثيقتين محرفتان. وفي عهد الإدريسي العالم الجغرافي كانت بجاية مركزا صناعيا وتجاريا وثقافيا هاما. وكانت أعظم مدينة في البلاد التي نسميها اليوم الجزائر. ولا شك أن بجاية كانت في أوج عظمتها في عهد الحماديين. وجدير بالذكر هنا أن بجاية الاسبانية قد حاصرتها القبائل طيلة 36 سنة. ولم يكن حظ بجاية التركية أفضل. ويروي بيليه "أن فارس ارفيو الذي زار بجاية سنة 1674 يقول إن المدينة لم تعد في ذلك الوقت سوى قرية بائسة يقطنها نحو 500 أو 600 شخص بالإضافة إلى 150 جنديا أرسلتهم الجزائر. ولم يكن هؤلاء الجنود ليتجرأوا على مغادرة المدينة مخافة أن يقضي عليهم البربر".

وفي سنة 1830 كان فيها 2000 نسمة و60 جنديا تركيا "وكان السكان يتعرضون للسلب والنهب بشكل مريع على يد لقبائل." فالأمر مختلف جدا عن بجاية الحماديين التي لم تتعرض لأية متاعب من جانب القبائل المحيطة بها. فما كانت هذه لتعتبرها مدينة أجنبية وإنما عاصمة لها.

وعن القلعة وبجاية بعض المعلومات البسيطة التي تمت بصلة للقبائل. يقول ماس لا ترى :"حتى سنة 1114 كان للمسيحيين الأفارقة والبربر كنيسة في القلعة هي كنيسة السيدة العذراء. وكان كاهنهم يعيش في بيت مجاور للكنيسة. وهو آخر كاهن من أهل البلاد وصل إلينا ذكره".

وفي موضع آخر يعطي ماس لاتري بعض التفصيلات الأخرى فيقول: "استقبل الأمراء الحماديون في فترة مقاربة للفترة التي بنيت فيها القلعة استقبلوا جالية كبيرة من المسيحيين البربر من بين القبائل التي أمت عاصمتهم. وظل هؤلاء المسيحيون مقيمين فيها لوقت طويل. إذ أن جو التفاهم الذي ساد العلاقات بين كرسي البابوية والأمراء الحماديين قد ضمن سلامة هؤلاء الرعايا".

وكان لهذا الصلات الطيبة مع الغرب أثرها على الصعيد لتجاري. وقد أصبح لبجاية مكان خاص في قاموس براشيه الفرنسي. يقول القاموس:

"Bougie كلمة ذات أصل تاريخي. يشير إلى مدينة بجاية حيث كانت تصنع هذه السلعة." وكان أجدادنا يستهلكون ما يسمى بزيت الكوك المستورد من بجاية. انه زيت الزيتون المصنوع ببلاد القبائل التي ظلت كوكجو عاصمة لها لوقت طويل. وقد سبق لنا القول إن المغرب في العهد الروماني كان يصدر زيت الزيتون إلى العالم اللاتيني. وظل اثر هذا العرف التجاري ماثلا لدى قبائل بجاية حتى وقت قريب. فلم تكن صلات

المودة والتجارة مستغربة بين جبال القبائل وملوكها من جهة وبين العالم اللاتيني من جهة أخرى. وليس مستغربا أيضا استمرار المسيحية فيها وبقاء العادات التي عرفت في العصور القديمة.

التأثيرات الشرقية

لابد لنا -رغم الطابع القبلي الذي يميز الصنهاجيين- أن نتنبه للتأثيرات الشرقية العميقة في نفوسهم.

فقد دلت عمليات التنقيب التي أجراها بيليه على أن هندسة البناء كانت شرقية. "فواجهة المنار ودار البحر وهما من قصور مدينة القلعة ذات طابع مميز في بلاد ما بين النهرين. ومن الواضح أيضا اثر الزخرفة الأسيوية والفارسية في الأواني التي استعملوها".

وواضح كذلك أن كلا من آشير والقلعة وبجاية كانت تتكلم العربية كما كانت متأثرة بالحضارة الإسلامية. ويتحدث بيليه عن مجمع أدباء بجاية القادمين من الشرق واسبانية وكانت لهم مدرسة في عاصمة بني حماد. "وفي بجاية أيضا عدد لا يستهاد به من الأولياء. ولهذا سميت في السابق بمكة الصغيرة".

وكل ذلك من الأمور الطبيعية. إذ كيف لا تتأثر مدينة تقع في الشمال الإفريقي بالحضارة العربية واللغة العربية في القرن الحادي عشر؟

ولنوضح كذلك أمرا آخر. فقد اشرنا إلى أن آشير والقلعة وبجاية كانت عواصم الصنهاجيين. والواقع أن عاصمتهم الرسمية هي القيروان.

فالقيروان كانت عاصمة بني كتامة الفاطميين حتى الوقت الذي انتقل فيه هؤلاء إلى القاهرة. وتربع أمراء الصنهاجة بعدهم على عرش القيروان. ولم يقم بنو زيري في أي مكان آخر. وقد أمضى بلكين وخلفاؤه فترات حكمهم في القيروان. وإليك ما أورده ابن خلدون حول تنصيب بلكين: "في تلك المناسبة غير الخليفة اسم بلكين وجعله يوسف وأعطاه لقب أبي الفتوح وسيف الدولة وقدم له ثوب الولاة". كانت النية واضحة في محو أصله القبلي. لكن ذلك لم يتحقق لان لمنصور ابن بلكين ظل في آشير حتى يوم وفاة أبيه.

وتوالي على حكم القيروان كل من المنصور (984-995) وابنه باديس (995-1016) وكذلك المعز ابن باديس وخليفته (1016-1062). وفي أيام حكم هذا الأخير أي سنة 1058

هاجم العرب المدينة ودمروها. وارتكب المنصور وقتئذ غلطة فادحة حين ولى عمه حماد على آشير ورأينا ما حل بها بعد ذلك.

والواقع أن مملكة الصنهاجيين كانت وجهين. فقد كانت هناك دولتان ألقى السلطان بينهما بثقله الشخصي. وافريقية إحدى هاتين المملكتين وقد انتقلت عاصمتها من قرطاجة إلى القيروان قبل تونس. وهي نموذج للمدينة الحضرية التي يحتقرها ابن خلدون لأنها، شأن بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر، مطبوعة على الطاعة وحب الاستقرار والترف بحيث يسهل الاستيلاء عليها. وهكذا أقام بنو زيري في القيروان.

ولهذا السبب انتصر الحماديون سكان بلاد القبائل عليها، وانتهى أمرها نهائيا سنة 1057 وقامت مكانها آشير والقلعة وبجاية.

على أن سلاطين القيروان من بني صنهاجة لهم مطامع في جميع أقطار المغرب. فقد شاؤوا الاستيلاء عليها برمتها وقد بلغت جيوشهم مراكش. لكن وسائل النصر لم تكن بحوزتهم إذ كان يلزمهم أكثر من الجندي القبلي. وقد رأينا أن المنصور الزيري لجأ لجنود من الزنج. وبعد أن قمع ثورة أبي الفهم، أمر المنصور بقتل زعيم الثورة "وشقت بطنه واستخرج منها كبده وافترس الجنود السود جثته حتى العظم". وقد استعان العديد من السلاطين بهؤلاء السود أكلة اللحوم البشرية.

وليس من الصعب العثور على مواضع الشبه بين صنهاجة وسائر ملوك المغرب، لهذا لم يعن المؤرخون العرب كبير عناء بأصلهم القبلي. يضاف إلى ذلك أن وضاعة أصل القبائل حولت الانتباه عن وجود أمراء لديهم. والواقع انه لو أعلمنا الذاكرة لوجدنا لهم أمراء. ويروي مرسييه عن بداية فتح الأتراك للجزائر زمن بربروسه، وعن الصراع الذي وقع آنئذ ضد الأميرين القبليين، ملك الكوكو (بلاد الزيت) وملك بني عباس.

كما يميل جمهور القبائل للانضواء تحت إمرة قائد واحد وذلك لضرورات الأمن. ولعل هذا ما بقي من عهد صنهاجة. وأخيرا لنلق نظرة على الخريطة ولنحدد موقع اكدجان والقلعة وآشير وبجاية عليها. لنرى أن هذه الأسماء تحدد تاريخ الكتاميين والصنهاجيين. فالمدن الثلاث الأولى تعتبر بمثابة حدود لها أما الأخيرة فهي منها في مكان القلب. ولو أخذنا الخريطة بعين الاعتبار - وهذا ما لم يلتفت إليه المؤرخون العرب قط -لصعب علينا الظن بان الكتاميين والصنهاجيين ليسوا من القبائل.

وإذا سلمنا بما شاهدناه على الخريطة هان الأمر واتضح وأصبح بمقدورنا أن نلم بالخطوط العامة لما صنعوه وما حاولوا أن يصنعوه.

7- رد فعل الخوارج وصاحب الحمار

السنوات الأولى لحكم الفاطميين

لم يكن انتصار القبائل والبرانس ليقع دون أن يحدث ردود فعل عنيفة لدى البتر الزناتيين الخوارج. وقد سبق لنا ذكر حصار المهدية على يد صاحب الحمار. وخليق بنا أن نعود لهذه الحادثة نتقصى الحقائق من ورائها.

في تلك الفترة ظهر على مسرح المغرب بعد النوميديين وزناتة عنصر ثالث هو فلاح الجبل الحضري الذي يطلق عليه اسم رجل القبائل ويعتبره المؤرخون العرب من البرانس كما كان الرومان يسمون أبناء قومه "بالموز". لقد كان هذا الفلاح موجودا منذ القدم غير أن دوره كان ثانويا للغاية. ثم هب فجأة ليقوم بدور طليعي مع الكتاميين والصنهاجيين.

وحركات المغرب كما نعلم لها بطانة دينية معظم الأحيان. وقد نشأت الحركة الجديدة بانضمامها للفاطميين المنشقين مذهبيا. أنهم رجال القبائل الذين لم يتفقوا يوما مع البدو الرحل. لكن خلاف الطرفين لم يتفجر طيلة السنوات الأولى لخلافة الفاطميين.

ومن البديهي أن الخليفة الفاطمي لم يكن ليعي عظم الثورة المغربية التي اندلعت باسمه. ولم يكن ليدرك وهو العربي انه سلم المغرب لرجال القبائل. ذلك أن الأبعاد الحقيقية للأحداث لا تظهر في نفس الفترة التي تقع فيها. ولم يستطع هذا الخليفه الشرقي أن يتفهم واقع المغرب بعمق. والدليل على ذلك واضح.

فالمهدي بعد مغادرته سجن سجلماسة وتتويجة من ثم، ورث تركة الأغالبة كلها بما فيها من تنظيم وإدارة ومالية وأسطول بحري. لكنه لم يكن يحس بإحساس سلطان إفريقي.

كان الخليفة والسيد المطاع، وقد امتدت مطامحه لتبلغ العالم الإسلامي بأسره، وجميع المغرب بالطبع. وقد حدا به شعوره هذا على الفور للتخلص من الممالك المستقلة التي أنشأها ظهور الخوارج في المغرب. ومنذ السنوات الأولى لحكمه قضى على حكم

الإباضية في تاهرت، كما قضى على مملكة سجلماسة الصفرية الصغيرة وكذلك على مملكة الأدارسة في فاس. وصدع بذلك التوازن الذي عرفه المغرب منذ قرن.

وكانت حروب مراكشية قاسية. ولدينا تفاصيل وافية عن سلسلة الحملات التي شنها الفاطميون على فاس بين 910 و934. ولسنا الآن بصدد سردها وإنما يحسن بنا أن نتطلع لنتائجها.

لقد اختفى الأدارسة وحل محل محلهم أمويو بلاد الأندلس. كما زالت سلطنة فاس، لكن السلطة الفاطمية لم تحل محلها. ورضيت قبائل زناتة التي التفت حول فاس في عهد الأدارسة (أي زناتة تلمسان) رضيت هذه القبائل بحكم قرطبة البعيدة. وهكذا لعب الحكم الفاطمي دور زعزعة التوازن فقط. وعلينا أن نتحدث من ناحية أخرى عن شخصية القادة الفاطميين ومواليهم في الفترة الأولى. فجيشهم كان كتاميا، لكن قواده لم يكونوا كذلك. ولم يظهر رجال القبائل بين قادة الأركان. وقد لعب احد زعماء مكناسة سكان مولوية دورا مهما واسمه مسالة ابن حبوس. وهو الذي اخضع تاهرت وسجلماسة لسلطة الحاكم الفاطمي. كما قاد أول حملة على فاس.

ثم إن المهدي قضى في السابق ردهة طويلة من الوقت في سجلماسة لاجئا وسجينا. وسجلماسة تابعة إلى بني مكناسة نوعا ما. وعلينا أن ننظر للصلات الشخصية بين المهدي ومسيلة وهي صلات ترجع لزمن الاعتقال.

ومات مسألة بعد وقت قصير على يد بني مغراوة. والمعروف أن مكناسة ومغراوة قبيلتان زناتيتان، لكن بني مغراوة لم ينظروا بعين الرضى لمكانة أمير مكناسة لدى الحاكم الفاطمي.

ويذكر ابن خلدون: "أن ابن شقيق مسلة وخليفته تخلى عن تأييد الفاطميين ونادى بالأمويين أصحاب الأندلس أسيادا على افريقية."

وهناك شخصية ثالثة مهمة في إدارة الفاطميين هو علي بن حمدون الأندلسي. وقد تعرف على المهدي في الشرق ورافقه وأيام حظه العاثر. ولما انتصر المهدي جعل له مكانة رفيعة في البلاط. وأصبح حاكما لمسيلة والزاب. وظل طيلة حياته مواليا للمهدي، لكن ابنه وخليفته شعر بالحسد تجاه زيري الصنهاجي فجمع رجالا من زناتة حوله، وحرضهم على رفض سلطة الفاطميين والاعتراف بسلطة الخليفة الأموي في الأندلس.

ولعل من الأصح القول إن رجال زناتة هم الذين حرضوا قائدهم على هذا الأمر.

ووقعت الحملة الثانية على فاس وقادها ابن المهدي وخليفته المرتقب وكانت بمساندة بني مكناسة. وبعد تخلي مكناسة وقعت حملة رابعة بقيادة أمير مغراوي ينتمي لعائلة خازر الشهيرة.

ولم يجد الحاكم الفاطمي نفسه مقيدا برجال القبائل بالطبع. فإذا لم يختر قادة جيشه من عائلته أو مواليه اختارهم من قبيلة زناتة. لأنه سعى لحل مشكلة بلاد زناتة عن طريق زناتة نفسها. وتصور انه سلطة الخليفة المباشرة على المغرب، لكن هذا كان خلاف الحقيقة تاما.

ذلك أن الانتفاضة ضد الفاطميين ظلت نارا تحت الرماد من 909 حتى 930، سواء عند بني مكناسة أو في الزاب، أو لدى البدو الخوارج. ومما لا شك فيه أن تسلم الفاطميين السلطة قد غير الظروف السياسية حتى قلب مراكش. وبعد قرن من السلام تصدع التوازن واهتزت أركان المغرب ! واستيقظت فجأة لدى البدو، شهوة القتال والسلب والطمع التي نامت قرنا كاملا. فلم لا تستيقظ هذه الشهوة ولفرصة مؤاتية لها؟

وظل ولاء الإباضية على حاله. بينما استعاد متطرفو الخوارج قوتهم على يد صاحب الحمار.

وظهرت أوائل الانتفاضات سنة 929. وبلغت أشدها بعد موت المهدي عام 934. وخضت حكم ولده القائم الذي مات في خضم الأزمة سنة 946. ولم تنته الثورة نهائيا إلا بموت صاحب الحمار سنة 947. لقد كانت فترة رهيبة من الصراع بين اسر القبائل والزناتيين.

أبو يزيد صاحب الحمار.

كان أبو يزيد ينتمي لزناتة بالطبع. ويلقبه ابن خلدون باليفرني، لكن مركز نشاطه لم يكن قط ناحية تلمسان. "فقد ولد في السودان وكان أبوه يقصدها لتعاطي التجارة" وقد ولد أبوه في كستيليا (الجريد التونسي)... "وأمضى أبو يزيد طفولته في تزور بالجريد نفسه." لقد كان صحراويا من جنوبي تونس.

وذات يوم قصد إلى تاهرت "حيث أسس كتابا لتعليم الأولاد". فهو إذن من رعايا الرستميين لكنه ينتمي للفئة المنشقة. ويقول ابن خلدون "انه ينتمي للنكارية المذهب الخارجي الذي يومي إليه كذلك باسم الصفرية". ويسهب أبو زكريا في الحديث عن النكار ويميل لجعلهم مختلفين مذهبيا عن سائر الصفرية: فهم ينتمون لأقصى التطرف.

يقول ابن خلدون: "كان يركب حمارا اغبر" ويشدد أبو زكريا على مواصفات الحمار: "انه

حمار قاهري، سريع الجري بحيث لا تستطيع الخيل اللحاق به إلا جريا إذا كان متمهلا، وكان يسبق جميع الخيول أن كان راكضا".

وكان ابن خلدون يرى في ركبه الحمار نوعا من الميل لبساطة الحياة وقساوتها. ويضيف أن لباسه عبارة "عن قميص من الصوف أميل إلى القصر له كمان ضيقان" أنها جلابة العمال المغاربة والزابيين، أي لباس الشعب.

ذلك هو الخارجي. ولكن إليك أبا يزيد الصفري: "قال له احد أعوانه: لا تظنن أن الإباضيين سيتبعونك، فهم في مساجدهم. أما نحن فقد خرجنا معك لنلتهم تلك الجثث معا...وكان يعني بالجثث نتائج أعمال السلب". ويوم استيلائه على القيروان وعد أبو يزيد قاضي المدينة بالعفو عنه. فقال له احد أعوانه:

إلا تدري ما يقوله كتاب كليلة ودمنة؟

وأجاب أبو يزيد:

وما يقول هذا الكتاب؟

يقول: لا شيء أحب إلى القلب من قتل عدو حقير.

وحكم على القاضي بالإعدام ونفذ فيه حكم الموت رغم الوعد الذي قطعه له واستولى أبو يزيد على ممتلكاته.

ويضيف أبو زكريا قوله: "ويقال أن عدد القرى لتي خربها يزيد على ثلاثين ألفا.... وقد تجاوزت قسوته وأعمال العنف التي ارتكبها كل ما روي عن فظائع لفراعنة وسائر الحكام المستبدين. وكان يشهد بنفسه أعمال الفوضى والانتقام التي يرتكبها جنوده. ولم يفكر قط بإيقافهم أو منعهم... وذات يوم مر بجوار قابس ووافق أهلها على فدية معينة لمدينتهم لقاء الامتناع عن غزوها، ولكنه ما أن قبض الفدية حتى أمر جنده باقتحام المدينة وإعمال السلب والنهب فيها ثم عاد بعد فقدر ثمن الفدية من جديد ورفعها وكان على السكان أن يدفعوا له الفرق كذلك".

ومرة أخرى في الساحل، ألقى جنوده القبض على فتاتين رائعتي الجمال، وجاءته أمهما شاكية وهي تقول:

أيها الشيخ ! لقد اخذ جنودك ابنتي لاسترقاقهما. وقد اعتدوا عليهما وهما حرتان. واكتفى أبو يزيد بالقول:

وهل من إنسان حر في افريقية؟ وخافت لامرأة على حياتها وهربت منه ولم يكن "عدو الله" ليمضي ليلة واحدة دون أن تحيط به أربع من العذارى.

ويستفيض أبو زكريا في الحديث عن فظائع أبي يزيد "عدو الله". ولا شك أن الكراهية شديدة بين الإباضي (أبو زكريا) وبين الصفري (أبو يزيد) أما ابن خلدون فأكثر إنصافا ولا شك: وهو يعطي عن أبي يزيد الفكرة نفسها وقد أورد:"اعمل أبو يزيد النار في بجة بعد أن أمر بسلبها: كما أمر بقتل رجالها وأطفالها واسترقاق نسائها".

"وهاجم رقادة وسلبها ثم احرقها...وكذلك سلب القيروان".

"حاصرت فرقة من جيش أبي يزيد مدينة سوسة وأعملت الفرق الباقية الخراب في سائر أنحاء افريقية...وقد وصلت فئة من المنكوبين إلى القيروان حفاة عراة بينما مات الباقي من الجوع والعطش".

وكان أبو يزيد ذا سلوك شائن اشمأز منه حتى المقربون إليه.

وقد انضمت إليه في البداية قبيلتا لواتة وهوارة، وخاصة هوارة بني خمار، ويحدد ابن خلدون مكانهم شمالي الأوراس. ولعل ثورة أبي يزيد كانت بحال بلاء هوارة بنوع خاص. ففي جنوبي الأوراس، وخاصة في شماله وشرقه أحرز نجاحاتها الأولى، واستطاع أن يكون نواة جيشه في توزر وبغاي وتيبسة ومرمجنة.

لكن نجاحه هذا خلق له أعوانا في جميع المناطق الوعرة. وفي نهاية المأساة التي تسبب بها يحدثنا ابن خلدون كيف أن الحاكم الفاطمي قد شهد استسلام مغراوة التي ناصرت أبا يزيد. وبنو مغراوة من شلف ومنطقة تلمسان.

ويقول ابن خلدون "إن جمهرة كبيرة من البربر جاءته من بلاد بني نفوسة والزاب وقلب المغرب". وهم جميعا من البدو الذين هبوا رجلا واحدا، لان الصفرية الداعية إلى السلب والنهب تتجاوب تجاوبا كليا مع هؤلاء البدو الذين يتخيلون ثروات المدن تحت قبضة سيوفهم.

لقد كانت هزة عنيفة في بلاد المغرب كاد حكم الفاطميين يسقط تحت وطأتها. وابرز حوادثها حصار المهدية الذي تحدثنا عنه بإيجاز.

ولم يكن انتصار الفاطميين بفضل إخلاص الكتاميين والصنهاجيين لهم فحسب، وهو إخلاص فريد من نوعه نظرا للعداوة المستحكمة بين القبائل والبدو فالتحاسد بين الرحل شارك في ذلك. وقد ذكر ابن خلدون أن القبائل الرحل الملتفة حول أبي يزيد رفضت

الانصياع لأمره نظرا لما بينها من تحاسد. وقد فقدت من جنودها في حروبها الداخلية ما يفوق خسارتها في الحرب ضد الأعداء".

يضاف إلى ذلك حاسة الدفاع عن النفس الموجودة لدى حضريي افريقية حيث كان عليهم أن يختاروا بين الحياة أو الموت. "لقد بلغت الفظائع التي ارتكبها البربر في المدن،والحملات التي شنوها على افريقية درجة رهيبة، حتى سكان القيروان حملوا السلاح ضدهم وعادوا من جديد إلى سلطة الفاطميين".والوضع مشابه لما كان عليه في معركة القرن أو في عصر الكاهنة. ذاك أن سكان المدينة ساندوا الحكام مساندة قوية للوقوف في وجه الفوضى.

وحين وقع الحمار (سنة 947) في يد الحاكم الفاطمي بعد أن تخلى عنه أتباعه من هوارة "سلخ جلده عن عظمه وحشا جسمه بالقش وقدمه لعبة لقردين تدربا على هذا العمل".

ويضيف أبو زكريا قائلا: "وأشار الأطباء الذين فحصوا جروح أبي يزيد على الحاكم الفاطمي أن يستعجل تدابيره إن هو شاء أن يكون موت الرجل على يديه. وأمر الحاكم الفاطمي بسلخه، لكن عدو الله مات قبل أن يصلوا إلى سرته".

وفي مشهد آخر يحدثنا كيف أن الحاكم أمر بقتل جميع السجناء.

ويقول النويري إن إبراهيم ابن الأغلب حين انتصر على بني نفوسة في طرابلس سنة 894، "تربع على عرشه وأمر بإحضار احد السجناء ومر على جسمه بالسيف ثم طعنه بالرمح في قلبه وبنفس الطريقة قضى على 500 رجل".

ويقول البيان أن إبراهيم ابن الأغلب أمر في نفس الوقت "بقتل خمسة عشر رجلا وقطع رؤوسهم وشويها في النار، وكأنه يريد أكلها مع جنوده، فخاف رجال الجيش وظنوا أن الأمير قد اعتراه مس من الجنون". كل هذه فظائع تنبئ بنهاية العهود. والواقع أن المغرب كان مسرحا لفظائع كهذه لاسيما بين الأعداء اللدودين: البدو والحضر.

وتعتبر ثورة صاحب الحمار آخر حقبة من حقائب التمرد عند الخوارج. وقد انتهت كما بدأت وسط نوع من الجنون. ودخل المغرب في مرحلة جديدة أصبح روادها رجال القبائل. ومع هؤلاء لعب المغرب ورقته الأخيرة في أهم مرحلة من مراحل اللعبة.

8- كبار أعداء الأسر القبلية:

بنو يفرن وبنو مغراوة موالي الأمويين

حكام الأندلس

بنو مغراوة وبنو يفرن

بانتهاء صاحبي الحمار دالت دولة الخوارج لكن بلاد زناتة حافظت على بقائها. والمنطقة الشرقية من هذه البلاد هي التي تأثرت اكبر تأثر من هوارة إلى لواتة إلى بدو الجنوب التونسي حول الأوراس وهدنة. أما زناتة الغرب فقد حافظوا على بقائهم رغم اشتراكهم في ثورة صاحب الحمار لأنهم عرفوا طريق الانسحاب في حينه.

وقد أصبحوا اكبر أعداء لأسر القبائل. وهم الذين أطلق عليهم ابن خلدون زناتة الطبقة الأولى وأشهرهم مغراوة وبنو يفرن.

ومن الضروري أن نتعرف على هؤلاء الناس لان ذلك سيفيدنا في معرفة المزيد عن الصنهاجيين.

يستفاد من ابن خلدون أن بني يفرن ومغراوة قبيلتان متقاربتان كقرابة الكتاميين والصنهاجيين. فمغراوة وبنو يفرن ينتميان لجد واحد هو "ازليطن" واسمه مشابه لاسم نوميديي مسولا. على أن القرابة الجغرافية مؤكدة بين مغراوة وبين يفرن، واسم ازليطن موجود في وادي "إزلي" الشهير الواقع إلى جوار "وجدة". ويمكن البحث عن أصل القبيلتين في تلك المنطقة لاسيما ناحية تلمسان.

وقد علمنا أن تلمسان، بوماريا الرومان سابقا، قد ظهرت من جديد في زمن أبي قرة اليفرني إبان ثورة الخوارج. فبنو يفرن أتباع أبو قرة هم الذين أسسوا تلمسان على حد رأي ابن خلدون، لكن مغراوة قد نازعتهم عليها مرات عديدة.

ويحدد ابن خلدون مواقع القبيلة فيقول إن عدة فروع من بني يفرن كانت تقيم في جزء متوسط من المغرب يمتد من تلمسان حتى جبل بني راشد (جبل آمور). وهناك فئات أخرى من نفس القبيلة تقيم في المنطقة الفاصلة بين تاهرت وتلمسان. أما مغراوة

فيقيمون أيضا في وسط المغرب في منطقة تمتد من شلف حتى تلمسان ومنها إلى جبال مديونة.

ومنطقة شلف هي قلب بلاد مغراوة، لكن امتدادهم يصل إلى الهضبات لعليا والصحراء. ومن أفخاذهم الاغواط والريغا المقيمين في وادي غير.

على انه لا يمكننا تحديد مكان مغراوة وبني يفرن كما نحدد إقامة الكتاميين والصنهاجيين لان القبائل البدوية رحالة كما هو معروف.

وكانت فروع بني يفرن تعيش مبعثرة. وبنو مغراوة شأن بني يفرن كانوا يعيشون تحت الخيام.

ويمكن العثور عليهم حتى في افريقية. وكثر العثور عليهم في أواسط المغرب ببلاد زناتة وكأنهم طردوا تدريجيا على يد القبائل الطرابلسية الكبرى مثل هوارة ولواتة التي تقطن الجنوب التونسي والمنطقة المحيطة بالأوراس.

وهناك جفاء بين البدو الشرقيين والزناتيين أنفسهم. وظهر هذا الجفاء في عهد أبي قرة الذي تخلى عن حلفائه يوم حصار تبنة. وبالنسبة لحدود مملكة الإباضيين في تاهرت ومملكة الأدارسة في فاس، تعتبر شلف ومنطقة تلمسان تابعتين لفاس. كما يظهر هذا الجفاء أيضا في ثورة أبي يزيد ذات الطابع الشرقي والتي أدى تخلي بني يفرن عنها لانهيارها.

ويعود الانفصال بين العناصر البدوية الشرقية والغربية إلى عهد الفتح الإسلامي.

ويقول ابن خلدون إن بني مغراوة عرفوا منذ البداية بولائهم للأمويين. وهذا ما يفرقهم عن القبائل البربرية. وصحيح أن فجر الإسلام بعيد عن القرن الرابع عشر إلا انه من المؤكد أن ولاء مغراوة كان متجها لأمويي اسبانية في القرنين العاشر والحادي عشر. "جميع القبائل المغراوية كانت تعتبر نفسها من أصحاب الأمويين وهم يدينون بالولاء لهذه الفئة القرشية بالذات. ولذلك نقلوا ولاءهم لأمويي اسبانية". ذاك يتفق على كل حال وشعور الكراهية الذي يكنه الزناتيون للقبائل.

زناتة وأمويو الأندلس

بتنا نعرف أن البربر لحقوا بالعرب إلى اسبانية. وعلينا أن نعرف أن لمغراوة مكانة مرموقة بين هؤلاء البربر. فبنو مغراوة اقرب القبائل البدوية لاسبانية ومن الطبيعي أن تجتذبهم بلاد الأندلس.

على أن زناتة وبني يفرن ومغراوة أصبحوا في تلك الحقبة أصحاب الأمويين حكام الأندلس في تلك الحين.

فظهور الفاطميين قد هدم ممالك الخوارج، من أمثال تاهرت ومملكة الأدارسة بفاس. ولم يعد يعثر على شيء تقوم له قائمة في الغرب. وبات الحاكم الأموي في الأندلس يميل لاحتلال مكان الأدارسة. وبدأت الصلاة تقام باسمه في جميع المساجد ابتداء من تاهرت حتى طنجة.

وعثر في القبائل التي أيدت الأدارسة على مؤيدين له وهي القبائل البدوية التي الفت التطلع نحو الأندلس. واستطاع صاحب اسبانية أن يستقطب إلى جانبه زناتة المغرب، ويقيم الصداقة مع أمرائهم، موزعا عليهم المناصب.

"وقد طلب حاكم فاس اليفرني الإذن ببدء الجهاد المقدس في اسبانية. ولما استجيب إلى طلبه ترك ابن عمه في فاس كتائب له.

وفي قرطبة اجتمعت فئات كبيرة من البربر تحت راية الملك".

ويدل هذا الكلام أن هؤلاء من بني يفرن ومغراوة. وكثيرا ما كان صاحب الأندلسي يرسل أمراء زناتة المكافآت ويخصهم باستقبال عظيم كلما امو بلاده. "وكان الأمراء الزناتيون يتهافتون على خدمة السلطان والولاء له".

لكن هذا الرأي مبالغ فيه لان هؤلاء من ذوي النزعات الفردية ولا يسهل التحالف معهم على الأبد. وحتى الخليفة الأموي كان يحذرهم. وقد جمع حاكم فاس ذات مرة عددا من الأمراء الزناتيين، مما أدب القلق في نفس صاحب الأندلس. وحين جاء رسول إلى يدو اليفرني يحمل له دعوة لزناة البلاط أجاب قائلا: "امض واسأل الأموي إذا كان الحمار الوحشي يرغب في الانقياد إلى مروض الخيول". وهناك من هم أكثر منه نعومة أو يتظاهرون بذلك. فالأمير المغراواي زيري بن عطية تلقى أمرا للذهاب إلى قرطبة واستقبل فيها بآيات التبجيل والاحترام. وقد استعمله صاحب الأندلس للقضاء على يدو. وتم له ما أراد. لكن زيري بن عطية كلن يخدم السلطان ضمن حدود.

ويروي روض القرطاس على النحو التالي زيارة زيري هذا لقرطبة: استقبل الرجل بحفاوة بالغة في البلاط ومنحه السلطان لقب وزير. ثم ركب البحر إلى طنجة وما إن حط رجله فيها حتى هتف قائلا"الآن، ضمنت بقاءك يا راسي". ثم احتقر الهدايا التي خلعها عليه السلطان ورفض لقب وزير وخاطب أول من ناداه بهذا اللقب قائلا: أصلحك الله، أ أنا أمير ابن أمير ولست وزيرا.

إن أبهة الحاكم الأموي مدعاة للإعجاب حقا: لكن من الأفضل أن نسمع الحديث عن الأسد ولا تراه. ولو كان في الأندلس رجل واحد له قلب أما كانت الأمور كما هي عليه". وبلغ خطابه مسامع الأمير -كما روى ابن خلدون- فوهبه المزيد من العطايا. وفي النهاية انضم زيري بن عطية علنا إلى حركة العصيان.

غير أن الصلة ظلت وطيدة بين هؤلاء الإقطاعيين وصاحب قرطبة نظرا لحاجتهم إليه. فإذا وقع حادث ما، كان الأندلس ملجأ صالحا.

وهناك أمير زناتي غضبت عليه قبيلته "ففر إلى الأندلس مع فئة من أنصاره". وهناك زناتي آخر وهو أبو يداس -قتل عمه ورفضت قبيلته الاعتراف بزعامته- فقصد مع إخوانه إلى اسبانية سنة 992. واستقبله صاحبها بالترحاب وأغدق عليه وعلى أصحابه النعم. وسرعان ما احتل الرجل مكانا بارزا في بلاد الأندلس. وفي فترة أخرى فر عدد كبير من بني يفرن إلى اسبانية وقد لعب الأمراء الهاربون دورا مهما في تاريخ الأندلس. وقد أسس احد أبناء بني يفرن مقاطعة مستقلة في روندا. كما أسس زناتيون آخرون هم بنو برغل مملكة لهم في كرمونة. وأصبح بنو دمرا أسيادا على مورون واركاس. ويذكر ابن خلدون عن هؤلاء: "انتصرت هذه الفرق الإفريقية على الفرق الاسبانية ذات الأصل العربي إثر حرب أهلية أدت لانهيار الخلافة. وحين جزأوا الدولة اغتصبوا الوظائف المهمة وحكم المقاطعات".

ومهما يكن من أمر فان الشراكة كانت موجودة بين أمويي الأندلس وزناتة. وقد استعاد مضيق جبل طارق أهميته في ذلك الوقت. وأصبحت بلاد زناتة تابعة للأندلس، وسرعان ما صار العكس هو الصحيح. فالدولة الحضرية المنظمة لا يكتب لها الدوام إن هي استعانت بالبدو الرحل الذين يدفعونها إلى الانحلال.

أمراء بني يفرن

ثمة بين هؤلاء الأمراء الزناتيين، موالي الأمويين الخطرين، أشخاص مهمون كان لهم حول وطول في افريقية .

وعلى رأس بني يفرن كان يالا زعيما كبيرا، أسس مدينة أفغان وجعلها عاصمة له، وكانت تقع بين تلمسان ووهران وشلف وتاهرت، ولكن مكانها لم يحدد اليوم بالضبط.

واغتيل يالا على يد الفاطميين ودمرت عاصمته أفغان. وكان من الأهمية في قرطبة إلى درجة انه استطاع في حياته جعل احد أقاربه واليا على فاس

وكان ولده يدو مغامرا كبيرا تمرد على جميع أناس واستولى على فاس ثم انتزعت منه. ومات وهو يحمل السلاح بيده. لكن سلالة يالا لم تنته بانتهائه. فقد أقام أمراء من بني يفرن ومن أسرته بالذات مملكة في شالا (سالين، شيلا، الرباط حاليا عند مصب نهر أبي رقرق). وامتد سلطانهم جنوبي النهر ومنافسيهم بني مغراوة أصحاب فاس.

ثم إن أمراء آخرين من بني يفرن (إن لم يكونوا مغراوة بالذات، لان ابن خلدون لم يوضح ذلك) هم الذين أسسوا مملكة إلى جهة الجنوب داخل مراكش الأطلسية في أغمات على سفح الأطلس الكبير قريبا من المكان الذي أسس فيه المرابطون مدينة مراكش. وقد تزوج أول المرابطين أميرة من أغمات وهو مدين لها بأهميته.

مما يدل على أن الفتح الإسلامي في مراكش الأطلسية، ذلك الفتح الذي بدأه الأدارسة ما برح يمضي قدما وتوطدت الجسور بين فاس والصحراء حيث مضى فتح المرابطين.

وسواء كان سلاطين أغمات من بني يفرن أو مغراوة فان بني يفرن قد تقهقروا نحو الغرب، وذلك بتأثير صنهاجة من جهة وبضغط من أبناء عمهم ومنافسيهم بني مغراوة بنوع خاص. وهناك خصام عنيف دائم بين الأقارب، تلك طبيعة من طبائع البدو.

أمراء مغراوة

استطاع بنو مغراوة في الواقع أن يحجبوا وجود بني يفرن . وقد التفوا وراء رجل يدعى خازر عاش في عهد ثورة الخوارج. ومن أهم أبطال هذه السلالة محمد بن خازر الذي عاش مئة عام وملأ الدنيا بأخباره طيلة حياته. ولم يكن اسم هذا القائد مرتبطا بمكان معين، ذلك أمر عجيب. فقد حكم تلمسان لفترة ما، ثم تخلى عن المدينة لإدريس. ويضيف ابن خلدون قوله: "في أواسط المغرب، ظلت السهول تحت سيطرة محمد بن خازر". وكان يحكم "إمارة بدوية". وكان يتمتع دون معاصريه بحس في السياسة، ولهذا استمر حكمه وقتا طويلا. فقد عرف كيف يتخلى عن أبي يزيد في الوقت المناسب وتجنب الهزيمة بعد أن خلق توازنا في علاقته بين الفاطميين والأمويين. وقد مات على مذهب الفاطميين. لكن أبناء خازر كانوا معظم الأحيان موالين للأمويين.

والمع شخصيات هذه العائلة هو حفيد محمد، زيري بن عطية. فهو الذي قضى على يدو وانتزع منه مدينة فاس حيث حكمها أبناؤه طيلة عدة أجيال. وخلاصة القول انه أسس أسرة خلفت الأدارسة بعد فترة انتقالية. لكن هذه الأسرة لم تكن مستقلة وظلت خاضعة لسيطرة الأمويين. ويذكر ابن خلدون كيف أن زيري بن عطية عبر عن ولائه لقرطبة بعد أن حقق نجاحاته الأولى، كما عد الهدايا وهي عبارة عن زرافات وتمور تدل

على أن مصدرها الصحراء. بعد ذلك حاول زيري يقوض سلطة الأندلس. فبذل الخليفة القرطبي مجهودا عسكريا جبارا ليضع زيري عند حده. وهو مجهود إن دل شيء فعلى شدة اهتمام الأمويين ببلاد زناتة. وغلب زيري على أمره وجرح في المعركة وطرد من فاس إلى الصحراء ليعود إلى حياة المغامرة. واستطاع أن يتدبر أمره شأن جميع الأمراء البدو. واستطاع أن يؤسس في بلاد مغراوة القديمة ناحية تلمسان وشلف سلطة قوية جعلت أمير قرطبة لا ينسى الماضي بسهولة. وبعد وفاة زيري بن عطية 1001 أعاد الحاكم الأموي تتويج ابنه على فاس بصفة حاكم لها. وقد أورد لنا ابن خلدون قرار تعيينه حرفيا وهو نص ملكي مميز.

ولكن بعد ذلك بخمسة عشر عاما أي نحو 1015 أصيبت أسرة الأمويين في الأندلس بالانحلال. وأقامت أسرة زيري بن عطية نوعا من الحكم المستقل في فاس حتى مجيء المرابطين. لقد كانوا ذوي شأن عظيم. إذ أصبحوا في ذلك ابرز فئة في بلاد زناتة واستطاع فرع من عائلة خازر أن يؤسس عائلة حاكمة صغيرة في سجلماسة. كما حكم أمراء مغراويون يعدون من أتباع أبناء عمهم في فاس. حكموا تلمسان.

وهناك فرع آخر من عائلة خازر انضمت إلى صفوف العدو أي إلى الصنهاجيين واستطاعت أن تحكم تبنة ثم عادت إلى العصيان. ولم تتمكن من إقامة أي حكم دائم بجوار بلاد القبائل. أما في الطرف الآخر من بلاد المغرب أي في طرابلس فقد قامت أسرة مغراوية من بني خزرون واستمر حكمها وقتا طويلا. معتمدا أسلوب المناورة بين القيروان والقاهرة.

تلك هي حقيقة الأمر لدى الزناتيين وطلائعهم المغراويين. لقد كان مسرحهم نفس المسرح الذي عمل عليه البدو والغاربة بين طرابلس وتلمسان. تلك الرقعة من الصحراء والأراضي الوعرة الممتدة في جميع الاتجاهات جنوبي بلاد القبائل.

كتلة القبائل وكتلة زناتة

أولئك هم الاخصام الذين قاد الكتاميون الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون كفاحا مريرا ضدهم. كان ذلك نزاعا بين القيروان وقرطبة. يستند على فاس. لكن العناصر المحاربة هي التي تهتم. فالمحاربون هم القبائل من جهة والزناتيون الرحل من جهة ثانية.

وحين قامت ثورة صاحب الحمار الزناتية. تلك الثورة التي زعزعت كيان الفاطميين. كان زيري الصنهاجي أهم أعضاء الأسرة المزعزعة. ونظرا لخبرة الخليفة السابقة في تلك الأمور. اضطر للتراجع عن ميله القديم لزناتة. فقد مضى عهد مسألة بن حبوس.

وأثبتت كتلة زناتة وجودها وأصبحت قاعدة الفاطميين مرتكزة على بلاد القبائل. وفي تلك الفترة الحالكة من تاريخ المغرب كان القبس الوحيد ذاك الصراع المرير بين قبائل صنهاجة وبدو زناتة.

ويرسم ابن خلدون بما له من طول باع صورة عن الموقف فيقول: حين استطاع الفاطميون أن يبسطوا سيطرتهم على افريقية انضم زيري (الصنهاجي) إليهم. وبدا كأشد أنصارهم ولاء. وقد أفاد من التحالف معهم في مجال التفوق على منافسيه بني مغراوة. وقد ابتعدت هذه القبيلة كما ابتعدت سائر الشعوب التي تنتمي لأصل زناتي نهائيا عن الفاطميين وانضموا للأمويين أصحاب الأندلس واقروا لهم بالسيطرة في أواسط المغرب وفي المغرب الأقصى". ذلك هو تحديد دقيق للموقف. ولكي تقرب العملية من مدار كنا علينا أن نثير نقطة لم يتطرق إليها ابن خلدون. أنها قضية الأرض. فلا يغربن عن البال أن وراء زيري الصنهاجي. كتلة هي القبائل. أما الزناتيون فهم كتلة البدو. وليس هؤلاء أفرادا وقبائل وأسرا تتصادم وحسب. لان هناك صراعا بين مفهومين للمجتمع والحياة لا يتفقان. يتمثلان بقصتين من الأرض تختلف طبيعتهما اختلافا كليا. وما كنا أبدا لنرى قبل أو بعد تمايزا أكثر وضوحا. ذاك أن بلاد القبائل لم تفكر مرة واحدة أن تعي ذاتها ككتلة قومية.

عندما ندرك هذه الوقائع العميقة. ينتظم أمامنا تاريخ المغرب المظلم في القرن العاشر ويتخذ له معنى.

9- انتصار اسر القبائل والقضاء

على بني يفرن ومغراواة

زيري وبلكين

يبقى أن نشير لنتيجة ذاك النزاع الطويل بين صنهاجة وزناتة والذي انتهى بانتصار الأولى.

لم تعد القضية تتعلق بكتامة، فالحكم الفاطمي كان مسيطرا عليها. واستطاع بالنتيجة أن ينقلها لمصر. ونشأت بين كتامة وصنهاجة كراهية عنيفة. وكان الصنهاجيون وبنو زيري ممثلي بلاد القبائل الحقيقيين. وإثر وفاة صاحب الحمار أسس زيري آشير ونظم خط ميديا -مليانه- الجزائر، أي جبهة القبائل ضد مغراوة شلف.

وفي سنة 958 أرسل الحاكم الفاطمي حملة كبرى جديدة على مراكش، بقيادة جوهر وهو صقلي أو يوناني عتق الخليفة رقبته وأصبح رجلا عسكريا بارزا، وقد قاد الجيش الذي فتح مصر وانشأ القاهرة. وكان الحاكم الفاطمي يميل لاختيار أعوانه من بين محظييه وعتقائه المغمورين. لكن وراء جوهر كان زيري الصنهاجي، وهو الذي هاجم فاس. ويبدو أن الحرب لم تعلن بنفس الروح التي كانت سائدة قبل ثورة صاحب الحمار. واغتال رجال القبائل يالا اليفرني ودمروا عاصمته أفغان وقضوا على قبيلته. وبدأت نكبة بني يفرن منذ ذلك الحين، واختفوا من أواسط المغرب ولم يعد يعثر عليهم إلا في مراكش. وكان جيش الفاطميين يشعر بالكراهية الشديدة تجاه زناتة، أنها كراهية القبائل. "وحين مات يالا اتهم الزناتيون زيري بالتآمر لقتله".

وأصبح النزاع عنيفا بين زناتة والأسرة الحاكمة وهناك نقطة تسترعي الانتباه وسط هذا النزاع الذي تحركه المطامع الفردية. يقول ابن خلدون: "أصبحت الحرب بين زيري ومغراوة من الضراوة بحيث تحالف هؤلاء مع الحاكم الأموي". فابن خلدون نفسه يرى أن الأمويين استفادوا من كره مغراوة الصنهاجة أي من كراهية البدو للحضر. وكذلك من عجز زناتة عن المقاومة بمواردهم الخاصة فقط. لان تفوق صنهاجة عسكريا واضح كل الوضوح. حصل زيري من الحاكم الفاطمي على "حكم المغرب وعلى حق ضم جميع الدول التي يخضعها". وحقق على الفور انتصارا كاسحا على مغراوة في مكان يقع على الأرجح

بين آشير وتلمسان. وانتحر أمير عائلة خازر المغراوي بإلقاء نفسه على سيفه ومات معه خلق كثير من بينهم سبعة عشر أميرا كما يقول ابن خلدون. وكان سرور الأمير عظيما حين تسلم في القيروان رؤوس هؤلاء الناس، بعد أن أرسلهم زيري إليه.

وتشكل هذه المعركة التي وقعت عام 907 والتي لا يعرف موقعها، منعطفا هاما في تاريخ المغرب لأنها حققت انتصار القبائل لأول مرة في تاريخ البلاد. ويقول ابن خلدون: "إن بني زيري وصنهاجة استطاعوا ترويض شعوب المغرب البدوية". لكن الترويض لم يمكن نهائيا لان زيري اخذ على حين غرة وقتل وحمل عدد من أمراء مغراوة رأسه إلى قرطبة.

وما إن وصلت الأخبار إلى آشير حتى هب بلكين بن زيري إلى الحرب وحقق على زناتة انتصارا كبيرا.

واتفق أن الحاكم الفاطمي كان يريد الانتقال إلى مصر، فلم يجد غير بلكين، نائبا له. فأوكل إليه حكم المغرب وافريقية معا. كما كلفه بقيادة الجيش وجباية الضرائب وإدارة المقاطعات. وأوصاه بألا يعفو البدو من عبء الضرائب أبدا.

وتعتبر فترة حكم بلكين (974-984) العصر الذهبي من عهد القبائل. وفيه بلغت قوة صنهاجة أوجها.

واستولى بلكين على فاس وأصبح سيد مراكش باستثناء "سيتا". ويحدثنا ابن خلدون عن بلكين حين وقف فوق هضبة تطوان وراح ينظر إلى سيتا حيث جيش العدو ويقول:"هذه الأفعى تهددنا بأنيابها". لكنه لم يذهب في فتحه ابعد من ذلك.

وكانت سيطرة القبائل على مراكش نوعا من العبث، فمراكش بعيدة جدا كما أنها صعبة المسالك فضلا عن قربها من قرطبة.

وبعد بلكين اتجه آخرون من بني زيري نحو فاس. واحدهم واسمه بلكين أيضا اغتيل سنة 1062 بتواطؤ الصنهاجيين الذين أثارهم غزواته البعيدة. وهكذا فان استيلاء بني زيري على فاس مرات عديدة لم يكن أمرا مجديا لا بل كان نوعا من الإنهاك لهم.

فتح الجزائر وانهيار زناتة

على طول حدود الجزائر الحالية أو حتى تلمسان على الأقل، كان هؤلاء يعتبرون وكأنهم في بيوتهم. فقد أوقفوا مد المرابطين إلى ابعد من فاس في نهاية القرن التاسع، وفي وقت كانت فيه الأسرة الصنهاجية في عصر انهيار وأسرة المرابطين في عهد تفتحها. وتحقق نوع من التعايش بين الأطراف المعنية، ففي سنة 1102 حين استولى الصنهاجيون

على تلمسان مرة أخرى يروي لنا ابن خلدون كيف أن الأمير الصنهاجي قد تأثر كثيرا بتضرع أميرة من المرابطين رجته باسم النسابة أن يرتد عن مهاجمة مدينتها. وكان لها ما أرادت وتراجع الفاتح في اليوم التالي. ومن المعلوم أن المرابطين يحملون اسم صنهاجة لأنهم فرعان متباعدان لقبيلة واحدة. على أن قرابة الدم ليست دائما عامل تقارب لدى البربر. فقد كان للصحراويين المرابطين وللقبائل أيضا عدو مشترك في زناتة.

ومن المؤكد أن الجزائر في القرنين العاشر والحادي عشر كانت موطن القبائل البربر. فبلكين الأول ابن زيري كان صاحب مسيلة والزاب، وقد قرر عدم السماح للعدو بامتلاك حي واحد، وجاب الولايات من تبنه إلى بغاي إلى المسيلة وبسكرة ليطرد منها زناتة. كما دمر تاهرت ونقل سكان تلمسان إلى آشير ونجح في إنقاذ المغرب الأوسط من بقايا زناتة. كذلك اسر ابن خازر أمير مغراوة ثم قتله وطارد زناتة حتى سجلماسة وعاقبهم عقابا شديدا. وفي أواسط المغرب اعمل السيف في رقاب زناتة وحلفائهم سكان بيوت القش. وهناك اصدر حكمه بالإعدام على كل بربري يعنى بتربية الخيول ويستخدمها للركوب. وهو تدبير غريب يدل على مدى الكراهية التي يكنها للبدو، وكذلك دليل على تفوق لا ريب فيه. وتوفي بلكين حين كان في جولة تفتيشية بين سجلماسة وتلمسان.

وموجز القول إنه أصبح السيد الوحيد على الأوراس وهدنة والهضبات العليا وسهول وهران أي على طول المنطقة الطبيعية لبتي يقطنها الزناتيون. ويقول ابن خلدون إن زناتة غادرت وسط المغرب وعبرت ملوية واستوطنت في المغرب الأقصى. وانتهى في الجزائر على الأقل، دور مغراوة وبني يفرن وزناتيي الصنف الأول كما يسميهم ابن خلدون. ولم يسترجع الزناتيون قوتهم إلا بعد فترة طويلة، بعد أن تغيرت معالم المغرب وتغيروا هم أنفسهم وأصبحوا زناتة الصنف الثاني، انتهت مشكلة قيام الدولة بإخضاع البدوي للقبائل.

أما المنصور ابن بلكين فكان -رغم لقبه- محبا للسلام أكثر من أبيه، وقد نسي طريق مراكش ووفر على نفسه طيلة إحدى عشرة سنة من حكمه أية مصاعب تذكر مع زناتة. (984-995).

على أن الهدوء الدائم لا يمكن أن يستمر في بلاد البدو، فسرعان ما يبدأ الانشقاق من جديد.

وأصبح زناتة مراكش على الأبواب يتطلعون إلى مهدهم السابق في الجزائر. وفي عهد باديس خليفة المنصور (995-1016) حصلت غزوات وثورات عنيفة. كما حصلت

خضات أيضا حكم المعز خليفة باديس (11016-1062). غير أن الكلمة الأخيرة ظلت للأمير الصنهاجي في ما يتعلق بالزناتة على الأقل. وفي عهد المعز وقع الفتح العربي الثاني.

بعد ذلك بوقت طويل نحو 1102، كان الزناتيون رغم تأييد العرب لهم في موقف ضعيف تجاه الصنهاجيين. فبعد أن أوقف المنصور ابن الناصر غزو المرابطين لتلمسان اتجه لمحاربة الزناتة واضطرهم للتفرق بين الزاب ووسط المغرب.

وموجز القول أن النتائج التي تم الحصول عليها في بلاد زناتة كانت مستمرة. فلم تقم -في عهد الأسرة الصنهاجية- إمارة زناتية واحدة على طول المساحة الممتدة بين طرابلس وتلمسان. ولم تعد الأوراس تشكل مركزا سياسيا. وانتهى أمر تاهرت، كما لم تعد تلمسان مدينة الحدود تحتل مركز العاصمة إلا في عهد زناتة الصنف الثاني.

يعني ذلك عمليا انه قد تمت حماية جميع المدن الإفريقية من غزو البدو طيلة قرن من الزمن أي منذ موت صاحب الحمار.

تلك كانت إرادة كل حاكم في صد هؤلاء البدو من اجل المحافظة على التراث الحضاري المستقر. ويقول ابن الأثير أن من نتائج تأسيس آشير إحلال الصنهاجيين بين المدن من جهة، والزناتة والبربر من الجهة الثانية وهذا ما سر له الحاكم الفاطمي كثيرا.

ازدهار أسطوري

وصف ابن خلدون تقسيم افريقية في عهد المعز فقال:"لم يكن قط لدى البربر إمبراطورية أكثر امتدادا وازدهارا. ويستدل على ذلك بما أورده ابن خلدون الرقيق الذي أسهب في وصف أعراسهم ومباهجهم". كما نلاحظ ابن خلدون بنفسه آثار الترف والازدهار الشديدين. وكذلك البيان يتناول الموضوع نفسه.

لقد صان القبائل إفريقية من غزوات البدو ولم يعمدوا هم أنفسهم لسلبها. فما من جيش كتامي أو صنهاجي أقدم على سلب مدينة افريقية. وقد سبق لنا ذكر النظام الذي رافق انتقال السلطة من الأغالبة إلى الفاطميين ومن الفاطميين لبني زيري. وهناك سبب عميق لذلك، فالهوة سحيقة بين رجل القبائل والبدوي. ولا افهم لماذا يهمل المستعربون أمر انتساب كتامة وصنهاجة لحمير. ففي ذلك على الأقل دليل على أن فلاح القبائل ليس كسائر البربر، لان غيره من البربر ينتمون للبدو.

والفلاح معروف بميله لامتلاك الأرض. ورجال القبائل ملاكون شغوفون بملكهم كما

أنهم يفهمون الحياة المدنية وقد كونوا نوعا من الديمقراطية الحضرية. أما البدوي فذو نزعة شيوعية ارستقراطية. وليس من المستغرب أن يعم التفاهم علاقات سكان المدن والفلاحين القبائل، كما انه ليس من المستغرب عدم تفاهمهم مع البدو.

بداية انجاز دائم أجهض قبل أوانه.

في بلادنا نشأت الأمة من تعاون سكان المدن والفلاحين، وإن شيئا من هذا القبيل كاد يتحقق في بلاد المغرب.

لكن العملية لم تتم لان الطابع الشرقي كان مسيطرا على مجرى الأمور حتى أن بلكين بدل اسمه إلى يوسف ولقب نفسه بسيف الدولة بعد أن ولاه الحاكم الفاطمي. كما حمل خلفاؤه أسماء عربية كالمنصور والمعز. وراح أمير صنهاجة يبتعد عن القبائل كلما رسخت جذوره في القيروان. إذ هو وريث الفاطميين والأغالبة. فكيف له أن يسير على غير منوالهم في وقت لم تتوصل فيه دولة شرقية أن تشكل امة.

ومن آخر وصايا الحاكم الفاطمي لبلكين ما يلي:"لا تول أحدا من غير بني زيري". تلك هي الطبيعة الشرقية. وقد عرف بنو زيري تمرد الأمراء الوراثيين. وقد حصل أكثر من مرة صدام بينهم وبين زناتة. وقد قصد احدهم ويدعى زاوي إلى شناوة لينتقل منها إلى اسبانيا وينضم للأمراء الزناتيين. واستطاع أن يتولى مركزا مرموقا في الجيش. لكنه بخلاف الآخرين شعر بحنين لبلده. وعاد إلى بلاط الصنهاجيين حاملا معه رفات احد الأجداد من بني زيري ليجعل له ضريحا في مدفن العائلة. وهكذا تجلت عنده الطبقية القبلية. فالجبلي يشعر بحنين لوطنه، وهذا ما لا يدركه البدوي.

لكن حركات التمرد عند بني زيري لم تكن بمثل الخطورة التي وقعت في الأسر الأخرى. فهي حركات سهلة التفسير نتيجة تركيب الدولة الصنهاجية.

انه تركيب خطير، حيث أن البلاد ليست واحدة وإنما تضم دولتين متجاورتين لم تجمع الصلة بينهما وهما افريقية وبلاد القبائل: في بلادنا تتداخل المدينة والريف. أما هنا فليس لهما اتصال.

ففي افريقية نجد المكلف والمال والصناعة والثقافة وهي العناصر الضرورية لقيام الأمة. أما في بلاد القبائل فهناك القوة وحدها.

ولو أعدنا رسم التاريخ لتصورنا أن هذا المخرج ما كان ليصبح حتميا. فقد أعطى بنو زيري أشخاصا أقوياء كالناصر والمنصور. وكان بإمكان مملكة صنهاجة اشد القبائل

البربرية نزوعا للاستقلال أن تتصور نحو المستقبل لو أن المغرب ترك وشأنه. لكن المغرب لم يبق على حاله. لان الفتح العربي الثني غير وضعه جذريا.

10- حدث جديد هام: قدوم البدو

العرب وإحياء الزناتة

البدو

كشفت ترجمة ابن خلدون إلى اللغة الفرنسية العديد من الحقائق عن بلاد المغرب.

فلم نكن نعرف قبل ابن خلدون أكثر من أن الفتح العربي الأول لبلاد المغرب وقع في القرن السابع. في حين انه حصل فتح ثان بعيد جدا عن الأول وقع في منتصف القرن الحادي عشر.

ويقول ابن خلدون بحصافته المعهودة:"أن العرب في غزوتهم الأولى اضطروا للإقامة في المدن بغية السيطرة عليها ولم يقيموا في الخيام وسط السهول. ولم يضربوا خيامهم فيها في القرن الخام للهجرة (الحادي عشر الميلادي) حيث توزعوا في أنحاء هذه المنطقة الواسعة".

وينتمي عرب القرن الحادي عشر الذين غزوا المغرب لقبيلتين رئيسيتين هما: بنو هلال وبنو سليم.

وكان الفتح العربي الأول لهدف حكومي صرف: حيث أرسل الخليفة جيشا لغزو البلاد وإخضاعها. وإقامة فرق عسكرية ومكاتب داخل المدن. لكن أفراد هذا الجيش لم يأتوا مع نسائهم وأسسوا عائلات متمازجة للدم. وهكذا كان الفتح ماديا ومعنويا في نفس الوقت. لكن البربر لم يتأثروا من جراء ذلك من حيث لعرق وكذلك من حيث اللغة إن صح إطلاق كلمة لغة بربرية على مجموعة اللهجات التي يتكلمها هؤلاء. أما اللغة العربية فأصبحت لغة الدواوين الرسمية ولغة المعاملة في حين ظلت البربرية شائعة حتى مشارف المدن. وهكذا وعى البرابرة أنفسهم وأطلقوا على شعبهم اسم البربر لأول مرة.

أما عرب القرن الحادي العشر الذين أموا البلاد بعد ذلك بخمسة قرون فكانوا مختلفين عن العرب الأولين الذين جاؤوا قبلهم. ويقول ابن خلدون أنهم من العرب المستعجمة أي الذين لا يحسنون اللغة العربية ولا يحافظون على أصولها حتى في قصائدهم البدوية الفلكلورية.

أما مدن المغرب فكانت تتكلم اللغة العربية الفصحى في القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر. ولم تتغلب عليها العامية، لان من لا يحسن لغة القران وقتئذ كان يتكلم البربرية. والبدو الرحل هم الذين أتوا بالعربية لعامية في القرن لحادي عشر. حيث كانوا شعبا متكاملا من الرحل، نزحوا لنسائهم وأطفالهم باحثين عن المرعى والحرب أيضا. وهي حقبة عاشها ابن خلدون بنفسه.

في سنة 1351 خرج سلطان تلمسان في حملة على شلف. "وتحالف مع بني زغبة (وهم من القبائل العربي) الذين ساعدوه بفرسانهم ومشاتهم ونسائهم وإبلهم".

لقد بدأ استيطان الغرب هذه المرة. لكن بني هلال وبني سليم كانوا بدوا نموذجيين. عادوا فكرة الحكومة والنظام، وانصرفوا بكليتهم لأعمال السلب والنهب. وكان ابن خلدون يعنيهم بنوع خاص حين كتب كلماته الشهيرة عن العرب.

ولقد عرف المغرب دمارا كبيرا في القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر. أنها كارثة أفظع من كارثة الخوارج حلت به.

وقد وضع جورج مارسيه كتابا مهما عن بني سليم وبني هلال يمكن الرجوع إليه.

وسنكتفي بالإشارة إلى أن إهمال صنهاجة كان سببا في مجيئهم إلى بلاد المغرب.

إن هاتين القبيلتين كانتا في موطنهما الأصلي (شبه الجزيرة من ناحية سورية) من اخطر القبائل الموجودة. حيث كان أفرادها لا يتورعون عن مهاجمة الحجاج المتوافدين إلى مكة. كما أسهموا مساهمة فعالة في ثورة القرامطة. وقد نفاهم الخليفة الفاطمي إلى صعيد مصر تخلصا من شرهم. وسكنوا على ضفة النيل اليمنى وبقي عليهم أن ينتقلوا للضفة اليسرى قبل أن يطلق لهم العنان نحو المغرب. وخلق وجودهم في الصعيد جوا من الذهر والإرهاب.

في تلك الأثناء وقع السلطان الصنهاجي بالقيروان في خطأ جسيم حين رفض سلطة الخليفة الفاطمي وأرسل تحياته للخليفة العباسي في بغداد. كان ذلك سنة 1045. بعد ذلك بست سنوات أي 1051 كانت طلائع القبائل الهلالية تدخل افريقية.

وليس بمستطاعنا أن نتطرق لجميع التفاصيل التي عرفتها بلاد المغرب في ذلك الحين، لكن بودنا الإشارة لبعض الأمور التي تنير بعض جوانب المشكلة.

انهيار صنهاجة

جاء انهيار صنهاجة نتيجة للغزو البدوي. فمنذ 1056 و1057 بدأ البدو بدخول القيروان وسلبها. وقد سبق لهذه المدينة أن قاومت حركات مماثلة لكنها لم تستطع الصمود هذه المرة وتشتت أهلها وحلت الكارثة بها.لكن القيروان لم تزل كمدينة وإنما فقدت مكانها كعاصمة لتحل محلها تونس. على أن الأسرتين الصنهاجيتين الحاكمتين في افريقية وبجاية ظلتا في الحكم قرنا من الزمان بعد ذلك أي حتى 1160 قبل أن يقضي عليهما الموحدون لا البدو.

وظلت بجاية مهيبة الجانب في حين أصبحت افريقية مرتعا للبدو. ولم يعد للسلطان من سلطة إلا على المدن باستثناء تونس المدينة الرئيسية. واستطاع السلطان المحافظة على نفسه بطريق الدبلوماسية حيث استطاع أن يضرب العرب بعضهم ببعض.

ولكن كيف قيض لصنهاجة أن تستمر قرنا من الزمان في ظروف كهذه، قبل أن يأتي جيش من الموحدين بطريق الصدفة ليقضي عليها؟ ذلك بالطبع لان البدو لم يكونوا طامعين بالعرش.

وحين تغلب الحاكم الفاطمي على ابن الأغلب، اكتفى بتسليم السلطة واستمرت الإدارة كما كانت عليه.

فلم يكن البدوي الظافر ليفكر بتسليم السلطة فهذا لا يهمه أبدا لا بل انه لا يفقه ما هي السلطة. "لم يكن لهذه القبيلة العربية- كما قال ابن خلدون- أي رئيس قادر على قيادتها والسيطرة عليها. وراح أبناؤها إلى الحقول بعد أن طردوا من المدن واستولوا عليها ليجعلوها مراكز لأعمال لسلب والنهب".

وبقاء السلاطين الصنهاجيين بعد انهيار سلطتهم العسكرية من الأمور التي تلقي الأضواء على طبيعة البدو.

نهضة زناتة

أصاب الحاكم الفاطمي صاحب القاهرة -دون أن يدري- عصفورين بحجر واحد حين تخلص من الهلاليين والسليميين وأرسلهم في نفس الوقت للقضاء على صاحب القيروان الخالع لطاعته. وقال وزيره الذي ذكره ابن خلدون: "سيتخلص خليفتنا منهم، ولا يهمنا إن لم تنجح المهمة".

على انه من عقل بشري كان قادرا على استيعاب الأثر الذي أحدثه قدوم الهلاليين

إلى المغرب. فقد تفشت جرثومتهم بشكل فظيع في أنحاء البلاد. ولم يستطع الصنهاجيون الصمود في وجه الغزاة على الرغم من سيطرتهم على زناتة. ذلك أن تلك السيطرة قامت على الإرهاب. الأمر الذي جعل الزناتيين ينتقلون بسهولة إلى جانب الأعداء على ارض المعركة.

وعلى الرغم من فارق اللغة والجنس فقد قام تفاهم بين البدو وزناتة بسبب التشابه في نمط الحياة. واستطاع البدو الذين لم يكونوا على جانب عظيم من القوة أن يستقطبوا بلاد زناتة بسهولة. وكانوا بمثابة عود ثقاب في برميل من البارود.

الدولة الزناتية الجديدة

ينبغي أن نتخطى حدود العصر الوسيط الأول كي نشهد نهضة زناتة عن كثب.

سبق لنا القول أن البدو لم يفكروا قط بإنشاء أسرة حاكمة. لكن ذلك ليس عين الحقيقة. فقد أشار ابن خلدون لقيام دولة هلالية صغيرة في قابس سكت النقود واستمرت بعض الوقت. ولعل انصراف البدو عن فكرة الدولة يرجع لعدم قدرتهم عليها أو جهلهم بها.

وهم بذلك يختلفون عن زناتة. فبعد أن حررها قدوم البدو من سلطة صنهاجة أعادت تكوين نفسها وأسست أقوى أسرتين حاكمتين في تاريخها: بنو عبد الواحد في تلمسان والمرينيون في فاس. وبذلك تحقق انتصار زناتة. أي البربر البدو. ولم يكن هذا الانتصار أعظم ما أصبح عليه في تلك الفترة. تلك ظاهرة على صلة وثيقة بمجيء الهلاليين وبني سليم. وبإمكاننا أن نحدد هذه الصلة.

كان على صنهاجة أن يجابهوا زناتة الصنف الأول كما يسميهم ابن خلدون. وقد رأينا في الفصول السابقة ما يعنيه بذلك. وكان "وسط المغرب" أي مجموعة السهول لعالية والواطئة الممتدة بين هدنة ومولوية تحت حكم قبيلتين بدويتين كبيرتين بزعامة أسرتين حاكمتين. والقبيلتان هما مغراوة وبنو يفرن. هؤلاء هم زناتة الصنف الأول. وتركزت جهود الصنهاجيين ضد بني مغراوة وبني يفرن. وتكللت جهودهم بالنجاح. وتم طرد القبيلتين من وسط المغرب ومن مراكش أيضا حيث قضى عليهم المرابطون أعداؤهم الجدد. وبدا انتصار الصنهاجيين كاملا.

على أن المغرب لم يبق فارغا بعد طرد مغراوة وبني يفرن. وظل فيه شعب من البدو وزناتة. وحتى القرن الرابع عشر. لم يفقد المغرب كونه -كما يقول ابن خلدون- موطن

زناتة عن حق وحقيقة. وتمسك الزناتيون الذين حافظوا على بقائهم بعد زوال الصنف الأول. تمسكوا بالخط الحياتي لأسلافهم. فليس غير الدولة الأوروبية قادرة على صهر البدو وربطهم بحكم إداري قادر على تغيير الطبيعة الاقتصادية في السهول الوعرة. ولم تكن حكومة صنهاجة قادرة على مجرد التفكير في شيء من هذا القبيل. واكتفت بالسيطرة على مجموعة من القبائل المشتتة الخاضعة لنفوذ القيروان والقلعة. وأخيرا وصل العرب. وأصبح الزناتيون في وضع ممتاز من ناحيتين: أولا لم يعد حكم صنهاجة مهيب الجانب بما في ذلك بجاية نفسها. ثم الغزو العربي ساهم بدوره في زعزعة هذا الحكم. واستمر المد طويلا قبل أن يبلغ أواسط المغرب. ومن المرجح على كل حال أن تكون بلاد زناتة في وسط المغرب قد حافظت على وجودها بعد الغزو العربي. ومن المؤكد أن "الذئاب العرب" لم يطأوا ارض زناتة حتى القرن الرابع عشر. ولم تظهر القبائل العربية في تاريخ تلك البلاد إلا نادرا.

أما زناتة وسط المغرب فقد هادنوا البدو واعتمدوا عليهم قبل أن يدركوا خطورة ما قدموا عليه. وهكذا تستمدوا منهم قوة جديدة ساعدتهم على بعث إمارات على غرار الإمارات الأولى كبني يفرن ومغراوة. وهكذا نشأت أسرة بني عبد الواحد وأسرة المرينيين وهم من زناتة الصف الثاني.

ومنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر. أصبح بنو عبد الواحد شديدي البأس في منطقة تلمسان. وأسس بطلهم يغموراسن ابتداء من سنة 1235 أسرته الحاكمة رسميا.

بعد ذلك بعدة سنوات أي في سنة 1248 استولى المرينيون على فاس وأسسوا فيها أسرة تحمل اسمهم على أنقاض دولة الموحدين.

ولم يعرف زناتيو الصنف الأول مصيرا أعظم من هذا المصير. على أن بني يفرن وأبناء عمهم بني عبد الواحد كانوا على عداوة شديدة رغم القرابة بينهم. شأن مغراوة وبني يفرن من قبلهم.

لكن هناك فترة قرنين كاملين تفصل بين الحادي عشر الذي عرف ظهور الهلاليين والثالث عشر الذي شهد توطد حكم بني عبد الواحد والمرينيين. وقد لزم وقت كهذا الوقت لتبعث بلاد زناتة من جديد. ذلك مثال لصالح المملكة الصنهاجية. فدورها في تهديم اثر البدو كان عميقا جدا. ولكن سرعان ما نبت غصن زناتة من جديد على صورة اشد وأقوى. وفي هذا الصراع الحيوي بين القبائل. هذا الصراع الذي يشكل أهم نقطة

في تاريخ المغرب في العصر الوسيط، وكان الدعم البدوي في أساس الانتصار الذي أحرزه أولئك الرحل.

الخلاصة

المغرب في الجزء الثاني من العصر الوسيط

انتصار الزناتة والانهيار الشامل

دولة المغرب في نهاية العصر الوسيط

لقد سعينا لإزاحة الستار عن تاريخ المغرب في العصر الوسيط الأول وإيضاح مختلف المراحل التي مر بها. وها نحن نشارف على نهاية مهمتنا. ولو كان تاريخ المغرب كأي تاريخ آخر، لما احتجنا لإضافة سطر واحد على ما ذكرناه. لكن تاريخ المغرب ليس كسائر التواريخ لأنه لم يكتب قط. وما من احد يعرفه. لذا نرى لزاما علينا أن نخصص فصلا مطولا للاستنتاجات. فبودنا أن نرسم ملامح المغرب في نهاية العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة، تماما كما خرج من العصر الوسيط الأول. لقد كانت نهاية العصر الوسيط مرحلة من التفكك الذي لا مرد له. وهذا ما نتوخى ملامسته في استنتاجاتنا.

الحفصيون وتلمسان كل ما تبقى.

على طول المنطقة الواقعة في مراكش الشرقية- أي نفس المنطقة التي نسميها اليوم الجزائر وتونس، لا تزال افريقية موجودة وهي تونس.

بزوال آخر سلطان صنهاجي (نحو 1160) كانت تونس سعيدة جدا بمساندة الحاكم الموحد بكل ما أوتيت من قوة، والحاكم هو الذي أسس أسرة مستقلة. لكن أي شيء لم يتغير. وظلت افريقية مشابهة لنفسها سواء كانت القيروان عاصمتها أم تونس- فهي مجموعة المدنيين أنفسهم القابعين وراء أسوارها عاجزين عن التأثير خارج تلك الأسوار.

وفي داخل الحدود المدينة حيث يعيش أناس حضريون وتجار وحرفيون وموظفون، لا تمكن الحياة دون سلطان على رأس الحكم. وهم يطبعون السلطان بطابعهم كائنا ما كان القطر الذي أتى منه. فحينما وصلنا إلى تونس وجدنا فيها "بيكا" تركيا. أما زميله بيك الجزائر فقد ظل بعد أربعة قرون محافظا على طابعه التركي إذ يتكلم التركية ويحيط نفسه بالأتراك الذين يشعرون ببعدهم عن الوطن الذين نصبوا عليه حكاما.

أما في تونس فتختلف الحال إذ لم يبق شيء من السمات التركية لدى الحاكم رغم ظاهرة الاسم. إذ كان الداي سلطانا تونسيا من افريقية كسائر أسلافه الحفصيين والصنهاجيين والأغالبة. وهكذا ظلت ذكريات قرطاجة لم تتغير. حيث أنها لم تمت تماما وليست في الوقت نفسه قادرة على الحياة. فهي بمثابة برعم لا يتفتح.

وبعيدا عن تونس الحفصية على طرف البلاد الأخرى ظهرت تلمسان المدينة الجديدة التي بناها يغموراسن وبنو عبد الواد. وقد وعى ابن خلدون حقيقتها. وفي ذلك الحين أصبحت عاصمة المغرب المتوسط والوطن الأم لقبائل زناتة.

وليست تلمسان متميزة بالطابع الشرقي. فهي اقرب لمراكش وهي على صلات قوية بفاس. كما نستطيع في وقتنا الحاضر أن نلاحظ الطابع الغربي الطاغي على هندسة تلمسان. وهو مراكشي أو اسباني.

وهذا ما يجعل تلمسان جوهرة في الجزائر حاليا. وليس هذا كل شيء.

زوال المغرب المتوسط

وتلمسان هي المدينة الوحيدة التي لا تزال موجودة في الجزائر منذ العصر الوسيط.

وبعد دخول البدو على المسرح في القرنين التاليين. أصيب المغرب المتوسط بين تونس وتلمسن بالشلل والجمود. واختفت آشير وقلعة بني حماد وبجاية الحمادية والحفصية. كما اختفت تيهرت وارشغول. وزالت البطحاء من الوجود ولم تعد تعرف آثارها. ويورد ابن خلدون سلسلة من أسماء المدن الميتة التي لم تعد تثير أي ذكرى في نفوسنا: "وهكذا زالت شلف وقصر عجيسة والخضراء ومتدجة وحمزة وموسى جدجاب والجباه والقلعة. ولم يبق احد في تلك المدن. كما لم يعد يسمح صياح ديك فيها".

وليس البدو وحدهم السبب في ذلك وقد سبق لابن غانية آخر سلالة المرابطين أن هاجم المغرب الشرقي طيلة نصف قرن. وهي من أطول ملاحم قطاعي الطرق. وإن دلت على شيء فعلى أن البلاد في طور الانحلال. ولنتصور أن وضعا كهذا يستمر ثلاثة قرون. فلا بد للمغرب حيال ذلك إلا أن يموت وعندها تحوم العقبان حول الجثة. وقد رأينا كيف أن المغرب في العصر الوسيط الأول قد تخلص من الغرباء. ولم يعد يحمل من الفاتح العربي سوى دينه. وجاءت فترة تجاوز فيها البربري حدوده وتطلع نحو جيرانه في اسبانيا وصقلية ومصر. وليست تلك الحقبة من تاريخ المغرب أكثر الحقبات غموضا وإنما كانت أبرزها.

وكأن البلاد في تلك الحين قد أفادت من المخزون البشري والاقتصادي الذي خلفه الرومان.

وقفلت تلك الفترة بمجيء البدوي. وبدأت الساعة تدور إلى الوراء وعاد المغرب الأولي ألا وهي الخضوع للفاتح الأجنبي.

وبات يشهد مجيء ارمني هو قراقوش إلى جانب ابن غانية الذي كان اسبانيا.

لكن هؤلاء مجرد أفراد وقادة عصابات عاديين. وهم أشبه بالنبالة الأكراد (الغز) والفرق المسيحية التي ظهرت في جيوش بني عبد الواد والمرينيين. وحتى الموحدين من قبلهم.

واخطر من ذلك أن بعض الدول الأوروبية بدأت تغامر عسكريا على الشواطئ المغربية. فسقطت طرابلس بعض الوقت في ي صقليي روجر سنة 1145 ثم سقطت في يد الجنويين عام 1354. وفي منتصف القرن الثاني عشر لم يكتف أسطول روجر بطرابلس بل استولى أيضا على المهدية وصفاقس وسوسه وشدد روجر سلطته على جميع المقاطعات البحرية لافريقية واحتفظ بها وقتا طويلا تحت سلطته.

المرابطون والموحدون والمرينيون

لم نتكلم حتى الآن إلا عن المغرب الشرقي. فثمة فارق تاريخي بينه وبين المغرب الغربي الذي نطلق عليه اليوم اسم مراكش. فمراكش كما نراها اليوم نشأت في عصر متأخر لان مدينة مراكش عاصمتها الثانية لم تظهر إلا في القرن الحادي عشر. كما رأينا من جهة أخرى أن فاس التي لا نتصور مراكش بدونها قد أسست على يد إدريس الثاني.

وقد جاءت الأسر المراكشية الكبرى كالمرابطين والموحدين (وهم بمصاف الفاطميين من حيث الأهمية) بعد الفاطميين ولا تنتمي بذلك للعصر الوسيط الأول. وليس في نيتنا الإسهاب في الحديث حول هذا المجال.

لكنه خليق بنا أن نبين أن سلم التطور هو نفسه سواء في مراكش أم في غربي المغرب. أي انه تطور جاء متأخرا. ويبدو لنا أن حاكم كتامة وصنهاجة هو الذي نزع لتحقيق وحدة المغرب وإبراز شخصيته المستقلة. والحقيقة أن أسرة الموحدين قد سارت في نفس الاتجاه بعد ذلك بقرنين.

وقيام أسرة المرابطين رافق ظهور بدو الصحراء الملثمين ابتداء من مراكش وحتى بلاد الأندلس. لقد كانت أسرة بارزة وقصيرة الأجل.

نشأت أسرة الموحدين كردة فعل عنيفة ضد المرابطين البدو. أنشأها القبائل هي

الأخرى، وهم قبائل أعالي الأطلس جنوبي مراكش. وكانت من أدوم الأسر الحاكمة في مراكش ومن ألمعها.

وجملة القول إن أعظم أسرتين عرفهما مغرب العصور الوسطى هما الفاطميون والموحدون وهما من اسر القبائل. وليس هذا وليد صدفة على كل حال، لأنه منطبق على المفهوم الغربي القبائل أن تحالف سكان المدن مع الفلاحين يؤدي لنتيجة ايجابية حيثما كان.

ودولة الموحدين كدولة الفاطميين من تلك الدول المغربية التي تنشأ فجأة. وسرعان ما مدت جذورها إلى الطرف الآخر للمغرب وحتى تونس. لكن ضعف الموحدين في الجزائر كان كضعف الفاطميين في مراكش. وقد أعطى الموحدون حكما جديدا لافريقية، هو حكم الحفصيين. لقد كانت الغاية وضع البدو الزناتة عند حدهم. ولا مجال للتساؤل هناك إذا كان الموحدون قد فشلوا في هذا الأمر. وقد مضوا لإسقاط المرينيين وهم من الأسر الزناتية، مستندين في ذلك على بدو يعملون لصالحهم. ولم يعد ثمة مجال لإنشاء دولة في بلاد تغلغل فيها البدو أيما تغلغل.

ولنشر هنا إلى أن انتصار زناتة هو بمثابة بداية النهاية سواء في مراكش أو في الجزائر. فقد انتهى عهد الحملات الظافرة على اسبانية، كما انتهى عهد السيطرة على ضفتي جبل طارق. فلم يتمكن الحكم المريني الذي وقع فريسة التآكل مع نسيبه حكم عبد الواد شأن الزناتة - لم يتمكن من إيقاف تقدم الملوك المسيحيين الاسبان. ولم يطل الوقت حتى حط الاسبان والبرتغاليون رحالهم على الشواطئ المراكشية.وهكذا في مراكش كما في شرقي المغرب نشاهد أسرة من القبائل تقوم بأعمال عظيمة وتكاد تحقق كيان دولة. وسرعان ما انهار كل شيء بانتصار زناتة التي أحياها البدو. فليس من الممكن نفي التوازي بين تينك العمليتين التطوريتين بعد تأخر دام قرنين.

على أن النتيجة النهائية واحدة، انه الانحلال. وقد عاش ابن خلدون في حقبة بلغ فيها الانحلال ذروته. واستطاع أن يعي الموقف كما رأينا. تلك هي خاصة القرون التي تلت العصر الوسيط.

زناتة تستعرب

ولكي نفسر ظاهرة التقهقر هذه ونبين ملابسات الموضوع المرتبط بزناتة يبقى أن نشير لنتيجة أخرى تتعلق بالغزو البدو والتي قادت إلى الكارثة على ما أظن.

علينا أن نفكر بالدور الذي لعبه الزناتة في بلاد المغرب. فهم الذين كانوا طيور العاصفة والملاك الأسود وهم الذين قضوا على المغرب. فقد لعب جميع الزناتة سواء من الصنف الأول أو الثاني -لعبوا دورهم بعنف وقو ونجاح. بحيث لم تواز زناتة قبيلة أخرى من قبائل البربر، كيف لا وهي قبيلة الجمالين الرحل الكبار.

ولكن ما الذي حل بها الآن وأين نعثر على بقاياها اليوم؟ أفي السهول أم في المرتفعات أم الهضاب؟ انه لغريب حقا إلا نعثر عليها أبدا. فلعلها زالت دون أن تترك لها أثرا.

إن جميع الأسر الحاكمة في المغرب قد زالت وهذه قاعدة عامة. فقد انقرض بنو مرين وعبد الواد ومغراوة وبنو يفرن. ولكن أين القبائل الباقية التي لم تصل إلى سدة الحكم؟ لقد زال الكتاميون والصنهاجيون لكن بني زواوة وهم ينتمون لقبيلة متواضعة حليفة لهم حافظوا على لقائهم. كما زال بنو لمتونة المرابطون. لكن الصحراء لا تزال مسرحا لأولئك البربر الملثمين أحفاد لمتونة. أما وضع زناتة فغريب حقا، لأنهم لم يتركوا أي اثر.

وظني أن البدو المغلوبين على أمرهم بعد أن فقدوا كل شيء سيتحولون إلى فلاحين. والواقع أن في قرى زسفانة وغرارة والاغواط ووادي غير نجد شعبا يائسا اقرب إلى الزنوج يلقب نفسه بالشعب الزناتي أو انه ينتمي للقبائل الزناتية المعروفة مثل "بني قومي" والاغواطيين والفيريين. يضاف إلى ذلك اباضية الزاب الذين حافظوا على استقلالهم وكرامتهم وعرقهم الأبيض نظرا لتعلقهم بالدين وممارستهم التجارة. ولكن هل صحيح أن أولئك القرويين هم كل ما تبقى من زناتة؟ اغلب الظن أن الأمر صحيح.

لكن بلاد زناتة لم تزل من الوجود فلا تزال الهضاب والسهول التي كانت مرتعا لهم على حالها. لكن سكان هذه البلاد يسمون أنفسهم عربا ويعلنون انتماءهم للهلاليين وبني سليم وكأن هؤلاء البدو قد حلوا محل الزناتيين فردا فردا.

وإذا القينا نظرة إجمالية على خريطة اللغات الشائعة في المغرب لرأينا أن بلاد زناتة من ابرز المناطق التي تتكلم العربية بحيث أن هذه اللغة تسود الآن تونس والأوراس وتمتد إلى هدنة والمرتفعات والسهول الوهرانية وتتعرج عبر غور تازه لتبلغ السهول الأطلسية المراكشية. أي في حدود بلاد زناتة.

فهل يصح أن نسلم بزوال هذه القبيلة. ومن المعروف أن البدوي لا يترك له جذورا فهو يرتحل كلما خسر المعركة. ولكن هل خسر الزناتي المعركة ضد البدوي؟ فبنو عبد الواد والمرينيون كانوا أسرا زناتية لا بدوية.

رابط الدم

أنها قضية أثارت فضول الباحثين فهل يمكن القول أن الدم العربي قد حل في محل الدم البربري؟

يبدو الأمر مستبعدا لأول وهلة. فالهلاليون وبنو سليم عبروا برقة وطرابلس قبل أن يبلغوا الجنوب التونسي وهي مناطق يقطنها البربر. فلم تكن هاتان القبيلتان إذن ذات دم عربي صاف. وقد حير بنو قرة وهم فرع من الهلاليين المؤرخ ابن خلدون حول نسبهم.

ثم نتساءل: كم كان عدد الهلاليين وبني سليم حين أموا بلاد المغرب؟ هنا لا يعطينا ابن خلدون إجابة شافية.

أول فرقة من الهلاليين وهي التي هزمت الصنهاجيين تتغنى بأنها هزمت ثلاثين ألفا في حين لا يزيد تعدادها على الثلاثة آلاف. ويبدو أن الرقم ليس مبالغا فيه لان معظم جيش الصنهاجيين فر إلى صفوف الأعداء.

وبنو مكيل من أهم القبائل العربية التي استوطنت الصحراء المراكشية واليك ما يقول عنهم ابن خلدون."جاء بنو مكيل إلى المغرب مع القبائل المتحدرة من بني هلال ويقال أن عددهم لم يزد في ذلك الوقت على المئتين".

ولا يمكننا بالطبع أن نثق كثيرا بهذه الأرقام. غير أنها ذات دلالة. فليس بإمكاننا أن نتوقع أرقاما أضخم بالنسبة للقبائل الصحراوية. علما بأنها انتقلت من شبه الجزيرة إلى صعيد مصر.

وحينما قرر الحاكم الفاطمي إرسال البدو إلى المغرب أعطى كلا منهم "معطفا من الجلد وقطعة من الذهب". مما يدل على قلة عددهم. ثم إن الفرق الصغيرة وحدها قادرة على اجتياز ألفي كيلو متر من الصحراء. وقد قدر عدد بني هلال وبني سليم بمئتي ألف نسمة كحد أقصى. وهو رقم اعتباطي لكنه مقارب للحقيقة. أما عدد سكان المغرب في القرن التاسع فكان يبلغ عشرة ملايين نسمة. وتكون نسبة الدم العربي بمعدل 200,000 إلى 10,000,000 أي اثنين بالمئة. ولا نعرف كيف أن البدو تكاثروا جدا منذ القرن الثاني عشر.لا سيما وان الحرب الدائمة ليست ملائمة لزيادة عدد السكان.

تلك هي اعتبارات تشير إلى أن البدو كانوا بمثابة الخميرة في بلاد المغرب. ولنحاول الآن مع ابن خلدون أن نرسم خريطة اللغات في القرن الرابع عشر.

من المؤكد أن البدو احتلوا على الفور الجزء الشمالي من الصحراء على سفح الأطلس

وحتى الأطلسي.ويبدو أنهم لم يلقوا مقاومة شديدة لا سيما في المغرب.

ويقول ابن خلدون أنهم وجدوا سوس "خلو من قبائل البدو تقريبا". ولعل الصحراء الشمالية هي البقعة التي نجد فيها نسبة كبيرة للدم العربي. حتى أنت بعض أشكال الإعراب التي اختنقت في سائر المغرب لا تزال موجودة هناك.

وفي المغرب نفسه يبدو أن ثمة حدودا مهمة كانت قائمة تحت هاجرة الجزائر.وفي سنة 1241 "كانت صحراء زهريز وهي منطقة بجنوبي تتري تشكل الحدود الغربية لنشاطات بني رياح وبني سليم". ويشير ابن خلدون لتردد هاتين القبيلتين العربيتين في عبور هذه الحدود الخطرة .

أما المنطقة الواقعة قبلها أي في هدنة و الجنوب التونسي فليسوا غرباء ابدأ. وأما من الجهة التالية فتبدأ حدود وسط المغرب بلاد زناتة. وهذا شيء آخر.

إذا كان هنالك بدو (كالزغبة ومكيل) لكنهم لم يكونوا في مركز الأمر. أما زناتة فهم من الأسياد ومن اشد البربر باسا. ويحكى عن يغمراسن انه استعمل رأس قندوز وأصحابه كحجارة للموقد. وزناتة أيضا شديد والتبجح بعبقريتهم ويذكر أن يغمراسن هتف حين قيل له انه من أسرة إدريس: "لو صح هذا لأفادنا أمام الله. أما هنا على هذه الأرض فلا نعتمد على غير سيوفنا".

إن تقهقر الأسر الزناتية الكبرى قد مهد الطريق لسيطرة البدو. وقد عايش ابن خلدون تلك الفئة. وقال أن جميع قبائل البربر المقيمة في وسط المغرب أصبحت خاضعة للعرب من بني زغبة". ويعني المنطقة التي يعبرها نهر شلف. وهذا لا ينفي أن معظم سكان المنطقة كما ورد في كتابه هم من زناتة.

وفي تلك الحقبة لم يكن العرب قد توغلوا في مراكش. "فطنجة وسيالة وازمور كلها مدن بربرية". ويقول ابن خلدون في موضع آخر:"في سهول ازجر وتامينا وتدلا والدقالا (أي في السهول المراكشية الأطلسية) كانت تعيش شعوب من البدو والبربر والعرب. وقد دخل العرب إليها في فترة متأخرة". وورد في كتاب القرطاس أن خطيب المسجد كان يحتاج لمعرفة البربرية. والطابع البربري ظل غالبا في بلاد المغرب حتى القرن الرابع عشر عصر ابن خلدون. وقد وضع المؤلف العربي كتابه حول "تاريخ البربر".

حتى بين المقاطعات التي يسيطر عليها البدو في هدنة وجنوبي تونس استطاع ابن خلدون أن يميز بين قبائل البدو والقبائل العربية. لكن ادعاءها لا أساس له من الصحة وهي من أصل كتامي".

وكم من أشخاص ينتمون لهوارة وصدويقش أعلنوا نفسهم هلاليين أو سليميين. فالخطأ في الأنساب كان قاعدة في بلاد المغرب.

وبنو زغبة مثلا انضموا لبني بادين القبيلة الزناتية.

كما نعثر اليوم في السهول الوعرة وفي البقعة التي نشأ فيها بنو عبد الواد، نعثر على بني غيل ومنهم فئة تسمى بني غرامراسن. ولعلها نسيبة يغمراسن مؤسسة أسرة بني عبد الواد. ولكن لا يخطر ببال بني غيل أبدا أنهم من غير العرب الاقحاح.

بعد ذلك وقعت حوادث جديدة جعلت حركة الاستعراب تتقهقر. وذلك بعد خسارة المسلمين اسبانيا وطرد "المور" من بلاد الأندلس. وحصلت في المغرب خضات عنيفة هزت كيانه الداخلي.

ويقول ابن خلدون "إن مقاطعتي بجاية وقسنطينة كانتا في السابق تابعتين لقبائل زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة، أما اليوم فيقيم فيها العرب ما عدا بعض الجبال التي يصعب الوصول إليها، حيث نجد فيها أثارا لتلك القبائل".

ولكن يبدو الأمر مستغربا بالنسبة إلينا نحن اليوم، لاسيما وان بجاية هي معقل البربر. فهل اخطأ ابن خلدون في اعتباره هذا؟

لقد عرف مؤرخ العرب الكبير مدينة بجاية الحفصية وريثة بجاية الحمادية، وهي مدينة كانت تتسع لمئة شخص بأحيائها وتوابعها. وكانت فيها اللغة العربية اللغة الأولى. لكن عاودوا الاستيلاء عليها وسيطرت اللهجة البربرية على اللغة العربية رغم قوتها ومميزاتها. لاسيما وأننا في وسط بلاد القبائل بعيدا عن زناتة.

والزناتيون هم الذين استعربوا تماما، نظرا لمشابهتهم العرب من حيث نمط الحياة.

وهكذا نرى أن أولئك الذين نسميهم اليوم عربا هم الزناتيون أنفسهم بعد أن استعربوا.

ويبدو هذا التحليل غريبا بعض الشيء. لان العرب المستوطنين هناك لا يقرون بانتمائهم للبربر، وهم موقنون بأنهم عرب اقحاح أبا عن جد. ذاك أن اثر البدو قد فعل فعله العميق في نفوسهم.

حيثما كان الزناتة إذن نجد العرب اليوم. لكنها عملية تبدل فظيعة. ففي العصر الوسيط الأول كانت الكراهية على أشدها بين صنهاجة وزناتة وبين البرانس والبتر، وذلك بسبب اختلاف نمط الحياة. لكنهم كانوا أشقاء لدودين ينتمون لعرق واحد.

أما اليوم فتختلف الحال. فليس التصادم بين مجتمعين، البدو والحضر، وإنما بين عرقين، العرب والبربر. وهكذا ازدادت عناصر الانحلال في بلاد المغرب.

إن عصور المغرب المظلمة في العهد الوسيط بعيدة عنا كل البعد. لكن تلك الحقبة تكون ثغرة عميقة في تاريخ هذه البلاد، ولو استطعنا الإمساك بطرف خيوطها لسهل علينا الأمر حتى بالنسبة لحاضر المغرب.

وعلينا إلا نيأس من إمكانية الوصول لحقيقة هذا التاريخ المغربي مهما كان صعبا. كما لا يغربن عن بالنا بان تفهم الماضي هو الذي يساعدنا على معرفة الحاضر.

وقبل أن نختم هذا الكتاب حري بنا أن نشير إلى أن فيه عيبا رئيسيا. فالكتاب الذي يتناول فترة طويلة من التاريخ لابد وان يكون ملخصا لدراسات عديدة مفصلة. وتاريخ المغرب فقير في هذا المجال. من هنا قد يتهمنا البعض بأننا اعددنا السكة قبل إحضار الثيران.

وعذرنا انه ليس بإمكاننا أن نفعل أكثر مما فعلناه، اللهم إلا إذا شئنا الاكتفاء بالتزام الصمت. وتاريخ المغرب في العصر الوسيط الأول هو أكثر تواريخ العالم غنى بالفرضيات على حد قول رينان وعملنا هذا يمكن اعتباره مؤقتا.

لقد رأيت من واجبي أمام زحمة الوثائق المبهمة التي أتى بها المؤرخون العرب، وأمام إغفال المؤرخين لتاريخ المغرب، أن افتح المجال كبيرا للافتراضات. فلعل بالإمكان تصنيف الوثائق المتوفرة لدينا وتنسيقها. على إنني شددت كثيرا على الانطلاق من أسس ثابتة قدر المستطاع. سوى أن الافتراضات كانت كثيرة، وهذا ما يجعله بداية للتفكير، ومن شأنه أن يثير الفضول العلمي للنقد والتصويب والتصحيح. ولعله يكون بالنتيجة نقطة انطلاق لدراسات معمقة عن تاريخ بلاد المغرب.

مؤلفات وأبحاث حديثة:

BARTH. Wanderungen durch die Kustenlander des Mittelmeeres, 1849.

BASSET (René). Etude sur la Zenatia du Mzab, de Ouargla, et de l'oued R'ir, dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

BEL (Alfred). Les Benou Ghanya et leur lutte contre l'empire almohade, dans Publications de l'Ecole des lettres d'Alger.
Paris, Leroux.

BEYLIE (De). La Kalaa des Beni-Hammad. Paris, Leroux, 1909.

CARCOPINO (Jérôme). Le limes de Numidie et sa garde syrienne. Extrait de la revue Syria, 1925.

CAUVET (Commandant). Les mares à silures de l'Algérie, dans Bulletin de la Société d'histoire naturelle de l'Afrique du Nord, 15 juin 1915.

COHEN (Marcel). Le parler arabe des Juifs d'Alger. Collection linguistique publiée par la Société de Linguistique de Paris. T. IV. Paris, Champion, 1912.

COUR (Auguste). L'établissement des dynasties des chériffs au Maroc (1509-1830), dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux 1904.

DESTAING. Etude sur le dialecte berbère des Beni-Snous, dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

DOUTTE. Excursion dans la région forestière du Cap Bougaroun, dans Bulletin Soc. Géog. d'Oran, 1897.

DUVEYRIER. Les Touaregs du Nord. Paris, 1864.

FERAUD. Notice sur les Oulad Abd-en-Nour, dans Recueil Soc. Archéol. de Constantine, 1864.

FERAUD. L'oued-el-Kebir et Collo (massacre du bey Osman), dans Revue Africaine, t. III, 18581859-, p. 199 et s.

FERAUD. Mœurs et coutumes kabyles (il s'agit des Kabyles orientaux, c'est-à-dire des Ketamas) dans Revue Africaine, 1862, p. 272 et s. ; 429 et s. ; 1863, p. 67 et s.

FLAMAND (G. B. M.). Les pierres écrites du Nord-Africain, Paris. Masson, 1921.

FLAUBERT. Salammbô. Cité d'après l'édition Charpentier, 1885.

GAUTIER (E.F). A travers le Sahara français, dans la Géographie, 1907. T.I.

GAUTIER (E.F). Sahara Algérien. Colin, 1908. Interprétation biologique des grandes catastrophes, dans le Mercure de France. T. XI, 1919.

GAUTIER (E.F) L'Algérie et la Métropole. Payot, Paris, 1920.
GAUTIER (E.F). Structure de l'Algérie. Paris, Société d'éditions géographiques, 1922.

GAUTIER (E.F). Le Sahara. Payot, Paris, 1923.

GAUTIER (E.F). Nomads and sedentary folks of Northern Africa, dans Geographical Review 1923, New York.

GAUTIER (E.F). Native life in French North Africa, dans Geographical Review 1923, New York.

GAUTIER (E.F). Un passage d'Ibn-Khaldoun et du Bayan, dans Hespéris. Année 1924, 3e trimestre, p. 305. Paris, Larose.

GAUTIER (E.F). Le Moyen-Atlas, dans Hespéris, 4e trimestre 1925. Paris, Larose.

GSELL (St.). L'Algérie dans l'Antiquité. Alger, 1903.

GSELL (St.). Monuments antiques de l'Algérie. Paris, Fontemoing, 1905.

GSELL (St.). Atlas archéologique de l'Algérie. Paris, Fontemoing, 1911.

GSELL (St.). Histoire ancienne de l'Afrique du Nord. Paris, Hachette, 1913.

JOLEAUD (L.). Sur l'âge de l'elephas Africanus en Numidie, dans Recueil des notices ... Soc. archéol. de Constantine. Année 1914.

POMEL. Les éléphants quaternaires, dans Commentaire de la carte géologique de l'Algérie, 1895.

LA RONCIERE. Découverte de l'Afrique au Moyen Age. Paris, 1924.

MARCAIS (Georges). Album de pierre, plâtre et bois sculpté. Alger, Jourdan, 1909.

MARCAIS (Georges). Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle. Paris, Leroux, 1913.

MARCAIS (Geroges). Achir (dessin fig. 1 représentant l'assiette de la vielle), dans Revue Africaine. T. 63, année 1922, p.22.

MASPERO. Histoire ancienne des peuples de l'Orient. Edition abrégée. Paris, Hachette, 1905.

MASPERO. Guide du Musée du Caire. Le Caire, 1915.

MASQUERAY. Le djebel Chechar, dans Revue Africaine. XXIIe année, 1878.

MASQUERAY. Traditions de l'Arouas oriental, dans Bulletin de Correspondance africaine. Quatrième année, 1885, p. 72 et ss.

MERCIER (Ernest). Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie), en 3 tomes. Paris, Leroux, 1888.
MERCIER (Gustave). La langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, dans Journal asiatique. Octobre-décembre 1924.

MERLIN (Alfred). Le sanctuaire de Baal et de Tanit près de Siagu, dans Notes et documents publiés par la Direction des Antiquités. Paris, Leroux, 1910.

PELLEGRIN (J.). Les vertébrés aquatiques du Sahara, dans C. R. Ac. Sc. CLIII, 1911. p. 972974-.

RENAN. Les Evangiles et la seconde génération chrétienne. Edition Calmann-Lévy.

RICH. Dictionnaire des Antiquités, traduit par Chéruel. Paris, 1861.

RODET (Capitaine). Les ruines d'Achir, dans Revue Africaine. T.52, année 1908, p. 86 et ss.

ROLLAND. Hydrologie du Sahara. Documents relatifs à la mission Choisy. Paris, Imprimerie nationale, 1890 (planche XXIX).

SHAW. Travels and observations relating to several parts of Barbary. Oxford, 1738.

SHAW. Actes du XIVe Congrès international des Orienatalistes. Paris, Leroux.

SHAW. Journal asiatique. 1852, II, p.59 (à propos du Canal à travers la lagune de Tunis).

SHAW. Recherches des antiquités dans le Nord de l'Afrique. Instructions adressées par le Comité des travaux historiques aux correspondants du ministère de l'I.P. Paris. Leroux, 1890.

SHAW. Revue générale des sciences. 1916, p. 112. Compte rendu d'un travail de Marais (Eugène) sur les effets d'une extrême sécheresse dans l'Afrique du Sud.

CAGNAT (René). L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs. Paris, Leroux, 1892.

DIEHL (Charles). L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en

Afrique (533709-). Paris, Leroux, 1896.

MONCEAUX (Paul). Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis l'origine jusqu'à l'invasion arabe. Paris, Leroux, 19001923-.

GSELL (S.) La Tripolitaine et le Sahara au IIIe siècle de notre ère. Extrait des Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. T. XLIII, Paris, 1926.

J'ai tenu le plus grand compte des critiques aimables formulées par W. Marçais. Revue critique, juin 1929, p. 255 et s.

مؤلفون قدامى

APPIEN. Edition Didot.

ARISTOTE. Edition Didot.

AELIEN. De natura animalium.

CORIPPUS. Johannides : de bellis libycis libri VII, dans Monumenta Germaniae historica.

DIODORE DE SICILE. Edition Didot.

FLORUS. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

FRONTIN. Bibliothèque latine-française de Panckouke.

HEREDOTE. Edition Didot.

MANILIUS. L'astronomie.

PLINE L'ANCIEN. Histoire naturelle. Edition Littré, dans la Collection Nisard.

PLUTARQUE. Vie des hommes illustres. Traduction Amyot.

PLUTARQUE. De Sollertia animalium.

POLYBE. Edition Didot.

POMPONIUS MELA. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

PROCOPE. De bello vandalico. Corpus scriptorum Historiae byzantinae. Bonnae, 1838.

SAINT AUGUSTIN. Œuvres complètes, par Péronne, Vincent Escalle, etc. Paris, 1870.

SALLUSTE. Bellum Jugurthinum, dans Œuvres complètes. Charpentier, 1874.

STRABON. Géographie. Edition Didot.

STRABON. Géographie graeci minores. Edition Didot.

STRABON. Histoire Auguste. Bibliothèque latine-française de Panckoucke (en particulier : Spartien, Vie de Septime Sévère, Caracalla).

مؤلفات عربية:

نورد المؤلفات العربية بأسمائها الأجنبية لان المؤلف رجع إلى ترجمتها الافرنسية أو اللاتينية. وقد وضع المترجم محل اسم المؤلف في بعض الأحيان لتيسير الرجوع إليه.

ABOULFEDA. Géographie, traduite par Renaud. Paris, 1848. Aboulfeda est mort en 1341. Le tome 1ER de l'édition Reinauld est une Introduction générale à la Géographie des Orientaux.

ABOU-ZAKARIA. Chronique d'Abou-Zakaria, traduite et commentée par Emile Masqueray. Alger, 1878.

BARGES (L'ABBE). Histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen, par El-Tenessi, traduite par l'abbé Bargès. Paris. 1852.

BARGES (L'ABBE). Tableau historique de la dynastie des Beni-Djellab, sultans de Touggourt, par l'imam Cid-el-Hadj-Mohammed-el-Edrissy, traduit par l'abbé Bargès.

BAYAN (LE). Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, intitulée : Al-Bayano'l-moghreb, traduite par E. Fagnan. Alger, 1901.

EL-BEKRI. Description de l'Afrique septentrionale, traduite par de Slane. Alger, 1913 (réédition).
Le livre est de 1068 ap. J.-C.

FERAUD. Kitab-el-Adouani, dans Recueil des Notices et mémoires de la Société archéologique de Constantine. 1868.

EL-IAQUBI. Descriptio al-magribi ed. et vertit Goeje. Lugd. Batav., 1860.
Le document le plus ancien : xe siècle.

IBN-EL-ATHIR. Annales du Maghreb et de l'Espagne, traduites par F. Fangnan. Alger, 1901.
Ibn-el-Athir, Mésopotamien, qui semble n'avoir jamais quitté le Levant, est mort en 1233.

IBN-KHALDOUN. Prolégomènes historiques. Traduction de Slane, dans Notices et extraits des manuscrits publiés par l'Institut. T. XIX, XX, XXI.
Dans les références, on utilisera ces numéros qui correspondent aux tomes premier, second et troisième des prolégomènes.

IBN-KHALDOUN. Histoire des Berbères, traduite de l'arabe par M. le baron de Slane. T. I, II, III, IV. Alger, 18521856-.

En appendice aux tomes I et II, de Slane a publié des fragments de :

IBN-ABD-EL-HAKEM :
« Tiré d'une histoire de la conquête de l'Egypte, composée dans la première moitié du IIIe siècle, par Ibn-Abd-el-Hakem.
Ces traditions sont les plus anciennes que les Arabes possèdent au sujet des premières invasions de l'Afrique ».

EN NOWEIRI :
« Chapitres tirés du grand ouvrage encyclopédique d'En-Noweiri, auteur égyptien qui écrivit dans le XIVe siècle de notre ère ».

EL KAIROUANI. Histoire de l'Afrique de Mohammed-el-kairouani, traduite par Pellissier et Rémusat, dans Exploration scientifique de l'Algérie. Paris, 1845.

Cette histoire de l'Afrique est de 1681.

ROUDH-EL-QIRTAS. Histoire des souverains du Maghreb et Annales de la ville de Fès, traduite par Beaumier. Paris, 1860.

MARCAIS (Geoges). Ibn-el-Ahmar.-Le jardin des Eglantines, Traduit par Ghaouti Bouali et Georges Marçais. Paris, 1917.

L'auteur arabe est mort en 1407.

EL-MERRAKECHI. Histoire des Almohades d'Abd-el-Wahid-Merrakechi, traduction française par E. Fagnan. Alger, 1893.

EL-ZERKECHI. Chronique des Almohades et des Hafcides, attribuée à Zerkechi, trad. E. Fagnan. Constantine chez Braham. 1895.

فهرس المحتويات